هنري آستارجيان

# الصراع على كركوك

## أفول الليبرالية العربية في نزاع السلطة والنفط




دار سائر المشرق

هنري آستارجيان

# الصراع على كركوك

## أفول الليبرالية العربية في نزاع السلطة والنفط

ترجمة آرا دمبكجيان

صدر بالإنكليزية بعنوان The Struggle for Kirkuk
عن Praeger security international
2007



**الطبعة الأولى**
**٢٠١٨**


جديدة المتن - نهر الموت
رقم الهاتف والفاكس ٠١-٩٠٠٦٢٤

info@entire-east.com
www.entire-east.com

**ISBN:** 978-614-451-098-8

# كلمة المترجم

أطلقَت العربُ على أرضِ العراق اسم «أرضِ السواد» لأن العربَ تسمي الأخضر أسود، لأن الأخضرَ يُرى كذلك عن بُعد، ومنه سواد العراق لخضرة أشجاره ومزروعاته.

أرضُ السوادِ هذه أشبعَت، كما هو مذكورٌ في كتب التاريخ، ثلاثين مليونًا من البشر في عهد الخليفة هارون الرشيد، وأرضُ السواد هذه أشبعت عشرين مليونًا من العراقيين وأربعة ملايين من جنسيات عربية مختلفة، ومليونًا من جنسياتٍ آسيوية كانوا يعملون في العراق خلال السنوات الثماني من الحرب العراقية-الإيرانية. كان مقدَّرًا للذهب الأسود في باطنها بكمياتٍ هائلة، أن يُصبح نعمة إلهية لشعب العراق، ولكن...

لم تُخطئ العرب بتسمية العراق بأرض السواد... سواد الخضرة على سطحها، وسواد الذهب في باطنها...

وبسبب حَسَد الناظرين من «الإخوة والأشقاء» في العنصر والدين والمذهب، تحوَّلت النعمة إلى نقمة...

وبسبب سوء إدارة الحكّام دفة الحكم في عراق الخير، تحوَّلت اللقمة الهنيئة إلى سرطان قاتل في أحشاء الشعب...

وبسبب طمع الطامعين من قوى الاستعمار العالمي، استُبدِلَ الذهب بحديد السلاح الذي صدأ على طول الحدود، فعمَّ الفقر أرض السواد وانتعش الاقتصاد الاستعماري، أي كان، فهرب «الأشقاء» بعد أن جفَّ الضرع ولم يعُدْ يُنتج دينارًا صحيًا، مقابل الدولار السليم دومًا.

كثر الطامعون في نفط العراق فأقاموا الانقلابات العسكرية والثورات الشعبية بأيدي عملائهم الذين جاءوا بقطارٍ بريطاني أو أميركي أو سوفياتي يخدمون أسيادهم، وكلٌّ يصدر بيانه الأول الذي يذكِّر الشعب بأن «انتصر الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا»... من كان الحق ومن كان الباطل؟ لله درك يا عراقي، لله درك يا عراق!

ألَّف الدكتور هنري آستارجيان كتابه The Struggle for Kirkuk في العام ٢٠٠٧ حول هذا الموضوع، ويشرِّفني أن أترجمه إلى اللغة العربية ليسدَّ فراغًا في مكتبة التاريخ السياسي لبلاد ما بين النهرَين.

ولا يزال العراق إلى اليوم يعاني من نقمة الذهب الأسود انتهاءً بحقول النفط العملاقة على أرضه، وبدءًا من حقول النفط التي استُكشفت في بداية القرن العشرين في... بابا كركر...

**المترجم**
**آرا دمبكجيان**



# المقدّمة

بدأت المعارك للسيطرة على بابا كركر، وهي أوسع الحقول النفطية في كركوك وأقدمها، إبّان الحرب العالمية الأولى، وهي مستمرةّ إلى هذا اليوم. ومن المتعارف عليه أنها مهّدت الطريق إلى الحرب الباردة التي استمرّت نصف قرن.

أثار اهتمام أبي بأخبار الحرب العالمية الثانية، ومنظر قوّات الحلفاء المتمركزة أمامنا في كركوك، فضولي وأسر عقلي الذي كان في طور النمو. وقد لعبت هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) دورًا مهمًا في استمرار هذا الاهتمام.

كنتُ في بداية سن المراهقة عندما استعرت معركة ستالينغراد، فأضحت أولى ذكرياتي عن الحرب. وقد حاز الحلفاء، ما عدا الاتحاد السوفياتي، على قلبي وفكري من جرّاء الانتصارات التي أحرزوها في ساحات المعارك، على ما صوّرتها لنا قنوات الدعاية البريطانية، إذ أصبح ونستون تشرتشل البطل الذي أعتزّ به. لعل أي مراهق اليوم يَعجب عندما أقول له إن قائدًا دوليًا وسياسيًا هو بطلي المحبوب، لأنه يتباهى بنجوم هوليوود أو الرياضة. ولكن لشابٍ يافع من كركوك، وشباب العراق عامة، لم يكن هناك نجوم سينما أو رياضة للتباهي بهم والاقتداء بإنجازاتهم، ولم يكن لدينا حتى أبطال وطنيون. فبالنسبة إلينا، كان تشرتشل ومونتغومري محط إعجابنا، لا آيزنهاور وبرادلي والجنرال باتون، لعدم معرفتنا بهم، لأن الولايات المتحدة لم تكن جزءًا من حياتنا آنذاك.

لم تعنِ بطولات الاتحاد السوفياتي وتضحيات شعوبه الكثير لي! فقد صوَّرت أجهزة الدعاية البريطانية ستالين، «أبو شوارب»، (كما كان يسميه العراقيون) شيطانًا

وطاغية قتل الملايين من شعبه (من ضمنهم آلاف الأرمن في أرمينيا السوفياتية) وأرسل مئات الآلاف إلى منافيهم في مجاهل سيبيريا.

وكرهتُ السوفيات أيضًا لأنهم دخلوا برلين أولًا. كنتُ أحسُّ أن شرف توجيه الضربة القاضية الأخيرة إلى هتلر من حق القوّات البريطانية أو الأميركية، لأنهم يستحقون طعم النصر الحلو. يتحمّل آيزنهاور جزءًا من اللوم لأنه سلّم شرف سقوط برلين إلى السوفيات فأصبح لهم موطئ قدم فيها مهّد الطريق لتأسيس ألمانيا الشرقية. كان هذا ما توصّلت إليه أيام مراهقتي متأثّرًا بالدعاية البريطانية من دون أدنى شك.

وبهذه العقلية، أدخلتني الحرب الباردة فيما بعد في صراعاتٍ إيديولوجية وفكرية مع اليساريين، وبالأحرى الشيوعيين، داخل بيئتي، الذين عارضوا النظام الملكي الموالي لبريطانيا.

هذا الكتاب ليس كتابًا لتدريس مادة التاريخ، لكنه يوثّق الأحداث زمنيًا، تلك الأحداث التي كنت شاهدًا عليها منذ العام ١٩٤٥ ولحين مغادرتي العراق في أوائل الستينات.

وللحديث عن تلك الحقبة، ينبغي رسم إطار زمني لها يمتد من تاريخ تأسيس دولة العراق الحديث إلى إسقاط النظام الملكي وتأسيس الجمهورية العراقية، التي تعتبر أب عراق صدّام.

*****

إن الهدف الرئيس من هذا الكتاب هو تعريف الأميركيين بالعراق، إلى حيث أرسلوا خيرة أولادهم، معرّضين حياتهم للخطر لتأسيس الديمقراطية والمشاركة في بناء الدولة.

لا يستطيع الأميركيون أن يتحمّلوا كلفة البقاء جهلة! عليهم أن يعرفوا العراق بتنوعاته الإثنية، حضارته وقيمه الاجتماعية. يجب أن يسلّحوا أنفسهم بالمعرفة لينجوا من مخاطر ومعوقات احتلال دولة أجنبية تقع على بعد آلاف الأميال.



يجب عدم تحميل الشعب الأميركي مسؤولية هذا الجهل، لأن العراق لم يكن على شاشاتهم إلا بعد أن قامت مجموعة من الناس لها برنامج معيّن للشرق الأوسط، بوضعه على هذه الشاشة، بعد حادثة معينة، في وقت لا يعرف فيه الكثير من الأميركيين أين يقع العراق. عندما جئت إلى نيويورك قبل أربعين سنة، سألتني عاملة في أحد المتاجر من أي بلد أنا، بعد أن انتبهت إلى لهجتي الغريبة. فقلت «من بغداد!»، فصاحت «أوه، الهند! الهند!»، لا بد أنها بلاد جميلة». فقلت في نفسي «ما هذا الجهل؟ ألا يعرف الأميركيون أين تقع بغداد؟ نصف كمية النفط التي يستخدمونها تأتيهم من هناك، ولا يعرفون أين تقع بغداد؟»

بعد أسابيعٍ قليلة تعلّمت درسي جيدًا. عندما كنت أتمشى ليلًا في شارعٍ في مانهاتن، توجّهت إلى محل كوشر (للمأكولات اليهودية الحلال) وطلبت ساندويشًا من لحم الخنزير وقدحًا من الحليب. نظر الرجل إليّ باشمئزاز وسألني «هل هذا نوع من الدعابة؟ ... إذهب إلى مكان آخر» لم أكن أعرف ما هو الكوشر! تركت المحل وأنا مهان!

عندما انتبهت إلى الزلة الاجتماعية التي ارتكبتها، تذكّرت تلك العاملة في المتجر. أنا أيضًا كنت جاهلًا، ولكن جهلي لم يكن تقصيرًا مني. ففي الوقت الذي كانت تتوفّر لها سبل المعرفة، لم أحظَ أنا بتلك الفرص. كان آخر اتصالي بالثقافة اليهودية عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري. كنا في حينه ضيوفًا في دار كُرجي وعابد من أجل معايدتهم بأحد أعيادهم. وبعد تلك المناسبة، هاجر أفراد المجتمع اليهودي في كركوك إلى إسرائيل، وكانت تلك نهاية معرفتي بذلك المجتمع في ١٩٤٩.

واليوم، وبعد أن أرسلت أميركا ١٣٥٬٠٠٠ من أفضل جنودها لاحتلال العراق، وعلى الرغم من نجاحاتنا وفشلنا، تكون مسألة عدم معرفتنا لهذا البلد وشعبه أكبر مشاكلنا. ويعرِّف كتابي القارئ، مع سلسلة من قصص واقعية في الحياة، بكلّ ما يجعل العراق تحديًا لا مثيل له للولايات المتحدة.

لا يُعتبر هذا الكتاب مادة دراسية للأحداث القائمة: صدّام، بن لادن، الحادي عشر من أيلول، الشيعة، السُنّة، الأكراد، التركمان، الفلوجة أو النجف؛ بل تتداول محتويات الكتاب قصة التنوّع الإثني في كركوك الغنية بالنفط، وكذلك التيارات السياسية المختلفة التي قادت إلى نهاية النظام الملكي في العراق، والعوامل التي تؤدي إلى حروبٍ ليس لها نهاية للاستحواذ على آبار نفط بابا كركر في كركوك. هي قصة بريطانيا الاستعمارية، الأكراد، التركمان، الأشوريين، اليهود قبل هجرتهم والأرمن بعد الإبادة الجماعية، وكلّ أولئك الذين دعوا كركوك بيتًا لهم، وتعايشوا بسلام مع الآخر على الرغم من الكراهية المتأصّلة في النفوس. إشتركوا جميعًا، بصورةٍ مباشرة أو غير مباشرة، في صراعات مخفيّة للسيطرة على بابا كركر... وكنت شخصيًا شاهدًا على عددٍ من تلك الحروب، أو ضحية لها، في تلك الحقبة من الزمن.

يبحث هذا الكتاب أيضًا في تأثيرات الإنكليز من خلال شركة النفط العراقية (Iraqi Petroleum Company (IPC على تشكيل المجتمع الكركوكي، وفي الوقت نفسه الوعي الاجتماعي والسياسي لشخصيتي بالذات ولا علاقة لها باتجاهات تفكيري بالضرورة. فقد نتجت عن سياساتهم الاستعمارية ودعم المعارضة التي كرهتهم، والعائلة المالكة بالنتيجة، ثم كوّنت القاعدة المستقبلية لتغيير النظام.

ويبحث الكتاب بوضوحٍ وتفصيل في المحاولات السوفياتية للاستحواذ على بابا كركر عن طريق وكلائهم، الشيوعيين، وجهودهم في تجنيد وتعبئة الشباب، وأنا من ضمنهم، لمصلحة مسعاهم. ويذكر الكتاب أيضًا قصّة اعتقالي وسجني وتعذيبي والحكم عليّ بالإعدام، على يد صديق الطفولة الشيوعي عدنان العزّاوي، الذي كان حاول إقناعي بالشيوعية قبل ذلك بسنوات.

إثّر القضاء على العائلة الهاشمية في العراق في ١٩٥٨، والذي أدى إلى السيطرة الشيوعية على البلد، على حياتي الشخصية، فيما ولّد في نفسي، اعتقالي وسجني مع قادة حزب البعث في معسكر الرشيد، شعورًا سلبيًا حيال مستقبل العراق وأثّر على قراري في الرحيل إلى الخارج.



ويتابع الكتاب أيضًا التأثيرات النفسية للهزيمة العراقية في فلسطين في ١٩٤٨ على الفرد العراقي والقوّات المسلّحة، ثم بالتفصيل مراحل تشكيل حركة «الضباط الأحرار» (أصبح مؤسّسوها نزلاء معي في السجن نفسه)، الذين قاموا بعد عقدٍ من الزمن بالانقلاب على الحكم الهاشمي. وقد كنت شاهدًا على الانقلاب من الساعة الأولى.

كما أنني الشاهد الوحيد على محاولة الاغتيال التي قام بها صدّام حسين، بتنظيم من حزب البعث، ضد «زعيم العراق الأوحد» عبد الكريم قاسم.

يشهد الكتاب للحياة اليومية الجميلة التي عشتُها، وأنا في مراحل النمو، بين تركمان كركوك وأكراد قلعة دزه حيث خدمت في الجيش كضابط احتياط. ويروي حكايات ذا بُعدٍ إنساني متعلّقة بالأرمن والأكراد والتركمان والعرب الذين كوّنوا النسيج الديموغرافي في كركوك.

# تمهيد

ليست من المبالغة القول، بعد مرور قرنٍ من الزمان، أنه لا يزال وقع اتفاقية سايكس-بيكو (١٩١٦) ووعد بلفور (٢ تشرين الثاني ١٩١٧) ثم معاهدة سيفر (١٩٢٠) على الشعوب العربية، مماثلًا لوقع أحداث ١١ أيلول، وأحداث لندن، وتفجيرات ١١ آذار، على الولايات المتحدة وإنكلترا وإسبانيا.

فقد دمّرت تلك القرارات الدولية المهمة برجَي الشرق الأوسط التوأمين آنذاك: الوحدة العربية والإسلام. تغيّرت حال المنطقة بعدها، تمامًا كحال أميركا وإنكلترا وإسبانيا، بعد التفجيرات. كان التأثير مدمّرًا إلى درجة أن تأثيراتها السلبية استمرّت إلى قرنٍ تقريبًا. وهي تستمرّ إلى الآن بدفع الأحداث في الشرق الأوسط إلى مستقبلٍ لا يمكن تبيان معالمه.

كان لأحداث الحادي عشر من أيلول من الضخامة ما أحدث تحوّلًا في تفكير صنّاع القرار، كما لدى المواطن العادي على مستوى الأحكام المسبقة السلبية واللاعقلانية. وفي هذا الإطار، تجهد أميركا لإيجاد الأجوبة عن السؤال العام المطروح: «لماذا أميركا، التي كانت محبوبة وموقرة في الماضي، أضحت مكروهة اليوم؟» وللوصول إلى جوابٍ وافٍ عنه، لا بد من العودة إلى الأحداث السياسية في بدايات القرن العشرين.

أثناء الحرب العالمية الأولى، وما أعقبها من معاهدات واتفاقيات، خرّبت القوى الاستعمارية المعادلات الداخلية القائمة في الشرق الأوسط منذ قرون. ولا تزال إلى اليوم قضايا لم تجد حلًا لها: سوريا ولبنان وكردستان بأقسامها الأربعة،

وكذلك تركيا، الكويت، الإسكندرون وشطّ العرب وفلسطين. ومن بين هذه الاتفاقيات كان لاتفاقية سايكس-بيكو، التي لعبت دورًا في رسم الحدود الجغرافية لدول الشرق الأوسط، الدور الأبرز في نشر بذور الخلافات والنزاعات. وقد مهّدت الأرض لتعقيدات إضافية جاءت بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية...

بالأهمية نفسها يأتي وعد بلفور الذي عبّد الطريق لقيام دولة إسرائيل. وكان للترتيبات الجغرافية الجديدة وللفوضى السياسية الناتجة عنها تأثيرٌ سلبي على الناس العاديين والمثقّفين على السواء من العرب (المسيحيين والمسلمين) الذين شعروا أنهم أصبحوا ضحايا القوى العظمى، ومخدوعين من قبل حكّامهم، فأنحوا باللائمة على الأنظمة الفاسدة لقبولها بهذا السرطان (كما يسمّي العرب إسرائيل) في جسد أمتهم.

واعتمادًا على المعطيات كافة، ترسّخ في عقل العرب، من المثقّفين والعسكر، أن علاج هذه «النكبة» هو في استعادة القوّة والتحضير لحرب «إنقاذ فلسطين». وفي غضون أربع سنوات من «النكبة»، سقط الحكم الملكي في مصر (١٩٥٢)، ثم الحكم الملكي في العراق (١٩٥٨) بعد عشر سنوات منها، فتشكّلت الجمهوريتان. أما سوريا، التي كان الحكم فيها جمهوريًا، فشهدت على الأقل ست انقلابات في الأربعينات والخمسينات. إدّعى كلّ نظام جديد الأحقية في الحكم والقدرة على دحر الصهيونية واستعادة الأراضي المقدّسةً. ولد شرق أوسط جديد مع تشوّهات خلقية عظيمة.

وعلى الرغم من هذه «الثورات»، وبالأحرى الانقلابات، التي رفعت من الحس العربي الوطني، فقد اشتد غضب الطبقة المثقّفة وأفراد الشعوب حيال الهياكل السياسية والتراكيب الاجتماعية-الاقتصادية في أحوال بلدانهم. لم تكن هناك ما يدعى بحقوقٍ مدنية على النمط الغربي، ولا حقوق إنسان، في ظل فقدان حرّية الصحافة. فقد أنكر الحكّام الجدد حقوق الشعب حتى تلك المذكورة في الإسلام. رموا اللائمة على الغرب، وخاصة الولايات المتحدة، في القصور الناجم عن الأوضاع الجديدة. كان ولا يزال التفكير السائد في الذهن العربي أن «الغرب هو الذي خلق إسرائيل للسيطرة على الشرق الأوسط، وخاصة العراق مع ثروته النفطية». تضاعف الغضب



وتفاقمت الكراهية تجاه أميركا عندما هزمت القوّات الإسرائيلية الجيوش العربية للمرّة الثالثة في حرب ١٩٦٧.

بإمكاننا القول إن العداء العربي-الإسلامي والكراهية تجاه أميركا ولدا من الاعتقاد الراسخ بأن أميركا منحازة لإسرائيل، وليس بسبب أن أميركا غنية والعرب فقراء، كما حاول البعض إقناعهم. الشعوب العربية مقتنعة أن أميركا لم تكن أبدًا، وليست الآن منصفة. ولأجل الوصول إلى حلول مرضية لهذه المشاكل المعقدة في المنطقة، يجب تغيير الاستراتيجية الأميركية الرئيسية نحو العدالة والإنصاف.

الفصل الأول

# كركوك

يعرف التاريخ كركوك بِاسم «Arapha» (Revue d'Assyrien et d'Archéologie Orient, 1926) وكذلك باسم «Karkha d'beth Silokh». وأطلق الساسانيون على هذه المدينة القديمة اسم «Garmakan».

شهدت أرض كركوك أحداثًا تاريخية مهمة. إستغل نبّوخذ نصّر أسرى اليهود من السبي البابلي من فلسطين فبنى «القلعة» وجسرًا حجريًا يقود إليها؛ وكان الأمر إنجازًا ضخمًا بحق. خاض على أرضها الإسكندر الكبير وكذلك قبائل قرة قوينلو وآق قوينلو الذين جاءوا من سهوب آسيا الوسطى مع السلاجقة وغيرهم، الحروب للسيطرة على طرق التجارة الرئيسية التي تربط بلاد فارس واسطنبول ببغداد.

خاضت الإمبراطوريتان الصفوية والعثمانية سنة ١٧٣٢ معارك شرسة للسيطرة على كركوك؛ وكان النصر لنادر شاه الصفوي. وبعد سنة، وقعت المدينة في قبضة العثمانيين الذين خسروها ثانية عام ١٧٤٣. وبموجب معاهدة السلام سنة ١٧٤٦ سيطر الأتراك ثانية على المدينة. بقيت كركوك تحت السيطرة العثمانية لأقل من ثلاثة قرون، إلى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٨) عندما خسروا الحرب والعراق.

خلال تلك القرون والتي تلتها كانت الفوضى السمة السائدة في الحياة اليومية. وإذا سرح بنا الخيال إلى تلك الأزمنة، بإمكاننا أن نتصوّر معركة تخوضها فرقة من الخيّالة داخل المدينة، تثير الغبار وتحوّل حياة الناس إلى جحيم، وتسطو على القوافل المحمّلة بالبضائع، أو تجمع الضرائب والإتاوات لمرور القوافل بسلام.

إعتبرت مدينة كركوك منطقة خطرة وملاذًا للصوص والقتلة؛ وأيضًا مدينة ذات سحر غامض، إذ في عرفة (لفظ جديد لاسمها القديم)، على بُعد أميال منها، ثمة قطعة أرض، بابا كركر، معروفة بنارها الأزلية، تلك النار التي جعلت منها منطقة مقدّسة من الممكن أن تحدث المعجزات فيها. عند خدش الأرض أحيانًا تخرج النار منها. كانت الناس تحجّ إلى بابا كركر وتضحّي الخرفان لإرضاء الآلهة وتتوسّل إليها وتدعو أن تحقق رغباتها.

معظم الحجّاج كنّ من النساء العاقرات اللواتي يعتقدن أن أرحامهن أصابها السحر. كن يقضين الليل هناك لإخراج الروح الشريرة منهن وفك السحر عن الأرحام. وللتأكّد من نجاح مسعاهن، كانت الواحدة تخدش الأرض، فاذا خرجت النار منها فهذا يعني أن الآلهة رضيت عنها وحققت أمانيها. وفي بعض الأحيان كن يرجعن إلى بيوتهن وهن حوامل أو يحملن بعد الوصول بقليل. أحسن رعاة الأغنام في تلك المنطقة العمل معهن.

بدّدَ الجيل الذي سبقني الأسطورة عندما أوضح الجيولوجيون الجدد أن اللهيب الخارج من الأرض سببه الغازات المنبعثة منها، بينما آبار النفط تقع على بعد أميال من المنطقة. وعلى الرغم من هذه الحقائق، بقيت بابا كركر تلك الأرض الساحرة التي تجلب الناس للاستمتاع بجمالها وخاصة بالتلال الخضراء المحيطة بعرفة. كانت الثريات تشتعل ليلًا ونهارًا بالغاز الطبيعي منيرة سماء كركوك.

قسّم نهر خاصة-صو المدينة إلى قسمين، ربطهما جسر مخالفًا قرونًا من الانقسام بين القلعة القديمة والجزء الأحدث من المدينة. جثمت القلعة على قمة التل بأسوارها التي تعلو خمسين قدمًا، وبنوافذها الصغيرة جدًا مع سلالمها التي تشبه سلّم يعقوب نحو القمة.

الله وحده يعلم كم من الهجمات صدّتها تلك القلعة لحماية ساكنيها من قطّاع الطرق التركمان! كم من الجيوش حاولت تخطي الجسر للسيطرة على طرق التجارة! ففي أيامي كانت القلعة بيتًا للسارقين التائبين والناس العاديين، وفيها جامع النبي



دانيال، ودير كلداني، الحي والمعبد اليهوديان مع سوق القيصر. كان لهذا السوق المسقوف بوابات مقوّسة وممرات ومداخل ودكاكين صمّمت على شاكلة رموز الأبراج الفلكية ومعالم الزمن: سبعة أبواب تمثّل أيام الأسبوع، وإثنا عشر ممرًا أشهر السنة، و٣٦٥ دكانًا أيام السنة. يعتبر هذا التصميم فريدًا من نوعه في العالم! كانت القلعة غنية! ولحرفيي كركوك دكاكينهم فيها، كأنها تغلّف الممرات والأزقة من الداخل.

كان هناك القزانجية، الصفارون، الذين يطرقون على قطع من النحاس ويحوّلونها إلى قدر فتختلط إيقاعات طرقاتهم مع الدخان الأبيض المتراقص بتعرّج إلى الأعلى، حيث يختلف الإيقاع والأصوات ويُصدر فرك الرمل على المعدن أصواتًا محببة، ووش-ووش، ووش-ووش. وبدا القلايجي الواقف على صينية كبيرة موضوعة على الرمل، يلوي حوضه لإزالة الصدأ من الآنية، أشبه بألفيس بريسلي في حفلاته، أو كعقارب ساعة قديمة تدور مرّة إلى اليسار ومرّة إلى اليمين.

على بُعد عددٍ من الدكاكين، كان الحدّادون مشغولين بصنع أسياخ الكباب والخناجر المختلفة التي تهم الرجال. حسب تقاليد تلك البيئة، كان على الشخص أن يضع خنجرًا في حزامه لإظهار رجولته وسطوته وقوّته، والدفاع عن نفسه. إضافة إلى الخنجر، كان شاربا الرجل مؤشّرًا إلى مكانته الاجتماعية. لم يجرؤ المسيحيون واليهود على الاحتفاظ بشاربَين ضخمَين أو حمل خنجر في الحزام لئلا تفسّر الفعلة تحديًا للهيمنة في المنطقة. وبالنسبة إليهم، كان إظهار الخضوع نوعًا من طرق الحفاظ على البقاء، وعلى حدّ تعبير المسنّين: «لا ضرورة لاستثارة الكلب الغاضب أصلًا».

تخْفُت الأصوات في الطرف الآخر من المنحنى وتظهر أنواع من الحرير والدمقس الملوّن ذي الملمس الناعم المستورد من دمشق والصين. كانت هناك أكوامٌ من الأقمشة القطنية المصوّرة والمستوردة من مصر مرتبة فوق بعضها، وقربها رزم من الحرير الأسود لخياطة عباءات النساء بشكل أكوام من الأرض إلى السقف، ودزينة من النساء تساوم «البازركان» على سعرٍ مناسب للشراء. وتدخلن أحيانًا في نقاشٍ حاد مع البائع حول طول مقياس الياردة المستعمل في القياس... والمقياس هنا

هو طول ذراعه. وتهمس الواحدة في أذن الأخرى: «لا تشتري من هذا البائع، لأن ذراعه قصيرة ولا يستخدم الآرشين (مقياس الطول الخشبي)».

يبطئ أحيانًا أحد المارة متظاهرًا بالبحث عن أي شيء، لكنه ينظر بإعجاب نحو عينٍ مكحّلة جميلة كشفت عن نفسها من تحت الحجاب. وقد ترسل المرأة رسالة حقيقية للإغراء، أو قد يساء فهم حركتها، بحركة مقصودة من أصابعها وهي تتحسّس القماش الحريري. وأحيانًا ضحكة خافتة تضيف نغمة جديدة للحب المخفي. وفي هذا السوق ستة دكاكين مختصة ببيع الأزرار والخيوط والإبر والدانتيل والأشرطة والأقمشة اللمّاعة والخرز الملون.

أما في الزقاق الآخر، فكان هناك عالم مصغّر لأنواع التوابل والبهارات والأعشاب المتنوّعة مثل القرفة أو الدارسين، جوز الطيب، القرنفل، الكمّون، الهيل، البابونج، النعناع، والياسمين اليابس، والأوراق التويجية اليابسة للورود، تثير كلّها بهجة حقيقية لحواس الأنسان. إضافة إلى كلّ هذه الأعشاب كانت هناك العشرات من الأعشاب الطبية المثيرة معروضة في أكياس كبيرة وصغيرة توزن بوحدة قياس واحدة وهي «الدرهم» وتباع للمشتري ملفوفة بأوراق بنّية اللون. عشبٌ يفيد المصابين بالبرد وآخرٌ لعلاج العجز الجنسي بصورة مؤكّدة، والآخرُ لعلاج العقم. ويعرض المحل نفسه أنواعًا من العطور والروائح الغريبة المستوردة من الهند ومصر تباع كموادٍ مثيرة للشهوة الجنسية.

قبل محلات العطارين، كانت توجد دكاكين تبيع الصابون المسمّى بصابون حلب الحاوي على نبات المريمية والصلصال النقي أو الكاولين لتنعيم الشعر. وتبيع في الوقت نفسه الحنّاء لصبغ الشعر أو صبغ يديَ ورجليَ العروس في الليلة التي تسبق العرس. ويبيع الدكان أيضًا موادًا مزيلة للشعر، تدعى بالزرنيخ لأن هذه المادة موجودة في تركيبتها، وكان له دور إضافي كسلاح جريمة غير قابل للاكتشاف. وكم من رجل واجه خالقه... مع تحيات زوجته التي كانت تستخدم الزرنيخ لإزالة الشعر.



سيطر اليهود على سوق الذهب والمجوهرات بأكمله. كانوا أهلًا للثقة، يصوغون من الذهب الأساور والخواتم والقلائد وأقراط الأنف والأذن. وفي نهاية السوق-البازار كانت تتواجد محلات بيع الأرز والسمن والمحاصيل والبقول اليابسة والكثير من المتطلّبات الأساسية في البيت.

كنا نذهب إلى القلعة بين الحين والآخر للتسوّق. كان المكان بحدّ ذاته فاتنًا بهندسته المعمارية وآسرًا ببيئته المثيرة؛ حيث يشم الزائر عبق التاريخ والقِدم، ويشعر من جراء غموضه بإحساسٍ غريب. كانت الأزقة ضيقة، والأبواب الخشبية المتهرئة المتناثرة هنا وهناك، بعضها عالٍ وضيّق وأخرى منخفضة العلو وواسعة، تخفي خلفها قصصًا لنساء يعشن في العزل الدائم مع أزواجهن ذوي الشوارب والخناجر. أزقةٌ تعيش في سكونٍ تام لا يقطعه إلّا صوت مفتاح حديدي يحاول فتح باب أو صوت رجل يسوق حماره. وكان يتراءى للمرء أن صدى همسات الحياة قد تجمّدت في الزمن وتنتظر أن تعود إلى الحياة مع هجوم الخيول.

أتذكّر زيارتي لعائلة مسلمة مع أبي في القلعة. كان الحاج حسن، رئيس العائلة، رجلًا غنيًا وصاحب أملاك. في الواقع، كان أبي مستأجرًا لديه. كان العرف السائد يمنع زيارة النساء لأطباء وأطباء الأسنان في عياداتهم، وكان أبي طبيب أسنان يذهب إلى دورهم للعناية بأسنان النساء. على ما أعتقد كان للحاج حسن ثلاث زوجات، إحداهن صغيرة وجميلة جدًا، أو هكذا بدت في عينَيّ مراهق. كان على النساء أن لا يرين وجوههن للغرباء، ولم يكن كلّ طبيب أو طبيب أسنان يملك امتياز النظر إليهن أو ملامستهن، إلّا عندما يكون الزوج واثقًا من حرفيتهم؛ كانت مسألة شرف وتقليد ولها علاقة بالدين. يحرِّم الأسلام أن تكشف المرأة جسمها أو جزءًا منه إلى الغرباء إلّا في حالة الضرورة الطبية. وحتى في هذه الحالة عليها أن تكشف عن أصغر جزء ممكن لغرض الكشف الطبي.

تقول الشائعات إن الحاج حسن كان يرأس عصابة تسطو على القوافل المحمّلة بالبضائع الثمينة والحرير والملح والسكر والقهوة والأموال التي تجتاز منطقته، وفي أحسن الأحوال، يبتزّهم لسلامة العبور. وقد تاب الآن وحجّ إلى مكة ورجع

كشخصٍ محترم له تجارته. وكافأ نفسه على توبته وتزوّج من زوجته الشابة ليبدأ حياة جديدة وشريفة.

أتذكّر الأبواب الضخمة التي تؤدي إلى الباحة الواسعة لهذا المنزل الكبير، حيث كان الرجال يعتنون بخيولهم. تعيد بي الذاكرة تلك الرائحة الحمضية الحادة المنبعثة من الإسطبلات ومنظر السيوف الصدئة المعلّقة على الحائط بجانب حدوة حصان لجلب الحظ الحسن. وأتذكّر أيضًا البئر الكبيرة في مركز الباحة محاطة بعددٍ من الجرادل المصنوعة من إطارات «غوودير» القديمة تستخدم لإرواء الخيول. ولا زال بإمكاني أن أشمّ رائحة الأرز المطبوخ في أواني ضخمة لإطعام الرجال وقت المغيب. أتذكّر اليد الشابة لهذه المرأة تغطيها الحناء ويزينها الذهب، وهي تُري أبي من تحت برقع شبه مكشوف أي سن تؤلمها.

قابلتُ الحاج حسن مرّةً أو إثنتين. كان وجهه ذا نظراتٍ صارمة مخفيًا خلف ذقن أبيض-رمادي اللون وشاربَين عدائيَين. ويلف رجليه بالأقمشة، حتى في الطقس الحار، لتخفيف آلام الروماتيزم التي كان يشكو منها. كانت عمامته الضخمة والمطرّزة بخيوط الذهب تجثم على رأسه كالتاج، للتذكير بالنفوذ الذي يملكه. وعلى الرغم من كلماته الرقيقة التي نطقها بصوت أجش، ومع عيونه الزرقاء الثاقبة، حتى الطفل لن يشعر بالراحة في حضوره. لا، لم يبدو طيبًا! أبي كان يقول إنه طيب. كان يتقاضى إيجارًا معقولًا عن دارنا، ويدفع فواتيره الطبية لأبي بعد انتهاء المعاينة نقدًا.

كانت دار حسن تقع في طرف القلعة، بينما حارة اليهود وكنيسهم في الطرف المقابل. ومهما يكن من أمر، فإن نفوذ الحاج كان يصل إلى ذلك الطرف المقابل وأبعد.

كان المسلمون يقبلون الديانتين التوحيديتَين الأخريَين، ولكن يمارسون التمييز ضد أتباعهما. كان موسى وعيسى، وخاصة مريم العذراء، مقدّسين في الإسلام؛ حسبما موجود في القرآن الكريم. الإيمان بالحبل بلا دنس وبراءة مريم العذراء (كما في سورة مريم في القرآن) متأصّل بعمقٍ في نفوس المسلمين، إذ يَقتل المتطرّفون المُشككين بالأمر في عدد من محافظات العراق وينفَذون من العقوبة. في الوقت نفسه،



بإمكانهم قتل من يناقشهم بأن المسيح هو «ابن الله» وينفَذون أيضًا من العقوبة. يؤمن المسلمون أن الله «لم يلد ولم يولد» (كما جاء في القرآن). مع هذا، فهم يساومون في مسألة القيامة؛ ويقولون في نقاشهم: «إن روح المسيح هي التي بُعثت من الأموات، وليس جسده». ويضيفون: «لهذا السبب نؤمن أنه حي وندعوه بـ(عيسى الحي)». يؤمنون أن المسيح نبي، ولكن لا تعادل مرتبته مرتبة محمد الذي هو «رسول الله»، والذي عرج إلى السماء من القدس على ظهر حصانٍ أبيض.

لم تسنح لي الفرصة أبدًا لكي أزور كنيس اليهود في القلعة ولكنني زرت بيتًا يهوديًا في حيهم للاحتفاء بمناسبة سعيدة. كان لأبي عدد من الأصدقاء اليهود يشتري الذهب منهم لمتطلّبات عمله كطبيب أسنان. كانوا تجّارًا أمناء وأهل ثقة. وعلى سبيل المثال، كانوا يرسلون إلينا، ومن دون أي طلب سابق، كيسًا من الأرز زنة ١٠٠ كيلو، أو صندوقًا من الصابون، أو عدد من غالونات السمن عند توقّعهم صعود الأسعار في الأيام التالية.

تبقى تلك الزيارة واضحة بصورة جلية في ذاكرتي: حملتنا العربة ذات الحصانين وتسلّقت بنا الهضبة التي عليها القلعة إلى أن توقفت نهائيًا بسبب ضيق الأزقة. كان علينا أن نشق طريقنا عبر مياه المجاري والطين المتجمّع والبرك المتكوّنة من رمي مياه الغسيل في الطرقات للوصول إلى هدفنا... بيت كرجي، حيث يعيش مع أخيه عابد وعائلتَيهما. كان البناء صلدًا بُني من الأحجار والجبس وذا أسقف عالية، تحوطه باحة كبيرة وواسعة، كما تراءت لي آنذاك. في وسط الباحة، سقيفة صنعت من أغصان الأشجار المربوطة ببعض بحبالٍ قوّية. أما السقف، فمن أغصان الزيتون، وعلّقت عليها عناقيد العنب والرمان والبرتقال والعرموط للزينة. رشحت أشعة الشمس من خلالها وخلقت نسيجًا متشابكًا من شعاع الضوء والظل على أرضيةٍ من الطين المدمج.

جلسنا تحت هذا التركيب الجميل للسقف نستمتع بما تحويه الصينية المليئة بأنواع العصير المصنوع في البيت والمشروبات المخلوطة بالنعناع والجوز الآتي من هاورامان وفستق الموصل وأنواع التمر والتين والمعجنات. كانت مناسبة التجمّع «جراداغ بايرامي» أو سوكوس، والسماور يقف مزهوًا حاملًا إبريق الشاي.

لم أنتبه إلى الحديث الدائر بين والدي والأخوين، ولكنني أعرف أن كرجي وعابد كانا يتكلّمان مع أبي عن عدم وجود مستقبل لهما في هذا البلد، وعن عيشهما في خوفٍ دائم لتوقّعهما حصول أعمال انتقامية ضد اليهود بسبب الأوضاع في فلسطين. بعد فترة، رحل ابن كرجي إلى فلسطين بطريقة سرّية ليخدم شعبه هناك. وكان الرحيل أمنية كرجي وعابد مع عائلتيهما أيضًا. كلّ هذا كان في السرّ، إذ طلب أبي مني أن أغلق فمي.

إتضح لي الأمر سنة ١٩٤٨. أصبحت إسرائيل دولة وكان العراق يسمح، أو يجبر حسب رأي آخر، اليهود على الهجرة. كان البعض يصدّق نظريات المؤامرة ويعتقد أن الصهاينة رتّبوا عمليات الهجرة الإجبارية لليهود من العراق بوساطة البريطانيين لتعزيز عدد السكان اليهود في إسرائيل، فأضحت هذه العملية من أولويات الحكومة العراقية. غادرت العراق على أثرها طائرات مليئة باليهود. وفي أحد الأيام، باع الأخوان كرجي وعابد دارهما بسعرٍ بخس، وودّعانا، وهاجرا إلى دولة إسرائيل الفتية. كان ذلك اليوم حزينًا على قلوبنا، ولم نرهم بعد ذلك قط.

لم يبقَ في كركوك أي من اليهود، ما عدا أختان، وضعتا دارهما أمانة عند المدعي العام في المدينة، وهو عربي مسلم. أعرف الثلاثة، فقد كانوا من الجيران.

فقدنا جميعنا كرجي وعابد، ولكنني شخصيًا فقدتُ صالحًا، «منقذي» كما كنت أدعوه. وقد هاجر أيضًا. أنقذ صالح حياتي عندما كنت في الرابعة أو الخامسة من عمري: إبتعدت في ذلك اليوم عن بيتنا لأذهب إلى دكان رشيد الذي كان يعرض نماذج لجنود في واجهة دكانه الصغير. عندما وصلت هناك خطفني شخص ووضعني في كيسٍ كبير من الخيش وحملني على ظهره، كأنه حمّال. ومن خلال ثقب في الكيس صرخت أطلب النجدة، فسمعني صالح الذي كان يجلس على حافة الطريق يلمّع الأحذية. وعلى الرغم من كونه يهوديًا، تجرأ أن يهجم على الخاطف المسلم وينقذني، وأخذني إلى البيت حيث كانت العقوبة بانتظاري.



عندما كبرت كان صالح لا يزال في الحي يحمل صندوقه ويقدّم خدماته متنقلًا من محل إلى آخر. كنت أراه في كلّ يوم ونتبادل السلام. أضحى صالح جزءًا من عالمي الخاص. فقدته حين هاجر إلى إسرائيل.

خلا العراق من اليهود ما عدا بضع مئات فضّلوا أن يبقوا في بغداد والبصرة. وبقي كنيسهم في بغداد عاملًا حتى يوم «عاصفة الصحراء.» وحسب علمي، لا يزال مفتوحًا لرواده. وقد شاهدتُ مؤخّرًا فيلمًا وثائقيًا عن الكنيس والجالية اليهودية في بغداد: عددٌ صغير جدًا من اليهود ينشدون أناشيد في مدح صدّام حسين الذي سمح لهم أن يتعبّدوا في الكنيس الوحيد الباقي في العراق. وقبل سنوات، تمّ تهريب مخطوطات عبرية من الكنيس مخبأة في سيارة شحن إلى إسرائيل.

الفصل الثاني

# الأكراد، التركمان، العرب، والآخرون

كانت كركوك، عندما كنت أعيش فيها، مدينة مزدهرة بسكانها البالغ عددهم ربع مليون نسمة، على الرغم من عدم دقة هذا الرقم. كانت غالبية سكانها من التركمان، أو هكذا كانوا يدّعون. وأما الأكراد، الذين كانوا على الأرجح الأغلبية السكانية، فقد عاشوا فيها منذ ألف سنة، وتظاهروا بأنهم من التركمان بسبب قرون من الاحتلال العثماني للمنطقة. وبحسب «موسوعة العلم» (Encyclopedia of Science)، للباحث العثماني الشهير شمس الدين سامي، فإن ثلاثة أرباع سكان كركوك كانوا من الأكراد، والربع المتبقي من التركمان.

يستند الأكراد إلى هذا التفوّق الإثني التاريخي في مطلبهم أن تكون كركوك من ضمن كردستان العراق على الرغم من اعتراض العرب والتركمان. ولذلك تبقى، كما في السابق، أرض النزاعات والصراعات.

والآن، وبعد أن رُسمت خطوط القتال، يتصارع الجميع لتغيير التقسيم الإثني في هذه المدينة لإحكام السيطرة على بابا كركر. في الوقت الذي تؤكد بغداد ما بعد صدّام أن كركوك ليست كردية ولا تركمانية، بل جزء من العراق الواحد، كما كانت منذ تأسيس الدولة على يد الإنكليز.

كان العرب في الأربعينات الأقلية الصغرى في كركوك، حيث بالإمكان تمييز مجموعة كبيرة من العوائل التي تتكلّم اللغة العربية. كان هؤلاء من البيجات (البيكات وهي جمع بيك بمعنى «سيّد» بالتركية/ الخزرية)، وهي قبيلة من مدينة

تكريت، مسقط رأس صدّام حسين، وصلاح الدين الأيوبي الذي حرّر القدس من الصليبيين. تذكر الروايات أن أهل تكريت كانوا مسيحيين ثم اعتنقوا الإسلام. من الممكن أن تكون هذه حقيقة أو خيال، إذ لا يوجد أي أثر لثقافة مسيحية في مجتمعها.

زاملت عددًا من الطلاب التكريتيين أيام الدراسة الثانوية، كانوا جميعًا، ما عدا محمد صابر، عدوانيين ومعادين للغير. من الخطأ تعميم هذه الصفات على المجموع، ولكن النطق بإسم تكريت كان كافيًا بإدخال الرعب إلى النفوس. كانوا يفتعلون العراك لأسبابٍ تافهة، يضربون المعلّم عندما يعطيهم علامات متدنية في الامتحانات. حوّلوا المدينة إلى جحيم: أخذوا الإتاوات واغتصبوا وحطّموا الممتلكات. كان انطباعي أن تصرفات التكريتيين متأصّلة في ثقافتهم العدوانية. وقد تثبّتت من انطباعي هذا بعد أن رأيت تصرفات صدّام وصحبه من التكارتة.

يعتبر التركمان من الأقوام التركية، وقد هاجروا خلال القرون الماضية من سهوب أسيا مع الجنود العثمانيين. وفي القرن الخامس عشر، اندفعوا نحو الجنوب الغربي، فاستقرّوا في كركوك مع عوائلهم. ويبيّن التاريخ وجود موجات عديدة في هجرة الأقوام التركية نحو المنطقة. يقول البعض إن التركمان خليط من المغول وأقوام تركية أسيوية أخرى، بينما يستثني الآخرون المغول من المعادلة. رغم هذا، يؤكّد الواقع أن التركمان يختلفون إثنيًا وحضاريًا وثقافيًا عن الأكراد والعرب، على الرغم من اتّباعهم الاسلام.

عندما كان الدين الجديد ينتشر في بلاد ما بين النهرين في القرن السابع الميلادي، رفض بعض التركمان المسيحيين قبول الإسلام، وعاش في القلعة مع اليهود محافظين على كنائسهم. وألقى المسلمون عليهم تسمية «قلعة كيافوري» أي كفّار القلعة. ولهذا السبب لم تبقَ لهم أي سلطة في كركوك. يقول البعض إنهم من التركمان اليهود... وهذا غير موثّق.

بخلاف التركمان والأكراد، كان اليهود من الشعوب السامية. لست متأكدًا إن كانوا يتكلّمون العبرية في منازلهم، والأرجح أنهم كانوا يفعلون ذلك. أما في الحياة



العامة، فلا يمكن تمييزهم عن التركمان، خاصة في الزي واللغة. ومن عادتهم الابتعاد عن المظاهر الدالة عليهم. كان تعداد اليهود ٧٢٦ شخصًا في نهاية الأربعينات، يعيشون في مجتمعهم المغلق Ghetto ولهم كنيس واحد يتعبّدون فيه. كان معظم الصاغة من اليهود وكذلك تجّار الجملة. لم يوجد في كركوك يهود حرفيون على عكس بغداد والبصرة.

كان هناك الآشوريون (الآثوريون) الذين ينتمون إلى قبائل صغيرة مثل «الجيلو» و «الليفي» ويدّعون أنهم ينحدرون من الآشوريين القدماء أصحاب الإمبراطورية الآشورية في نينوى. كان يُنظر إليهم بإزدراءٍ لأنهم حاربوا بجانب الجيش البريطاني ضد العرب الوطنيين في ثورتهم سنة ١٩٢٠. كانوا من أتباع المذهب الكلداني. وكان هناك أيضًا جالية أرمنية في كركوك تعداد نفوسها ٣٠٠٠ نسمة، ينحدرون من الجيل الذي نجا من الإبادة الجماعية التي نفّذتها تركيا بحق الأرمن في فترة ١٩١٥-١٩٢١. كان لدينا مدرسة وكنيسة ومركز ثقافي.

إكتسبت توجّهاتي الإثنية من هذه المؤسّسات الأرمنية، ومن نقاشات أبي مع كاهن الرعية، وعرّابي. كانوا يسمحون لي جميعًا بأن أجلس معهم أثناء محادثاتهم التي تبدأ عادة بعد الانتهاء من العشاء لاقتناعهم بأن مشاركتي «جيدة لتشكّل شخصية الفرد الأرمني لدي». كانت المحادثات تدور دائمًا حول موضوع الإبادة الجماعية للأرمن من قبل تركيا، وتهجير الأرمن والبشاعات التركية المرتكبة ثم انهيار الدولة الأرمنية. عكَس تكرار هذه القصص بانتظام، مع حكايات الكآبة وقصص القتل وقوافل الموت وأعمال التعذيب، الشعور الجماعي بالشفقة الذاتية والغضب والإحباط والدعوات إلى الانتقام، وبطبيعة الحال الطلب من الله وتجنيده للقيام بها. وقرب الانتهاء من الحديث، كان السباب واللعنات تكال ضد الأتراك. وبعد برهة من الزمن، كانوا يشعرون بأنهم أجهدوا أنفسهم، فيشعرون بالنشوة، بعد فترةٍ من الضعف والانقباض، فينشطون بعد ركود. كانوا يتكلّمون عن البطولات والأعمال الدفاعية للفدائيين الأرمن والأبطال مثل كيفورك جاووش، كيري، درو، سيباسداتسي مراد، آنترانيك وغيرهم. يحكون قصص معارك المقاومة البطولية

في زيتون، ساسون، فان وغيرها فتعطينا جميعًا شعور احترام وثقة بالنفس. وأثناء جلوسي واستماعي لتلك الروايات، كنتُ أشعر دائمًا بأنني الامتداد المباشر لتلك الأعمال البطولية، وضحية ومقاتل في الوقت نفسه.

عندما كانت عمتي فكتوريا تقرأ لي من الأدب الثوري والقومي، كما في رواية «خينتَ-المجنون» لمؤلّفه رافي، لم يكن الله حاضرًا أبدًا. لم تكن مسامحة أبدًا تجاه الله الذي سمح بقتل وتهجير مليون ونصف المليون من الأرمن المحبين لله والخائفين منه. كانت تنهي حديثها بجملة «لا يوجد الله»، فلو كان الله حقيقة موجودًا، لَمَ سمح للترك بارتكاب جريمة إبادة جماعية ضد مسيحيين أبرياء؟ ألم يكن مفروضًا من الله أن يحمي شعبًا صالحًا وفاضلًا؟ لماذا لم يفعل؟ ما هو تبريره في ذلك؟ هل أراد أن يختبر إيماننا وتعلّقنا بالمسيحية؟ ما هو المدى الذي على المؤمن أن يصله؟ الله لا وجود له!»

لإزالة شعور الشفقة على الذاتي والهزيمة في نفسي، كانت عمتي تحكي لي القصص المفرحة عن أعمال المقاومة الباسلة للمقاتلين الشجعان وهم يدافعون عن القرى الأرمنية والنساء والأطفال من هجوم الأتراك. وكيف كانوا يهجمون على قطعات جيش الأتراك المجرمين، ويقتلون أفراده. كانت تقول دائمًا: «على المرء أن يكون شجاعًا ويعمل من أجل أمته». نجحت أن تغرس في نفسي، وأنا في ذلك العمر الغض، الأفكار الثورية الأرمنية من جهة، وازدراء الأتراك من الجهة الثانية.

في بعض الأحيان، كان يشارك عرّابي، إبراهيم كولجي، الثنائي العلماني والمتديّن العشاء وفي الأحاديث الدائرة. لم يكن أرمنيًا. كان كلدانيًا (عِرقٌ قديم ومنقرض تقريبًا) وكانت لغته الأم غير معروفة لدي، غير أن اللغة التي يتواصل بها كانت العربية، إضافة إلى اللغات الأرمنية والتركية والإنكليزية التي أتقنها بصورة سليمة جدًا. من يعش في الشرق الأوسط، يفهم التعقيدات العرقية والدينية واللغوية.

عندما ولدتُ، حفظ إبراهيم كولجي لنفسه، وفق التقاليد المتّبعة، حقه في تسميتي. أما عمي كريكور ذي الرأي المتحرر، الذي لم تكن التقاليد تعني له شيئًا،



إلّا إذا كانت تخص الأرمن، أو تلائم غاياته الشخصية، خسر المعركة أمام عرّابي والكنيسة التي نزلت عند رغبة كولجي وعمّدتني باسمٍ إنكليزي.

غضب عمي على القس وكولجي وخاصة على أبي لتواطئهم في هذه المؤامرة الرهيبة. كان يقول بانفعال: «لقد دُمِّرت الأمة، وارتكب العثمانيون جريمة الإبادة الجماعية ضدنا، ونتعرّض الآن إلى مجزرة بيضاء، مجزرة اظلروح والنفس: لماذا أعطيتموه اسمًا إنكليزيًا؟» والآن، عندما أسمع شكاوى الحاخام عن زواج «الشبان اليهود الطيبين من بنات غير يهوديات،» أتذكر تلك القصة! يظهر أن أي تغيير لم يحصل على الجبهة القومية والعرقية منذ خمسة وسبعين سنة.

كان السبب الجوهري الذي جعل إبراهيم كولجي يختار لي اسمًا إنكليزيًا، حسب وجهة نظره، منطقيًا. فقد بدأت الشركات البريطانية والهولندية والفرنسية عمليات إنتاج النفط في كركوك قبل سنوات قليلة، أي سنة ١٩٢٧. وكان كالوست كولبنكيان، الذي عُرف فيما بعد باسم «السيد خمسة بالمائة»، قد بدأ مفاوضاته مع تركيا للبحث عن النفط في كركوك لحساب الشركات البريطانية والفرنسية. ونجح في تغيير اسم شركة النفط التركية إلى شركة النفط العراقية Iraqi Petroleum Company (IPC)، وأُعطي ٥٪ من أسهم الشركة واكتسب كنيته.

كان عرّابي وكيلًا للشركة في مجال الاستحواذ على الأراضي -منصب مهمّ بالفعل- ويعزو سبب إعطائه اسمًا إنكليزيًا لي لترك انطباع لدى البريطانيين بأننا المسيحيون، بخلاف «المسلمين المتأخرين علميًا»، نشترك معهم في الثقافة الأوروبية المسيحية. لعلها كانت خطة استراتيجية مهمّة آنذاك، عندما كانت بريطانيا تتربّع على قمة قوّتها الاستعمارية، في الوقت الذي كان فيه العراق دولة فتية، حديثة التكوين. كان يقول دائمًا: «المستقبل للبريطانيين، وعلينا الاستفادة من هذا الوضع».

لا أعلم إن كانت خطته الاستراتيجية تلك قد ساعدتني أم لا: لم يقبل الأرمن اسمي الإنكليزي، واعتبره العرب والتركمان والأكراد اسمًا أجنبيًا، وعليه ظلّت

وطنيتي موضع شك. ولهذا التصقت بي مشكلة إثنية، إذ يعتبرونني في أوروبا أميركيًا، وأما هنا في الولايات المتحدة، فأنا أوروبي.

كان كولجي على حق، كان المستقبل للبريطانيين وفي الوقت نفسه للعراق، ولكن بطريقة أخرى. فإضافة إلى الثراء الاقتصادي الذي أصاب أهل كركوك، قذف وجود شركة IPC مدينة كركوك من عصور القرون الوسطى إلى حضن القرن العشرين.

ولإكمال صورة الموزاييك الإثني والديني، من المثير أن أشير إلى ذلك النوع من «المسيحية الأميركية»، كما يسمّيها السكّان المحليون، الذي وجد طريقه إلى كركوك. كان هناك شخصان كبيران في السن يحملان المناشير مع الكتاب المقدّس ويسيران في شارع الأوقاف، ويروّجان لشهود يهوه. كانا يدعوان الناس إلى التوبة والبحث عن طريق الخلاص. لم يعقهما أحد في تلك المدينة ذات الأغلبية الإسلامية. لا أعرف كم من الناس استمعوا إلى دعوتهم، ولكنهما كانا هناك في كلّ يوم في الساعة الحادية عشرة صباحًا. لا بد أنهما كانا الشخصان الوحيدان من شهود يهوه في المدينة.

كان السيد كلاسنر يدرِّس الأطفال المسيحيين من مذاهب مختلفة الدين المسيحي في داره أيام الأحد ويُعتبر وجهًا آخر من المسيحية الأميركية. فقد أسّس Christian Science Reading Room على الشارع الرئيس في المدينة. كان دكانًا صغيرًا تعرض واجهته الزجاجية الكتاب المقدّس وعددًا من الكتب وصورًا مختلفة تمثّل يسوع المسيح والعائلة المقدّسة. كان الداخل بسيطًا في محتوياته، حيث تتوسط الغرفة منضدة مستطيلة محاطة بكراسي مريحة. جلس إيليا بجانب المنضدة، وهو شخص متوسط العمر، قليل الكلام، يلبس النظارات. كانت صناديق الكتب تصطف بجانب الحيطان. لم تكن هناك أي روح مرئية في الغرفة، اللهم تلك غير المرئية، كما أحسستُ، تطوف بسلام وسكون وتبارك المكان. رحّب بي بصوت خافت لا يسمع لئلا يوقظ الشيطان.

رديتُ السلام، وبكلّ احترام جلست قبالته. على الرغم من عدم ارتيابي بصواب القضية التي أراجعه فيها، ولكنني كنت متحفظًا نوعًا ما، وبذلت جهدًا



كبيرًا في تقديم سؤالي إليه واختيار الكلمات المناسبة لئلا تكون مفرداتها غير مؤدّبة أو بذيئة. كنتُ أراجعه في صدد مشكلة مهمة تواجه المراهقين، آملًا الحصول على التوجيهات اللازمة: لم تكن هناك تربية جنسية في مناهج التعليم.

إستمع الي بانتباه إلى أن أنهيت كلامي ونقل إلي حكمه وقراره بموجب شرع الله وبالصوت الخافت نفسه ولكن بسلطة عظيمة. قال: «يا ابني، هذا مخالف لرغبة الله؛ لعله يعطيك اللذة لمدة قصيرة، ولكنه على المدى البعيد يفسخ العمود الفقري ويذيب الدماغ. إنه خطيئة، صلّي لعلك تخرج من هذه المحنة، ويحل السلام في داخلك». لم أكن أعرف المصطلح آنذاك، ولكن ما طلبه باسم الله لم يكن إلا الإخصاء، ولو برفق.

الفصل الثالث

# من الهدوء إلى النزاع

لم يفرض هذا الموزاييك الإثني على كركوك أي تأثير سياسي عندما كانت بغداد عثمانية. ولكن، بعد إنشاء العراق المعاصر سنة ١٩٢١، وجدت الحكومة العراقية الحديثة التكوين أن التنوع الإثني في هذه المدينة الاستراتيجية غير مقبول أبدًا؛ فالنسبة المئوية الضئيلة للعرب، كانت تجعل من الصعب اعتبار كركوك جزءًا من العراق العربي. علاوة على ذلك، كانت الحكومة تخشى أن يأتي يوم يطالب بها الأكراد، في ظل وجود أغلبية غير عربية في المدينة. كانوا على حق! بعد ثلاثة أرباع القرن تحوّلت المخاوف إلى حقيقة؛ فالأكراد اليوم يطالبون بكركوك لتكون جزءًا من كردستان الفيدرالية، والصراع من أجل بابا كركر قد بدأ.

إستدعت حقائق الواقع الإثني في كركوك علاجًا طويل الأمد؛ إجراء تغيير في الخليط الإثني للمدينة. إستخدمت الحكومات العراقية المتعاقبة أساليب مختلفة لتحقيق هذا الهدف المقلق لراحتها؛ أساليب تراوحت بين الرفق والقسوة. كان أسلوب النظام الملكي أكثرها رفقًا وإنسانية: فقد أطلقت الحكومة «مشروع الحويجة» لريّ الأراضي وتطويرها في كركوك بحيث خدم ثلاث غايات:

١. تحويل الأراضي المتروكة إلى أراضي مروية وخصبة.
٢. نقل العشائر العربية، مثل عبيد وجبور، من البداوة إلى التحضّر.
٣. تعديل الميزان الإثني في كركوك لمصلحة العرب.

لم تنجح خطة الحكومة بصورة كاملة، فقد نجحت في توطين العشائر وفشلت في إلغاء الانقسامات الإثنية، إذ استمر الأكراد والتركمان في جهودهم الخفية للسيطرة على المنطقة والتحكّم بكركوك. في أيّة حال، كانت الحياة اليومية في الظاهر مختلفة جدًا بسبب التأثير الاجتماعي والاقتصادي الإيجابي الذي فرضته شركة النفط العراقية– IPC على واقع حياة المجتمع، فبقيت الاحتقانات مخفية: كانت المدينة مزدهرة وهادئة بصورة ملحوظة.

جاء انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨ وغيّر كلّ هذا. تجمّع الأكراد والشيوعيون إلى جانب «الزعيم الأوحد»، عبد الكريم قاسم. خلقت الأجواء السياسية الجديدة الفرصة المناسبة للأكراد لإحكام سيطرتهم على كركوك. فرجعوا إلى كركوك بالآلاف وغيّروا التوازن الإثني لمصلحتهم، وأعلنوا أنها جزء من كردستان. وأعطتهم التظاهرات اليومية، الداعمة ظاهريًا «الزعيم الأوحد»، صورة القاهر والفاتح، القوي والمعصوم والمسيّطر الوحيد على الأوضاع. كانت شعاراتهم موجّهة ضد الوطنيين والقوميين، وضد عبد ناصر، وعارف، ومؤيّدة لليساريين والشيوعيين.

بعد سنةٍ من الانقلاب، وفي أعقاب الانتفاضة ضد حكم قاسم في الموصل، زاد التوتر في كركوك إلى أن بلغت حدّ قيام الأكراد بمذابح أودت بحياة حوالي الخمسين من وجهاء التركمان. لقد دُفنوا أحياء. ثلاثة منهم كانوا من أعز أصدقائي.

تفاقمت العداوة بين الطرفين وحرثت الأرض لنزاعات مستقبلية مستمرّة إلى الآن.

بقيت كركوك غير عربية إلى أن جاء صدّام إلى السلطة في نهاية الستينات. كانت سياسة التعريب التي اتّبعها في المدينة من أكثر السياسات قسوة. قام أولًا بتغيير حدودها لإدخال العشائر العربية ضمن نطاقها، ثم غيّر اسمها إلى «التأميم»، وصعّد من عملية التطهير العرقي بإبعاد الأكراد والتركمان من المدينة وإعادة توطينهم في الجنوب وترحيل عرب الجنوب إلى كركوك. كافأ القادمين الجدد من العرب بمنازل مدعومة من الدولة مع مساعدات نقدية.



بعد سقوط صدّام سنة ٢٠٠٣، عاد الأكراد المبعدون إلى كركوك بهجرة معاكسة ضخمة مطالبين بمنازلهم وممتلكاتهم وإعادة الهوية الكردية إليها في الوقت نفسه.

كانت المشاكل التي عانت منها الدولة عند التأسيس كثيرة، أولها، التنوع الديمغرافي، الولاءات الإثنية، اختلاف المصالح وتنوّعها من فئة إلى أخرى، والانقسامات، وكانت كلّها جزءًا من المشاكل الداخلية للعراق الفتي. كانت هناك مشاكل في بنية الدولة التي لم تتمكن من تخليص نفسها من النظام العشائري لتأسيس مجتمع مديني وحضري يحكمه القانون، وليس الأفراد. ولو تمعّنا في الأمر لوجدنا أنه حتى النظام العلماني البعثي تحوّل إلى نظام سلالة حاكمة تخص صدّام حسين.

بغداد بحدّ ذاتها لم تكن عشائرية! كانت الطبقة الحاكمة التي تملك زمام الأمور تتكوّن تقريبًا من ٥٠٠ عائلة ثرية من ضمنها عائلات شيعية، وقد ورث هؤلاء الغنى والنفوذ من أيام الدولة العثمانية. سيطروا على جميع مقدرات الحياة البشرية من الاستيراد والتصدير والأمور المالية والقروض الشخصية إلى ملكية البنايات والعقارات والإيجار والأدوية المستورَدة وتجارة السيارات والأثاث وغيرها.

كان انتخاب الوزراء والبرلمان أشبه «بعملية تدوير» للقائمة القديمة، ويجري تجميعها من قبل العائلة المالكة والسفارة البريطانية.

وعلى الرغم من أن الأغلبية شيعية، كان حكّام البلد بحكم الأمر الواقع من الطبقة المثقفة والعلمانية العربية السنّية. ولم يؤدِ ذلك إلى أي نزاع ديني–طائفي بينهما. فالطرفان مسلمان، ولم يكن هناك فرق بينهما. لم يكن شعور الانتماء إلى الطائفة يوازي هاجس الانتماء القومي. وبحسب المنظور العربي، كان الكردي كرديًا أولًا، وقوميته مختلفة عن قومية العربي. لم يكن يهمّه إن كان سُنّيًا أم شيعيًا، أو حتى مسيحيًا. فهو كردي بالدرجة الأولى ومسلم بالدرجة الثانية. هناك مثل دارج من أيام العثمانيين الأتراك: Giavoura baqaraq Kurd Musoulman بمعنى «الأكراد مسلمون مقارنةً بالكفّار».

إستهان السُنّة بالشيعة لأن مجتمعهم كان متخلّفًا من الناحية الاجتماعية والاقتصادية، وأقل علمانية وتنتشر فيه الأمية والفقر والأمراض، وطريقة عيشهم بدائية ومتعلّقون بشكلٍ غير تقليدي بالشعائر الدينية. هذه الأمور جعلتهم مثارًا للسخرية، وبخاصة في شهر محرّم حين يقيمون شعائر «عاشوراء» ويندبون وينتحبون ويضربون أنفسهم بالسلاسل والسيوف أسفًا على مقتل الحسين، حفيد النبي محمد قبل ثلاثة عشر قرنًا.

على وجه العموم، تتحمّل النخبة السنّية الحاكمة مسؤولية احتفاظ الشيعة بأفكار مجتمع القرن السابع، وعدم تطورهم، نتيجة إهمال واقعهم. فبعد أن فرض العثمانيون سيطرتهم على بلاد ما بين النهرين إثر هزيمة الدولة الفارسية الشيعية، مدّوا ظلمهم على شيعة العراق بتهمة التعاون مع الصفويين. وتجدّدت اليوم العلاقة الإيرانية-العربية الشيعية التي ترجع إلى قرون مضت، وأضحت تثير الكثير من المتاعب للعراق ولقوّات التحالف الأميركي. كان صدّام واعيًا لهذه الحقيقة، ومدركًا لها، ولهذا انتقم من المجتمع الشيعي في النجف وكربلاء. ليست مستغربة في الواقع تلك الرغبة الصلبة لدى الشيعة في التسيّد على بلد يشكّلون ٦٠ بالمائة، أو حتى أكثر، من السكان.

لم يكن الشيعة العرب المهمشين الوحيدين في بلاد ما بين النهرين؛ فقد شاركهم قدرَهم الأكرادُ في الشمال الذين كانوا مواطنين من الدرجة الثانية أيضًا، أهملتهم الدولة، وفي بعض الحالات اضطهدتهم. ورغم ذلك، كانت نوعية حياتهم أفضل من الشيعة. عاشوا في مجتمع إقطاعي أيضًا، ولكن أرضهم كانت خصبة أكثر، بساتينهم مليئة بأشجار الفواكه المثمرة، يتنشّقون الهواء النقي من الجبال، ويتمتّعون بمياهٍ عذبة من الشلالات والسواقي. ومن الإنصاف القول إن الفرد الكردي في الإجمال كان أصح بدنيًا من العربي في الجنوب.

من المعروف أن المناطق الوسطى والجنوبية من نهرَي دجلة والفرات وحتى منطقة الأهوار، المصابة بمرض الملاريا والتي يسكنها الشيعة، لا تنتج شيئًا ما عدا أرز الشنافية وتمر النخيل. لم تكن هناك رعاية صحّية مناسبة، ونسبة وفيات الأطفال مرتفعة مع



انتشار مرض السل وأمراض طفيلية أخرى، أكثر من أي منطقة في العراق. كان الوضع الاقتصادي صعبًا جدًا. بصريح العبارة كان الفقر المدقع سيّد الموقف.

إنتبه حزب توده الإيراني، وكان أكثر الأحزاب الشيوعية خبثًا في الشرق الأوسط، لهذه الحقيقة، فاستغلّ تشيّع سكان الجنوب، وعمل بكلّ قواه لإنتاج جيلٍ بعد آخر من الشيوعيين في العراق. كانت المدينتان المقدّستان، قم الإيرانية والنجف العراقية، بمثابة طرفَي أنبوب سياسي يستخدم لتقويض الكيان العراقي تحت السيطرة البريطانية. فقد استفادت الحكومات الإيرانية المتعاقبة، على غرار الشيوعيين، من هذا الأنبوب لتفعيل نفوذهم على البلد الآخر. لا يمكن اعتبار الوضع الحالي في العراق استثناءً.

أثناء العهد العثماني، عاش العراق تحت نظام حكم فاسد متّسم بالحماقة، كحال الولايات العثمانية الأخرى في الدولة. وبعد سقوطه وتأسيس النظام الملكي الهاشمي، كانت الحكومة «المستقلّة» اليافعة تكافح من أجل تثبيت نفسها، في الوقت الذي كانت المعارضة ضد الانتداب البريطاني تنمو مع الزمن. وبعد الحرب العالمية الثانية، كانت الدولة في حال اضطرابٍ شديد ليس لأن إسرائيل أعلنت دولتها، ولكن لوجود تطورات دولية وإقليمية أخرى أثّرت على العراق بصورة مباشرة.

ففي عام ١٩٤٨، وبعد أن فقدت درّة تاجها، الهند، رمت بريطانيا في الميدان السياسي الأنغلو-عراقي معاهدة بورتسموث، لاستبدال الاتفاقية الاستعمارية السارية منذ بدء الانتداب الإنكليزي على العراق مثيرة بذلك إعصارًا سياسيًا قويًا في البلد. وصيغَت لتحقّق أربعة أهداف رئيسية:

أ- الاستمرار في استخدام القاعدتَين الجويتين في الحبانية والشعيبة.

ب- تحديد عائدات العراق من نفطه بثلاثة بالمائة.

ج- في حال الحرب، وضع السكك الحديدية والطرق وسبل المواصلات كافة تحت السيطرة البريطانية.

د- في حال الحرب، وضع منتوجات الثروة الحيوانية والزراعية تحت السيطرة البريطانية.

كان مطلوبًا من رئيس الوزراء صالح جبر (شيعي) أن يوقّع عليها، وسط غضب الأحزاب السياسية وعموم الشعب على هذه الخيانة العظمى وتصميم عام على إفشال المصادقة عليها.

في تلك السنة بالذات، احتفل الشيوعيون العراقيون بانتصارات ماو تسي في الصين على الرغم من انتمائهم إلى المعسكر الشيوعي السوفياتي وليس الصيني. وشعر الشيوعيون بأن الانتصار الصيني أعطاهم حافزًا للعمل وسمعة في المنطقة، فعملوا بهمّة أكبر بالتعاون مع مجموعات المعارضة الأخرى (العرب القوميين، الأكراد، والمستقلّين). في الوقت نفسه، وجّهوا نداءاتهم للقيام بتظاهرات منظّمة ضخمة وإضرابات في بغداد ومدن أخرى في الجنوب، ناهيك عن كركوك الآمنة.

وفي محاولةٍ من الشرطة في بغداد لتفريق المتظاهرين، أطلقت النار وقتلت عددًا منهم، من ضمنهم جعفر، شقيق شاعر العراق الكبير محمد مهدي الجواهري، وهو من الشيعة. فاستفادت المعارضة من سقوط شهداء لتزخيم التظاهرات، وكسبت دعمًا إضافيًا للعمل على رفض المعاهدة، استثمرته في المطالبة بإستقالة رئيس الوزراء صالح جبر الذي كان قد خلف نوري باشا السعيد، مهندس المعاهدة من خلف الكواليس. في النهاية، حقّقت المعارضة هدفَها: سقطت حكومة صالح جبر وسقطت المعاهدة.

ألّف السيد محمد الصدر (جدّ رجل الدين الشاب مقتدى الصدر) الوزارة الجديدة، وكان رجل دين شيعيًا محترمًا ذا لحية طويلة، ولكن وزارته لم تبقَ طويلًا، لاعتبار الشعب أنها موالية للإنكليز. وخاب ظن الناس به أيضًا، وصاروا ينادون في الشوارع: «ردناك عون، طلعت فرعون، يا بو لحية نايلون»، في إشارة إلى ميله الغربي.



## الفصل الرابع

# الهجوم الشيوعي

يُعتبر قادة الحزب الشيوعي في العراق أساتذة في الخداع والدعاية، وادّعوا إسقاط معاهدة بورتسموث وسجّلوه انتصارًا في خانتهم، كأنما لم تكن هناك قوى سياسية أخرى في البلد ساهمت في إفشالها. وروّجوا انهم أطاحوا المعاهدة بإسم «الطبقة العاملة الكادحة التي تناضل ضد الإمبريالية.»

كان لهذا العمل نتائج جيو–سياسية مهمّة، فقد أسهم في إبعاد خطر محتمل يطال أسيادهم، الاتحاد السوفياتي. وكان هذا بحدّ ذاته إنجازًا مهمًّا. تضخّمت سمعة الحزب في الأوساط الشعبية ونال رأسمالًا سياسيًا ساعده في صرفه بعد عقد من الزمن في انقلاب ١٩٥٨. رفع ادّعاء الشيوعيين أبوة إسقاط المعاهدة معنوياتهم المنهارة، بعد شنق مؤسّسهم يوسف سلمان يوسف المعروف بفهد، قبل بضعة أشهر.

دقّت أجراس الإنذار في السفارة البريطانية ودوائر شركة النفط العراقية IPC. كان السوفيات يستخدمون أتباعهم لخلخلة الاستقرار في المنطقة، ونجحوا في مسعاهم! فيما الإنكليز يتواصلون مع الأكراد والأشوريين وبعض الأرمن والمعارضة العربية، مستغلّين طموحاتهم السياسية والوطنية. عادت بابا كركر مجدّدًا إلى دائرة الخطر، ومن واجب الإنكليز الدفاع عنها.

في الواقع، أخذت معركة بابا كركر شكلًا آخر، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. نظّم الشيوعيون سنة ١٩٤٦ تحت قيادة فهد نقابات واتّحادات عُمّالية ومهنية أخرى كواجهة مخادعة لأعمالهم التي لا تمت بصلة إلى العمل النقابي. نظّموا العمّال

والطلّاب والمعلّمين والناس العاديين بحجة المطالبة بحقوقهم النقابية والسياسية. وعلى الرغم من قمع الحكومة، نجحوا في زرع الفوضى في البلد، وخاصة في كركوك، حيث شكّلوا نقابات لاستقطاب عمّال صناعة النفط. وكادوا يفرضون سيطرتهم على آبار نفط بابا كركر، أي توجيه ضربة تحت الحزام لبريطانيا في العراق.

في ٣ تموز ١٩٤٦، بدأ عمّال شركة النفط العراقية IPC في كركوك بالتجمّع في بستان زيتون خارج المدينة يسمّى كياوور باغجي (بستان الكفّار-المسيحيين). كان أهالي كركوك يقضون نزهاتهم في ذلك البستان الهادئ وينصبون المناقل لشوي الكباب والتمتّع بأكل الرقي الكركوكي العملاق. ولكن يومذاك تجمّع عمّال النفط للاستماع إلى خطابات قادتهم وهم يطالبون بتحسين شروط العمل، وزيادة الرواتب. وبعد زيارة إلى دار المتصرف، لم يحصلوا فيها على جواب شافٍ منه حيال مطالبهم، أعلنوا إضرابهم عن العمل الذي كان الأول من نوعه في تاريخ العراق، وتمكّنوا من تعطيل عمليات إنتاج النفط وتصفيته. لا أعرف شخصيًا مدى تأثير وقف تدفّق النفط على السوق العالمي، ولكنني أفترض أن سوق روتردام لم يكن سعيدًا من انخفاض الصادرات النفطية بمقدار مليونَي برميل في اليوم.

نجح الاستراتيجيون الشيوعيون في السيطرة على منبر الخطابة، وتحويله وإعطائه صبغة حزبية خاصة. لم تتقبّل السلطات الحاكمة الواقع الجديد. عملت على تفريق التجمّع الذي تطوّر إلى تظاهرات سياسية معادية للحكومة. عادت التجمّعات في اليوم التالي بقوّة وعزم أكبر. واتّخذت في اليوم الثالث شكلًا سياسيًا واضحًا بإدانة الحكومة و»بريطانيا الإمبريالية، الاستعمارية.» هزّت هذه الحادثة، الأولى من نوعها في تاريخ صناعة النفط العراقي، بغداد ولندن. استيقظت شركة النفط العراقية IPC على حقيقة أن مستقبلها مرهون بنسبة كبيرة لعمّالها.

حاولت قوّة الشرطة تفريق الجموع والسيطرة على الوضع بطريقة سلمية، ففشلت وفتحت النار على المجتمعين. وأعطى الرتباء الأوامر إلى أفراد الشرطة لفتح النار على الذين «يرتدون القمصان البيض ذات الأكمام القصيرة،» التي كانت العلامة المميزة للقادة المسيحيين ومنظّمي الإضراب.»



أسفر إطلاق النار عن ستة قتلى وأربعة عشر جريحًا من ضمنهم أرمني يدعى أوهانيس العربي أخو مكرديج. وأصيب أرمني آخر في ذراعه.

أصبحت كركوك تشبه ساحة معركة. كان أزيز الرصاص المنطلق من عدة بنادق في وقتٍ واحد أشبه بصوت مدفع رشاش. وبعد وقت قصير، مرّت سيارات الإسعاف والعربات التي تجرّها الخيول من أمام دارنا وهي تحمل الجرحى والقتلى إلى مستشفى المجيدية. كنت خائفًا مما أرى، وفي الوقت نفسه، ينتابني الفضول لأفهم ما يحصل في المدينة. رأيت معظم الإصابات من شرفة دارنا المواجهة لشارع الأوقاف، الشارع الرئيسي في كركوك. حدث ذلك في ١٢ تموز ١٩٤٦.

بوشرت عمليات الملاحقة والقمع ضد العناصر الهدّامة والمخرّبة والمنشقين والشيوعيين والمتعاطفين معهم وأولئك المشكوك فيهم. وفي اليوم التالي طردت شركة IPC جميع «المشاغبين»، سواء أكانوا شيوعيين أم غير شيوعيين. خالفت الشركة الوعد الذي قطعته للعمّال قبل يوم من الحادثة. وقبضت السلطات على العديد منهم ونفتهم إلى نقرة السلمان، ذلك السجن المنسي، حتى من الله، في منطقة معزولة من صحراء العراق الجنوبية.

الفصل الخامس

# مستر تشابمان، أي. جي. بي. تشابمان

كان السيد A. J. B. Chapman الضابط السياسي البريطاني المقيم في كركوك، ومهمّته الرئيسة السيطرة على المنطقة واقتلاع كلّ تهديد لبابا كركر من الجذور. من موقعه في الخنادق الأمامية، شنّ المعارك من أجل ملكه وبلده، مستندًا إلى شبكة من العملاء ممّن يتمتعون بجهوزية عالية ويجمعون المعلومات عن العناصر غير المرغوب فيها. تشكَّلَ فريق عمله المباشر من طبّاخه الأرمني وعدد من الأرمن والأكراد الذين تولّوا إدارة أعمال مكتبه، بعضهم في جمع المعلومات عن طريق شبكة العملاء، وبعض في ترويج الأخبار المضلِّلة وتطبيق أساليب أخرى من الحرب النفسية. كان هدفهم الأول إحكام السيطرة على بابا كركر وضمان سلامة مصفاة النفط التي كانت تبعد بضعة أميال.

كان الجهد الرئيسي يقع على عاتق السيد تشابمان، الاستعماري بالمعنى التقليدي للكلمة. وبصفته الضابط السياسي لبريطانيا العظمى، انصبّت مهمّته بالدرجة الأولى على ضبط العشائر الكردية على جانبَي الحدود العراقية-الإيرانية، وتجنّب الأحداث التي قد تعرِّض المصالح البريطانية للخطر.

أتقن اللغة الكردية ولغات محلية أخرى، وعلى معرفة تامة بجبال منطقة كردستان والأودية والقرى المتاخمة للحدود العراقية-التركية-الإيرانية، ومارس السيطرة الكاملة عليها. كان قد وقع في حب كردستان، إذ أوصى فريق عمله بحرق جثته بعد موته ونثر رمادها فوق جبالها. وقد حقق هؤلاء وصيته!

كان آلان تشابهان يعرف جميع آغاوات الأكراد شخصيًا، وأسّس علاقات وطيدة مع كلّ منهم، وحاز على ثقتهم. طبّق عليهم سياسة فرّق تسد وأساليب التخويف والرشوة والابتزاز باستخدام المعلومات التي يحصل عليها، مهدّدًا بعضهم بنشر الشائعات عن عاداته الجنسية الشاذة والتقرّب من الغلمان أو القيام بتصرفات مشينة. كان يحب أن يفشي أسرار أحد الآغاوات إلى منافسه ليحصل على تنازلات معينة. وحسب الشائعات المنتشرة عنه، كان تشابهان نفسه شاذًا جنسيًا.

وهكذا، بتحكّمه بالآغاوات، سيطر على العشائر، ومن خلالها على جانبَي الحدود العراقية-الإيرانية، وقد وفّر له ذلك قدرة تتبّع مجريات الأحداث في إيران.

في المناطق الشمالية والشمالية الشرقية من العراق، كما في مناطق أخرى في العالم، كانت الحدود الدولية مجرد خطوط مرسومة على الخرائط، فيما الوقائع الميدانية مختلفة كثيرًا عنها. كانت العشيرة تعيش على جانبَي حدود غير مرئية، وتعتبر الخطوط الفاصلة وهمية، وتتجاهلها.

إستخدم تشابهان على أحسن وجه كلّ الأوراق التي بحوزته مع الأكراد ليحافظ على الحكومة العراقية. كان بإمكانه قلب الطاولة على بغداد، إذا أراد ذلك، بتحريض العشائر الكردية على افتعال المشاكل في أي مكان من الأراضي الكردية، مثل منطقة قلعة دزه. وعلى سبيل المثال، قتل شرطي هنا أو جندي هناك أو حرق مخفر حكومي في أي مكان آخر، فيجبر الفرقة الثانية على الدخول في معارك جانبية مع الأكراد. هدف بتحريضه إلى غرضين يفيدان بريطانيا: إشغال الجيش بحرب جانبية لئلا يقوم قادته بمؤامرة ضد الحكومة العراقية المدعومة منها، أو إجبار بغداد على تعديل موقف لا يصب في خانة السياسة البريطانية.

كان السيّد تشابهان يعيش قريبًا من مقرّ قيادة الفرقة الثانية في كركوك، فيراقب عن كثب جميع تحرّكات الضباط الكبار. على سبيل المثال، ساعد على تنظيف القوّات المسلّحة في كركوك والموصل من عتاة الوطنيين واليساريين الذين لو جاءتهم الفرصة لقلبوا نظام حكم العائلة المالكة، وأدخلوا العراق في موقف



معادٍ لبريطانيا وعملوا على تحقيق حلم العرب بدولة الوحدة. ولو تحقق هذا الحلم، لأصبح كابوسًا للغرب وإسرائيل.

لو تحققت الدولة العربية الموحّدة «من المحيط إلى الخليج» لشكّلت مشكلة كبيرة للغرب، خصوصًا لجهة سيطرة هذه الدولة على احتياطيات نفط ضخمة مع أراضٍ شاسعة ومجاري مياه حيوية وهدّدت استمرار حيوية الغرب، وأمنه، وسلامته. وما كان الغرب يخشاه أيضًا، تحالف هكذا دولة مع الاتّحاد السوفياتي، وبالتالي، وفق معطيات الحرب الباردة، تشكيل تهديد جدّي لحلف شمال الأطلسي وأصدقائه في الشرق الأوسط، مثل تركيا وإيران وإسرائيل.

في ظل الظروف الدولية في الخمسينات، وبغية الحفاظ على مصالحها، لم يكن لبريطانيا سوى خيار حماية النظام الملكي الهاشمي في العراق إلى أبعد مدة زمنية ممكنة، لأنه كان أثمن ما تملكه في المنطقة!

أما بالنسبة إلى الوطنيين العراقيين، فكان قلقهم كبيرًا على غياب السيادة الحقيقية، ويتقدّم القضايا العربية آنذاك مثل قضية فلسطين، في ظلّ المعاهدة العراقية-البريطانية الموقّعة سنة ١٩٣٠ المنحازة إلى بريطانيا، و«نظام المستشارين» في الإدارة الحكومية الذي يخوّل بريطانيا تعيين مستشار في كلّ وزارة لمراقبة القرارات التي يتّخذها الوزير ورفض ما لا ينسجم منها مع السياسة البريطانية.

في محاولةٍ منها لمهادنة الوطنيين، عدّلت بريطانيا النظام، فألغت مكاتب المستشارين في الوزارات، مقابل فرض الاستحصال على موافقة السفارة البريطانية على القرارات السياسية الكبرى. لم يرضِ هذا الحل الوطنيين العراقيين، واعترضت عليه، في نهاية الأربعينات، الأحزابُ السياسية الوطنية مع الضباط الوطنيين في الجيش، لأن النظام الجديد الذي حلّ محل المستشارين كان معناه خلق حكومة ثانية تُدار من قبل المستعمرين، ينكرون على العراقيين حقهم في اتّخاذ سياسات مهمة تخصّ مستقبلهم. أثبتت هذه الأفعال مرّة أخرى أن البريطانيين لا ينوون أن يدعوا العراق يتخذ خياراته بنفسه.

آمن العراقيون أن بريطانيا سيّدة المكر والخداع. «إذا تخاصمت سمكتان في النهر، فتأكّدْ أن المحرّض إنكليزي»، على حد المثل الشائع في العراق آنذاك.

على الرغم من كلّ المعارضة السياسية والضوضاء، استمرّت بريطانيا بنجاح في مسعاها الرامي إلى ديمومة السيطرة على بابا كركر والدفاع عنها ضد الأعداء، مثل الاتّحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية.



## الفصل السادس

# المخطط السوفياتي لبابا كركر

مع خطاب «الستارة الحديدية» لتشرتشل الذي أعلن بدء الحرب الباردة، صعّد السوفيات من حملاتهم الدعائية في العالم وفي الشرق الأوسط: عرضوا النظام الماركسي-اللينيني بدلًا من النظام الرأسمالي الذي نخره الفساد، فاستغلّ الجموع من أجل مصلحة قلّة. قدّموا أنفسهم كمدافعين عن العدالة، همّهم الوحيد مساعدة الشعوب المقهورة على إجراء تغييرات جذرية في حياتهم. وببساطة، كان هذا يعني إسقاط أنظمة الحكم وتخليص المنطقة من التحكّم الاستعماري الرأسمالي.

كانت واقعة انتصار السوفيات في معركة ستالينغراد ودفعهم القوّات الألمانية الغازية نحو برلين، مقنعة ومؤثّرة في الدعاية السوفياتية، إضافة إلى اجتياحهم برلين! وقد ركّزوا على هذه النقطة مرّات عديدة في إعلامهم لتمجيد بطولة الجندي السوفياتي، وحكمة القيادة العسكرية السوفياتية. ونسبوا هذه كلّها إلى تفوّق النظام الشيوعي وقوّة تحمّل الشعب السوفياتي.

نادت أبواق الدعاية بفخر: «لولا وجود الجيش السوفياتي لم يكن بإمكان القوّات الأميركية دخول برلين». ناقشتُ هذه النقطة مع الذين كانوا يمثّلون أبواق الدعاية الشيوعية في حيّنا. ما كان يهمّني أن القوّات الغربية لم تكن الأولى التي دخلت برلين. ففي ذلك الوقت، لم نكن نعرف أن آيك (الجنرال دوايت آيزنهاور، قائد قوّات الحلفاء في أوروبا) قرر التضحية بالجندي السوفياتي لاجتياح برلين، بدلًا من زجّ جنوده في هذه المعركة.

كان الأكراد، المتعاطفون مع الاتّحاد السوفياتي، فرحين وفخورين بهذا النصر، أما تركمان كركوك، فقد شعروا بالأسف لهزيمة دول المحور، لأن معظمهم كانوا موالين للنازية، حتى بعدما انحازت تركيا إلى الحلفاء. ولاقت الدعاية السوفياتية قبولًا حسنًا لدى العرب، لأنها نطقت بالحقائق التي كانوا يعيشونها في حياتهم اليومية، فلجأ الشيوعيون إلى التضخيم والمبالغة باتّهام البريطانيين بتقويض مجتمعهم لنهب خيرات بابا كركر.

في الوقت الذي كانت الدعاية السوفياتية تبذل جهدها لإيصال رسائلها إلى عموم الشعب العراقي، لم تحتج إلى جهد كبير للاستحواذ على قلوب وعقول بعض الأرمن الذين كانوا على معرفة بالثقافة الروسية، قبل المرحلة السوفياتية. فـ«الصداقة» الأرمنية-الروسية متجذّرة في التاريخ، وأرمينيا معتبرة إحدى الخانات الروسية في القرون الوسطى. وأعطى قيصرها أجميادزين المقدّسة، وهي بمثابة الفاتيكان الأرمني في أرمينيا، الدستور المسمّى بولوجينيا Bolozhenia. وساند أرمينيا عندما حاول الجيش التركي اقتحامها في العشرينات من القرن الماضي.

كانت أرمينيا واحدة من الجمهوريات السوفياتية الست عشر، وخدم الكثير من الأرمن، من جنرالات ذوي رتب عالية وجنود، في الجيش السوفياتي ودافعوا عن الوطن. وصل أناستاس ميكويان الأرمني إلى عضوية المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي (بوليتبيورو) ونجا من التصفيات التي طالت أعضاء المكتب، فارتقى إلى منصب رئيس الوزراء. برز أخوه آرديم ميكويان مخترع طائرات الميغ MiG النفّاثة. في الوقت نفسه، وصل الموسيقار آرام خاجادوريان إلى أعلى المراتب العالمية.

يُعتبر مقرّ الكرسي الرسولي المقدّس في أجميادزين الهوية الوطنية والقومية لكلّ أرمني، ولهذا السبب تكون أرمينيا، أكانت سوفياتية أم غير سوفياتية، البيت الروحي للأرمن.



إستغل السوفيات هذه العلاقة من أجل مصالحهم، ليس فقط في الجالية الأرمنية في كركوك، ولكن في عموم العراق وسوريا ولبنان، حيث كان لجأ مئات الآلاف من الأرمن الناجين من المذابح والمجازر.

لم يكن هذا الاستغلال وليد ساعته: فبعد سنوات قليلة من نجاح الثورة البلشفية جنّد السوفيات عددًا من الأرمن الشيوعيين لتنفيذ مخطّطاتهم للشرق الأوسط. فعلى سبيل المثال، كان رئيسا الأساقفة الأرمن في العراق وإيران عميلَين لـ OGPU، وهو جهاز الأمن السابق للـ KGB، إذ كان للأول سلطة تمتد إلى الهند. وفي الواقع، كان رئيس الجهاز الأول في العشرينات أرمنيًا تمّت تصفيته في باريس.

مع الأسف أصبح عددٌ من الأرمن «الوطنيين»، بمعرفة أو بغباء سياسي، جزءًا من هذه الاستراتيجية ظنًّا منهم أن بعملهم هذا سيساعدون وطنهم الأم. وفي منتصف الأربعينات من القرن الماضي، وصل عددٌ من الأرمن إلى المناصب القيادية العليا في الحزب الشيوعي العراقي، وكان واحد منهم على الأقل أحد مؤسّسيه الأساسيين.

قامت هذه الشبكة الشيوعية الأرمنية بتهريب الجاسوس كيم فيلبي Kim Philby العميل السوفياتي المشهور، داخل جهاز الاستخبارات البريطانية وأحد المستشارين في الـ«سي. آي. أي»، من بيروت إلى قبرص، فالاتّحاد السوفياتي. وقد هزَّ هروبه الوايتهول والغرب واعتبر نصرًا كبيرًا للسوفيات عليهم. كان فيلبي أحد المتعاونين في مجموعة مكلين-برجس McLean-Burgess والآخرين، أي مجموعة العملاء المندسين السوفيات في جهاز الاستخبارات البريطانية.

كان العالم العربي غافلًا عن عملية التهريب، ما عدا المملكة العربية السعودية التي مرّت مرور الكرام على الحادثة لكون والد الجاسوس فيلبي قد تحوّل إلى الإسلام وسمّى نفسه عبد الله. كان هذا الأخير بدوره جاسوسًا وأحد كبار مستشاري العائلة المالكة السعودية، وذا نفوذ كبير في المعركة التي كانت السعودية تخوضها من أجل النفط.

أصبح نادي الجمعية الخيرية الأرمنية العمومية Armenian General Benevolent Union (AGBU) في كركوك مسرحًا مهمًّا للدعاية السوفياتية. لقد سرق الشيوعيون الأرمن تحت مسمّى حب الوطن والإخلاص له هذه الجمعية الأرمنية الوطنية المنحى والنبيلة الغايات والمحافظة والرأسمالية التي تقوم بالأعمال الخيرية والتي أسّسها بوغوص نوبار باشا (ابن نوبار باشا، رئيس وزراء مصر لثلاث مرّات).

إرتدت النادي في سنوات حداثتي. كانوا يعلّمون الشباب الأغاني التي تمدح الطريقة السوفياتية في الحياة، ويعرضون علينا الأفلام التي تصف إنجازات النظام السوفياتي: الحياة الهنيئة والسعيدة في الجمعيات الفلاحية التعاونية **kolkhoze**، المصانع العملاقة وعمليات الحصاد الوفير ورغد العيش عند الفلاحين، شجاعة وبسالة العمّال في أرمينيا السوفياتية، إنجازات رياضيي الجمناستك، مَزارع الكروم، مصانع الكونياك الأرمني الشهير، وأخيرًا صور الجندي السوفياتي البطل الذي يحرس حدود الوطن.

كانت الفعاليات في نادي الجمعية الخيرية تبدأ بالنشيد الوطني لجمهورية أرمينيا السوفياتية «أرمينيا السوفياتية الحرّة المستقلة»، في ظلّ العلم الأحمر الحاضن للمنجل والمطرقة الذي تربّع على المسرح مكان علم جمهورية أرمينيا، بألوانه الأحمر والأزرق والمشمشي.

أخبرونا عن عظمة النظام السوفياتي لأرمينيا منذ ١٩٢١، عندما استولى البلاشفة على جمهورية أرمينيا الحرّة المستقلّة. كانوا يحتقرون جمهورية أرمينيا الحرّة التي ولدت سنة ١٩١٨ من تحت رماد ألف سنة من التاريخ وحظت برعاية أميركا آنذاك؛ ومن عادتهم البصق على العلم الثلاثي الألوان. كانوا يعلنون بفخر أن الشيوعيين في أرمينيا، وبالتعاون مع قوّات لينين، قتلوا الآلاف من الأرمن الوطنيين بالفؤوس بعد فشل انتفاضة شباط (١٩٢١) ضد النظام. كانوا فخورين بإحلال النظام السوفياتي في أرمينيا! فأضحت AGBU سائرة على الخط السوفياتي، فسمَّتْها المعارضة الأرمنية بـ KGBU. وعلى غرار مساهمتهم في قضية فيلبي، ساهم الشيوعيون الأرمن أيضًا،



وبصورة فعّالة، في معظم أعمال الحركات الشيوعية العالمية، وخاصة أثناء الحرب الباردة، ووصلت أعمالهم في الشرق الأوسط إلى ذروتها سنة ١٩٥٦.

كانت بيروت تعتبر مركز استقطاب عمليات التجسّس الدولية، وأهم مسارح الحرب الباردة في المنطقة. وفي تلك السنة بالذات، كان الجميع في صراع للسيطرة على كاثوليكوسية بيت كيليكيا للأرمن حيث الاستعدادات جارية لانتخاب الكاثوليكوس. كان الحدث استثنائيًا وذا أهمية كبيرة للقوى العظمى في هذا الصراع، لأن السيطرة على مقرّ الكاثوليكوسية معناها التحكّم بالكنائس الأرمنية في سوريا ولبنان وإيران وقبرص، وهي جميعها ذات أهمية استراتيجية للدول الكبرى. فالسيطرة على الكنائس تعني التأثير على مرتاديها ومؤيّديها ومنفذي تعليماتها. وكانت النية منع السوفيات من إنشاء رؤوس جسور في هذه الدول.

لهذا السبب دخلت السفارتان السوفياتية والأميركية في مبارزة للسيطرة على مجرى الأحداث. كان لمؤيّدي هذا الطرف أو ذاك خطوط اتّصال مفتوحة مع كلّ من السفارتين، يتلقون التعليمات وينقلونها إلى مريديهم دقيقة بدقيقة. وبعد مضي عدة أيام من التجاذبات، خسر السوفيات وفازت أميركا جولة إضافية من معارك الحرب الباردة.

الفصل السابع

# الشيوعية والشباب

لم يكن نادي الجمعية الخيرية الأرمنية العمومية في كركوك ميدان الدعاية الشيوعية الوحيد، كانت ساحة المعركة أوسع وأشمل، والشيوعيون يشنون هجومًا شرسًا. فبالإضافة إلى عمّال صناعة النفط، اختاروا مجموعة من المنشقين من طلبة الثانوية لتجنيدهم وتلقينهم مبادئ الحزب، رغم اختلاف انتماءاتهم الاجتماعية والمعيشية. كان الشيوعيون يحضّرونهم ليكونوا سياسيي المستقبل وليتمكّنوا في يوم من الأيام من تغيير قدر بابا كركر خاصة، والعراق عامة.

كان عددٌ من هؤلاء موجودين في حيّنا وسعيدين في الوقت نفسه لحضوري معهم بصفة مراقب، بانتظار ضمّي إلى صفوفهم في المستقبل. دفعتني رغبتي لتعلّم المزيد من المعلومات العامة وفضولي في التعرّف على العمل الشيوعي السرّي، إلى أن أنتمي إليهم.

كنا نلتقي في صيدلية «العراق»، لصاحبها خاجيك ترزيان، صديق أبي. كان الرجل كبيرًا في العمر ويتغيّب في أوقات الغداء، ويدير أبناؤه الصيدلية والاجتماعات التي كانت تبدو بريئة. كان المشتركون فيها يعتبرون أنفسهم من الطبقة المثقّفة ويطرحون أراءً متناقضة مع نظريات سياسية مغايرة للمناقشة. ومن مجريات الأمور، اكتشفت بسرعة أن الشيوعيين أوقعوا المجموعة في فخ الثقافة الكاذبة. أما أولئك الذين تحوّلوا إلى الشيوعية حديثًا، فكان الأمر مختلفًا بالنسبة إليهم، إذ شعروا أنهم مهمّون وبالفخر لأنهم جزء من «الطبقة الثورية المثقّفة» تشبّهًا بلينين. كان

بعضهم يتكلّم عن الفروقات بين فلسفتَي ماركس-إنكلز ولينين؛ وآخرون يناقشون في انحراف تروتسكي، ولكنهم بأجمعهم يشيدون بستالين على رغم المجازر التي ارتكبها بحق الشعوب السوفياتية.

قرأ كلّ واحد منهم مؤلّفات تشيخوف وبوشكين ودوستويفسكي، أو أي كتاب روسي آخر. كان أحدهم، محمد عبد المجيد، شخصًا متحفّظًا وطالبًا في معهد دار المعلّمين في بغداد، مأخوذًا بالعادات الروسية إلى درجة أنه كان يمشّط شعره على طريقة أناستاس ميكويان على الجنب مغطيًا جزءًا من جبهته اليسرى، كأنما يخفي إيديولوجيته اليسارية عن عيون وكلاء الحكومة. كان الحاضرون في تلك الاجتماعات المحصول الجديد من المثقفين الشباب في كركوك، ومقدّرًا لهم أن يكونوا قادة العراق الشيوعي.

إلى هذا الحد بلغ تأثير الدعاية السوفياتية على نفسية أولئك الشباب. باتوا يعتبرون أن «الشيوعي» يمثّل الأخلاق النبيلة وقوّة الإرادة، وعقائديّ يكرّس نفسه لعقيدته؛ بمعنى أن الشيوعي تتجسّد فيه كلّ الخصائص النبيلة للإنسان المحترم.

كنتُ أذهب إلى تلك الصيدلية في أوقات القيلولة لأن الابن الثاني ديكران، لصاحبها كان صديقي. وفي هذا المكان، التقيت عدنان عزّاوي، طالب عربي منشق، شقيق كنعان عزاوي، ابن أحد ضباط الجيش الكبار. كان الإثنان من نجوم كرة القدم ومرشحَين التخرّج من الكلّية العسكرية التي كانت بمثابة كلّية ويست بوينت الأميركية بالنسبة إلى العراق. بدا عدنان محور المشاورات بين الجميع، ولم أعلم آنذاك أنه، بعد عقدٍ من الزمن، سيلعب دورًا مهمًا في حياتي!

على الرغم من الجهود التي بذلوها، لم تستطع دعاياتهم الشيوعية أن تتغلغل في عقلي اليافع. كانت أفكاري السياسية قد تبلورت من خلال عائلتي، أبي، العم كريكور، الخالة فكتوريا وحميها ديكران، الذي كان بطلًا حقيقيًا. فقد كرّس نفسه لإنقاذ الفتيات الأرمنيات اللواتي اختطفهن الأكراد أثناء جريمة الإبادة الجماعية وحوّلوهن إلى الإسلام وأجبروهن على الزواج بأبنائهم. ممارسة اعتيادية جدًا في تلك



الحقبة، فأنا أعرف أكثر من عشرين كرديًا جداتهم كنّ من الصغيرات المختطفات أثناء المذابح.

كانت خالتي فكتوريا مختلفة بالكامل عن أمها وأفراد أسرتها، ومتعلّمة مثلها مثل أختها تاكوهي. إنقطعت عن الدراسة بسبب المعارك التي شنّتها قوّات كمال أتاتورك ضد الأكراد في الأناضول، وخاصة في ديكراناكيرد (دياربكر)، حيث تمّ إجلاء أعداد كبيرة من السكان.

سافرت مع عائلتها على ألواح خشبية مترابطة عبر نهر دجلة إلى الموصل، في شمال العراق، حيث استقرّوا. كانت «ثورية»، بكلّ ما في الكلمة من معنى، في تصرفاتها. كانت وطنية بحق ومعادية للترك بشدة وثبات، إلى درجة الشوفينية. وبسبب الظروف القاسية التي مرّت بها، أصبحت تنكر وجود الله. كانت ترفض النقاش عندما يصل إلى نتيجة أن «الله كان يختبر إيماننا». فتردّ بشدة قائلة: «لمَ الحاجة إلى أن يختبر إيماننا، لقد ضحّينا بآلاف من أبنائنا للدفاع عن إيماننا بالمسيحية، وقَبلنا بيسوع المسيح ابنه الوحيد. وتشهد على ذلك الألف كنيسة وكنيسة التي بنيناها في مدينة آني لتمجيد اسمه، وهو يسمح بحدوث هذه المذابح»، لتستنتج في النهاية عدم وجود الله.

وتستمرّ في هذا النمط من النقاش، إذ كانت تحتقر أيضًا رجال الدين في التنظيمات الكنسية، أو وفق تسمّيتها لهم، «وكلاء الله على الأرض» أو حتى «يهوذا الإسخريوطي الذي وشى بالمسيح إلى اليهود». فتقص عليّ قصصًا عن مكر وخداع رجال الدين وتعاونهم مع السلطات العثمانية وتسليم الفدائيين الأرمن إليهم لإنقاذ الكنيسة من رد فعل المسلمين الأتراك، كما كانوا يظنون. كانت تحكي لي كيف أن الفدائيين الأرمن كانوا «ينظّفون» الأرض من شرور هؤلاء، حتى قبل ولادة حزب الاتّحاد الثوري الأرمني (الطاشناق) الذي أخذ على عاتقه هذه المهمّة فيما بعد.

كنتُ أستمع إليها باهتمام بالغ، بخوف، بقلق، ثم أشعر بارتياح وفخر بأن شبابنا حسموا الأمر مع هؤلاء «الخونة». كانت تُنهي قصصها بعبارة «نظّفوهم، انتهت». ثم تبدأ برواية واحدة أخرى بعد رجائي وإلحاحي.

تعرّفت على الطبقة المثقّفة الأرمنية وعناصر المجموعات الفدائية الأرمنية وأنا جالس في حضنها، ومن هؤلاء رافي، سيامانتو، كيفورك جاووش، كريكور زوهراب، فارتكيس، نشتيه، آغبيور سيروب، سوسي مايريك، آنترانيك، آرام، فراتسيان وغيرهم. أتذكّر خاصة رواية «خينتَ-المجنون» للأديب رافي، وهي رواية عن الروح الوطنية الأرمنية، كانت تشعل في خيالي الغض كلّ حماسة. لم أستطع أن أتقبّل آنذاك، ولا يزال من الصعب عليّ اليوم أن أفهم، كيف أن أوروبا المسيحية سمحت بإبادة شعب عريق كالشعب الأرمني وبتهجير من نجا من القتل والحرق إلى صحراء دير الزور السورية ليموتوا من الجوع والعطش. ألم نكن مسيحيين أيضًا؟

كنت أعتبر عمتي فكتوريا أرمنية حقيقية، ثورية في كلّ تصرفاتها، وشخصية بإمكانها أن تتداول بكلّ أمر مستعينة بالمنطق على رغم الغضب المسيطر عليها وأحاسيسها الجياشة. والدور الذي لعبته في تكوين شخصيتي لا يُقدّر بثمن، فقد وضعت أسس اتّجاهاتي السياسية لكلّ حياتي، لا يقاس تأثيرها عليّ إلا بجهود عمي كريكور في المجال نفسه.

في هذا الخضم تبلورت إيديولوجيتي؛ ورغم ذلك أنصتُ إلى «مثقفي» صيدلية العراق لتثقيف نفسي وإرضاء فضولي. باءت محاولاتهم في تحويلي إلى إيديولوجية الجناح اليساري بالفشل الذريع بسبب التزامي ببطلي ونستون تشرتشل، شركة IPC، أبي، عرّابي إبراهيم كولجي، عمتي فكتوريا، والآخرين الذين كانوا قد بلوّروا اقتناعاتي قبل ذلك بزمن طويل، وهذا ما أدى إلى صدام بيني وبين الشيوعيين، إذ كيف يتساوى التركي المجرم الجاهل مع الأرمني المتحضّر؟ هذا جوهر الشيوعية، أوليست تدعو إلى المساواة بين الأعراق؟ وهل الأوزبكي يتساوى مع الروسي في الاتّحاد السوفياتي؟ أشك في ذلك! لا، هذه العقيدة لا تناسبني! ليس بإمكان هؤلاء الناس أن يغسلوا دماغي! كنت عدوًا لدودًا للشيوعية. عرف عدنان عزاوي ما كان يدور في خلدي ورأى فشله في استقطابي. وهذا ما أغضبه.

لم ينتمِ الشباب التركمان إلى هذه المجموعة لأنهم كانوا من أنصار تركيا، وبطبيعة الحال أصبحوا متعاطفين مع النازية في البداية، ثم مع الحلفاء عندما خرجت تركيا



من دول المحور في الحرب العالمية الثانية. بالإضافة إلى هذا فإن إيمانهم بالقضية الطورانية، التي ورثوها عن آبائهم، قادهم بعيدًا عن الشيوعية.

تُعتبر الطورانية حركة عنصرية ذات إيديولوجية شوفينية جاءت بها حركة «الذئاب الرمادية» في تركيا. يضع هؤلاء أنفسهم فوق الجميع Uber alles ويعتبرون القوميات والعناصر الأخرى دونهم مرتبة. ويدعو هذا الحزب السياسي التركي منذ عقود إلى الوحدة بين تركيا والأقطار ذات اللسان التركي في آسيا الوسطى، الواقعة على «طريق الحرير». أدى اتّباع التركمان في كركوك لهذه العقيدة العنصرية إلى خلق هوّة سياسية بينهم وبين الأكراد، مستمرّة إلى اليوم. وخلال السنوات الماضية، انخرطت الولايات المتحدة في لعبةٍ مشابهة لتحصل على موضع قدم في منطقة آسيا الوسطى ذات الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية.

وعلى هذا الأساس، نرى أن الانقسامات في كركوك لم تكن إثنية فقط، بل أيضًا عقائدية: فقد تكتّل الأكراد والشيوعيون من كلّ الملل على جهة، بينما اجتمع الباقون على الجهة الأخرى. على سبيل المثال، كان للمثقّفين العرب تاريخ غني يستندون ويعولون عليه، بينما لم يكن للشباب التركماني لا التاريخ ولا الماضي البهيج لينتموا إليهما. وللإنصاف، لا يستحقون اللوم لهذا الفقر الثقافي والحضاري؛ إذ لم يكن لدى أسلافهم ما ينقلونه إليهم سوى ما سمعه هؤلاء ممن سبقوهم عن بيوت اليورت Yurt في سهوب آسيا الوسطى والتي كانت من تقاليد جنكيزخان وهولاكو خان. فعلى سبيل المثال، وأثناء المواجهات الثقافية بين الشباب، لم يكن بإمكان هؤلاء أن يذكروا اسم شاعر أو أديب أو كاتب تركماني من كركوك يعتدون به.

في الواقع، اشتهر من العائلات التركمانية المثقفة والمعروفة في مجال أعمال الخير: نفطجي والقيردار والهرمزي واليعقوبي والآوجي، وقد وصلت إلى مراتب مهمة أثناء الحكم العثماني في القرون الماضية. تميّز بعضها في المجال الدبلوماسي والمصرفي والميادين العلمية، ومنهم الدكتور نجيب اليعقوبي، أستاذي في الجراحة العصبية، وصديقي نجدة صفوة قيردار، السفير والمترجم الشخصي للزعيم عبد الكريم قاسم،

وهو مؤلّف له مكانته؛ وكذلك نائل اليعقوبي وإبراهيم نفطجي ونجيب قيردار وكانوا من علية القوم ومن الوجوه المعروفة في كركوك ومن معارف أبي.

كانت الهوة الاجتماعية والاقتصادية بين هذه العائلات وعموم التركمان واسعة جدًا، وعلى رغم ذلك، لم يكن هناك تركماني يساري واحد، ناهيك عن شيوعي تركماني في كركوك.

كان العرب والأكراد ومجموعة من الأرمن يشكّلون الأغلبية من الشيوعيين والمتعاطفين معهم. إعتنق العرب الشيوعية «لإنقاذ» بلدهم من الإمبرياليين، وتحوّل الأكراد إلى الشيوعية للحصول على شيء من الحكم الذاتي سياسيًا، أما المجموعة الأرمنية فلأسباب وطنية وقومية.

لم يمتلك الأرمن أي هدف سياسي في العراق. فالجالية الأرمنية التي عاشت في بغداد منذ القرون الأربعة الماضية تمتّع أفرادها بحقوق المواطنة كأي عربي في البلد. أحبهم العراقيون واحترموهم، وعندما وصلت مجموعات المهجّرين الناجين من جريمة الإبادة الجماعية التي ارتكبتها تركيا بحق الأرمن سنة ١٩١٥ احتضنهم الشعب وآواهم. بقي الأرمن ممتنين للعرب لحسن ضيافتهم، وأصبحوا مواطنين مخلصين وساهموا في بناء البلد. كانوا من أهل الحرف والمهن، من ميكانيكيين ومصورين فوتوغرافيين وتقنيين وأدباء وأطباء أسنان وصيادلة وبرزوا في مجالات الفنون والمعرفة، فغيّروا الحياة اليومية في بغداد والمدن الرئيسية الأخرى. في المقابل، قدّر العرب وأهل البلد جهودهم أحسن تقدير.

بعد الحرب العالمية الأولى، أسّست مجموعة من الرجال «الحزب الشيوعي العراقي». كان هابيت (اسمه الأول) الأرمني أحد المؤسّسين، صديق العائلة، وحضرتُ زفافه وأنا طفل. كنّا نشك أنه شيوعي ولم نتأكد إلا عندما اعتقلته السلطات ونفته إلى نقرة السلمان حيث يُسجن «المعتقلون السياسيون»، التسمية التي كانت تُطلق على الشيوعيين؛ كانوا يزجون فيه لسنوات طويلة إلى أن ينساهم المجتمع. لم



يرجع الكثير منهم إلى أهله! وقبل سنوات قليلة، أكد لي أحد أبناء عمومته أن هابيت كان واحدًا من المؤسّسين الخمسة للحزب الشيوعي العراقي في حينه.

بينما بقي اسم هابيت وهويته في السرّ، ذاع اسم فهد وقارب الأسطورة. كان فهد رئيس اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي والناطق باسمها على الرغم من أن احدًا لم يعرف عنه شيئًا، إلى أن كشفت السلطات هوية سلمان يوسف سلمان، الطبّاع الذي عمل في زنزانات بغداد الرطبة وأصدر المنشور الحزبي «القاعدة». كان بمثابة الكتاب المقدّس للحزب ويوزّع في عموم البلاد، وخاصة في صيدلية «العراق» في كركوك، وينشر العقيدة الشيوعية، ويحرّض الشعب على الوقوف ضد الرأسماليين الاستعماريين وربيبتهم العائلة المالكة.

منتصف شباط ١٩٤٩، اقتفت الحكومة آثار فهد، واعتقلته، وحكمت عليه بالإعدام شنقًا مع ثلاثةٍ من رفاقه، أحدهم يهودي اسمه يهودا صديق. كان وجود هذا اليهودي في القيادة العليا للحزب الشيوعي العراقي قد أكد للعموم أن الصهيونية والشيوعية وجهان لعملة واحدة.

بإعدام فهد، أعطبت الحكومة الحزب، لكنها، ومن دون قصد، خلقت من شهيده أسطورة، وأعطت الحزب الشيوعي حيوية، وسببًا إضافيًا للنضال. فأعاد تنظيم نفسه واختار عادل سلام رئيسًا جديدًا للّجنة المركزية.

في الوقت نفسه لم ينهِ رحيل فهد الحرب التي شنّتها الحكومة ضد التحالف التاريخي الصهيوني-الشيوعي. وعلى غرار هتلر، احتقرت المؤسسة العراقية الإثنين معًا وحاربتهما بضراوة. ويؤمن المثقفون العرب أن معاداة هتلر للسامية سببه إنشاء اليهود الحركة الصهيونية-الشيوعية بهدف تخريب ألمانيا. وجاءت معاداة العرب لليهود انطلاقًا من الاستنتاج نفسه. وكانوا يعتبرون، عن خطأ أو عن صواب، أن الشيوعيين يتعاونون مع الصهاينة لتخريب الوطن العربي، ودليلهم إلى ذلك الدعم الشيوعي لقيام إسرائيل والاعتراف بها، مع غياب المعارضة العربية-الشيوعية لها.

## الفصل الثامن

# ١٩٤٨

لم يكن إنشاء دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨ الحدث الدولي الوحيد بعد الحرب العالمية الثانية. لكنها كانت سنةٌ عاصفة في منطقة الشرق الأوسط، وتركت تداعيات سياسية وديمغرافية كبيرة، نتج عنها تهجير جماعي للفلسطينيين العرب من فلسطين، وفراغ سكاني فيها اجتذب إليه هجرات جماعية لليهود. كانت هناك أيضًا هجرات جماعية للأرمن من الشرق الأوسط، والعراق بالتحديد، إلى أرمينيا السوفياتية، من أجل إعادة توطين أرمن المهجر في أرمينيا بعد أن فقدت مئات الآلاف من السكان، بسبب الحرب العالمية الثانية.

معاهدة بورتسموث لتهزّ كيان العراق. وعلى مستوى العالم، برزت الثورة الصينية كحدثٍ مهم، والنزاع القائم حول تقسيم الهند وإنشاء باكستان، والتأثيرات التي ظهرت بعد قصف هيروشيما وناكازاكي، والثورة الجزائرية، إضافة إلى تبلوّر مبدأ حلف شمال الأطلسي (ناتو)، والحرب الباردة في العموم.

ولد حزب البعث العربي الاشتراكي في سوريا ليملأ الفراغ السياسي الذي خلّفته سلسلة الانقلابات التي قام بها جنرالات سوريا. ويبدو للناظر أن الشرق الأوسط أُصيب باضطرابٍ كبير، ولكن على رغم كلّ ذلك، استمر النفط بالجريان من بابا كركر إلى البحر الأبيض المتوسط ليطفئ ظمأ أوروبا.

سنة ١٩٤٨ أيضًا، تحقق تصريح بلفور Balfour Declaration (ويسمّيه البعض بوعد بلفور) الصادر في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧، يومها قال: «بتأسيس وطن قومي

لليهود في فلسطين ولكن من دون الإضرار بالحقوق المدنية والدينية للمجتمعات غير اليهودية الموجودة»، وأصبح التصريح-الوعد حقيقة واقعة، ولكن ليس كما جاء في حيثيات النص. تحقّق الوعد مع الإضرار «بالحقوق المدنية والدينية للمجتمعات غير اليهودية الموجودة». خسر مئات الآلاف من الفلسطينيين «الحقوق المدنية والدينية» فتركوا ديارهم أو أُجبروا على تركها ليعيشوا في مخيّمات أنشأتها الأمم المتحدة في أماكن مختلفة من البلاد العربية. وجّه قيام إسرائيل ضربة لوجستية ونفسية كبرى للبلاد العربية.

شكّل ذلك للفرد العربي، ولا يزال، مصدر غضب وإحباط وكره ثابت تجاه أميركا والغرب، بنتيجة الشعور العربي العام بأن أميركا جلبت هذه «النكبة» عليهم. ولم ينتهِ الأمر هنا؛ فقد وضِع اللوم على القيادات العربية في ذلك الوقت، وبخاصة على ملوك العائلة الهاشمية. وقد تصدَّر القائمة الملك عبد الله، ملك شرق الأردن. وكان العاهل المصري الملك فاروق، أحد المذنبين الذين استحقوا العقاب بطريقةٍ أو بأخرى.

كانت القدس تعيش في فترة سبات قبل هذه الأحداث! فمنذ أن حرّرها صلاح الدين (المحارب الكردي من تكريت، مسقط رأس صدّام حسين) من الصليبيين في القرن الثالث عشر، لم ترَ أي تغييرات كبيرة؛ وعاشت تحت إدارة عربية-إسلامية.

تعتبر القدس ثالث مدينة مقدّسة لدى الإسلام، بعد مكة والمدينة. ففيها صلّى الخليفة عمر بن الخطّاب، ثم أعطى موافقته على بناء مسجد في موضع صلاته، فأضفى الشرعية الإسلامية عليها. وبنى الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان المسجد الأقصى على ظاهر الموضع الذي وقف عليه الحصان الأبيض للنبي في إسرائه الليلي من المدينة.

بغض النظر عن اعتقاد أتباع الأديان التوحيدية الثلاثة، ومن ضمنهم الأرمن والروس واليونانيون، بأنهم يملكون جزءًا من الأرض المقدسة، اعتبر المسلمون «القدس إسلامية» وأن دفاعهم عنها، كما عن مكّة، ليس فقط مبرَّرًا، بل واجبًا على المسلمين كافة.



من ناحيةٍ أخرى، تقبّل عددٌ من القيادات العربية البارزة، ومنهم الملك عبدالله، ملك شرق الأردن جد الملك الحسين بن طلال، فكرة التعايش مع «هجرة يهودية إلى فلسطين والعيش جنبًا إلى جنب مع العرب». وسبب تقبّلهم للفكرة، جهْلُهم لليهود الأوربيون الأشكناز، وظنُّهم أنهم ساميون مثل اليهود السفرديم، أبناء عمومتهم، ينحدرون من النبي إبراهيم. كانوا يتوقعون من اليهودي الأوروبي المهاجر أن يكون سلسًا وذليلًا ومطيعًا ومخلصًا لهم مثل اليهودي السامي، لم يكونوا كذلك!

بعد فوات الأوان، قرأوا رسائل الرحّالة و«السفراء» العرب من العصر العبّاسي في القرن الثاني عشر وانتبهوا إلى أن القبائل اليهودية من أوروبا الشرقية كانوا في الواقع من الخزر، أصلها من القبائل تركية اللسان من آسيا الوسطى. في القرنَين السابع والثامن الميلاديين، هجَّرهم الصينيون من سهوب آسيا الوسطى إلى الغرب نحو حوض نهر الفولغا، فاستقرّوا قرب كييف وأنشأوا مملكة.

لم يكن للخزر دين يتبعونه في موطنهم الجديد. حاول البيزنطيون أن يفرضوا عليهم المسيحية عن طريق الحرب، والعبّاسيون الإسلامَ بعد أن حاربوهم في منطقة القوقاز، وفشلت جهود الدولتين. وأخيرًا، قدَّم لهم «سفير» إسباني-يهودي النصيحة، فقبلوا اليهودية وأعلنوها دينًا رسميًا لدولتهم، كما ذكر آرثور كويستلير في كتابه «السبط الثالث عشر».

أصبحت خزاريا أشبه بإمبراطورية في القرن العاشر، بعد أن استولوا على كييف وحوض نهر الفولغا بأجمعه، وهنغاريا، وجميع أرجاء أوروبا الشرقية، وإلى الجنوب لغاية بحر قزوين؛ لهذا السبب أطلق العرب تسمية «بحر الخزر» عليه.

يشدُّنا هذا الأمر إلى أن يهود أوروبا الشرقية الذين استوطنوا إسرائيل ليسوا ساميين، بل خزر من الشعوب التركية. كان الرأي السائد عند العرب آنذاك أن اليهود الأوروبيين لم يكونوا من أبناء إبراهيم؛ ولهذا ليسوا أبناء عمومتهم. وعلى الرغم من كلّ الآراء التي طُرحت، كان النقاش مجرد تمرين أكاديمي وليس له أي تأثير على وقائع النزاع.

في خضم هذه الأحداث، اعتبر العرب تأسيس دولة إسرائيل عملًا لا شرعيًا، وأن الغرب خلق إسرائيل ليضع بابا كركر وغيرها من آبار النفط في بلاد العرب تحت سيطرته. إضافة إلى هذا، كان مقدَّرًا لإسرائيل أن تكون قاعدة للغرب لاحتواء الاتحاد السوفياتي من الجنوب. وعلى الرغم من أن موطئ القدم هذا خدم الغرب بفاعلية كبيرة، لكنه أصبح مصدر عدم استقرار رئيسي وحروب واضطرابات في المنطقة وبعيدًا عنها.

بعد إنشاء دولة إسرائيل لم يكن للحكّام العرب أن يبقوا مكتوفي الأيدي بشكل سلبي من دون أي ردّ فعل من جانبهم، وإلّا لحقهم عار الخيانة من شعوبهم. كان عليهم أن يتفاعلوا بسرعة لإرضاء الشارع العربي الذي كان يطالب بإزالة هذا «السرطان» من الجسم. لهذا السبب أعلنوا الحرب على إسرائيل، رغم عدم ثقتهم بالانتصار فيها. أرسلت مصر وسوريا والعراق وعدد آخر من الدول العربية جيوشها لتحرير فلسطين وإرجاع اليهود إلى مواطنهم الأولى، أو حتى رميهم في البحر.

في الواقع لم يكن ممكنًا أن يرجع اليهود من حيث أتوا، حتى لو رغبوا بالعودة، لأن أوروبا كانت في فوضى كبيرة ولأنهم هربوا بجلدهم من المحرقة (الهولوكوست)! وحتى لو كانت أوروبا مستقرّة ومزدهرة، فإنها لم تكن ترغب بهم، ولم يكن هذا بجديد: في القرنين الرابع عشر والخامس عشر طردت معظم الدول الأوروبية اليهود من أراضيها وآخرها إسبانيا. لم يُسمح لهم بالذهاب إلى أميركا بسبب تبنّي الكونغرس قانون جونسون-ريد الذي منع الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة. وقد أرجعت أميركا سفنًا محمّلة بالمهاجرين اليهود من شواطئ ولاية فلوريدا.

لم يُقدِّر العرب قوّة عدوهم عندما هاجموا إسرائيل. كانوا يعتقدون أن القوّات الدفاعية الإسرائيلية تتألّف من يهود مثل الذين يعرفونهم: سلبيون، خائفون، متذللون، مطيعون، وجبناء. كانوا على خطأ! كانوا يواجهون أناسًا ذوي إدراك وقح؛ وجّهوا لهم ضربة مدوية وهزيمة لم يتمكّنوا من تحمُّلها ولا نسيانها. أزاحت الغشاوة التي غطت أدمغتهم على مساحة الوطن العربي، فبدأ القادة السياسيون بإعادة تقييم



الوضع والتخطيط لأعمال مستقبلية. أُهينت قوّاتهم المسلحة وأخذ الضباط خزي الهزيمة كمسألة شخصية. تركت علامة فارقة على نفسياتهم، فنتجت الكراهية التي أضحت قوّة نفسية دافعة لكلّ عربي. وسيطرت فكرة الانتقام على التفكير، فانتقلت إلى الأجيال المتعاقبة كغذاء روحي متجدّد دومًا.

بذرت النكبة بذور «الحركة الثورية العربية» في قلب وفكر كلّ عربي طالب بردّ فعل معاكس. وللبدء به يجب القيام بتنظيف الدار أولًا من «الخونة، عملاء بريطانيا الذين باعوا وطنهم».

دفع الملك عبد الله الثمن بحياته أثناء صلاته في المسجد الأقصى بمعية حفيده الحسين (الذي أصبح ملك الأردن فيما بعد).

كوّن العسكر في مصر والعراق حركات الضباط الأحرار، ودافعها الرئيس الانتقام. وضعت القوّات المسلّحة المصرية اللوم على الملك فاروق لهزيمتها في الحرب، واتهمته بالخيانة والفساد وإرسالها إلى المعركة بأسلحة بريطانية فاسدة اشتراها وجنى منها الأرباح. وكانت قضية الأسلحة الفاسدة دليلًا ماديًا على اشتراك الملك مع بريطانيا في إلحاق الهزيمة بالعرب.

بعد أربع سنوات قصيرة من «النكبة»، قام الضباط الأحرار بقيادة محمد نجيب في مصر في ٢٣ تموز ١٩٥٢ بخلع الملك فاروق عن عرش مصر ونفيه إلى إيطاليا حيث أكمل حياته في اللذة ومات سكيرًا. أصبحت مصر جمهورية يحكمها مجلس ثوري. وسرعان ما تنحّى نجيب عن الحكم وأصبح جمال عبد الناصر رئيسًا للجمهورية.

نجح عبد الناصر في إلهاب الخيال العربي من خلال خطبه ومؤامراته، وأصبح القوّة المشتعلة التي ألهبت رغبات المواطن العربي في بناء دولة الوحدة المنشودة من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي. ورأوا بوادر إحياء المجد الإسلامي. ومن سخرية القدر أن ما طالب به عبد الناصر في تلك الأيام، لا يختلف عما قاتل من أجله أسامة بن لادن بعد ذلك: إخراج الأرض العربية من نطاق النفوذ الأجنبي والسيطرة على

الثروة النفطية. وعلى الرغم من كون عبد الناصر مسلمًا متديّنًا لكنه لم يطالب بحكم الشريعة على الأرض العربية مثلما فعل بن لادن.

تحدّى الزعيم بأعماله القوى الاستعمارية والولايات المتحدة خاصة، وأصبح بطلًا على امتداد البلاد العربية وحامل شعلة القومية العربية التي كانت تكوّن معاقل إيديولوجية في هذه البلاد للوصول إلى هدف الوحدة.

كردّ فعل على ما يجري في مصر، انضمّت الأنظمة الملكية والطبقة الحاكمة العربية إلى القوى الغربية للوقوف في وجه عبد الناصر وتحدّي إيديولوجيته القومية، لأنهم رأوا فيه خطرًا عظيمًا يهدّد مصالحهم ومصالح مؤسّساتهم عمومًا. دخلت العائلتان المالكتان الهاشميتان في العراق والأردن في هذه المعارضة.

ففي سنة ١٩٤٧، أي قبل خمس سنوات من اندفاع عبد الناصر نحو الواجهة، كان فكرٌ إيديولوجي آخر يتخمّر في العالم السياسي العربي، ولكن هذه المرة في سوريا. إذ قام إثنان من خريجي السوربون، أكرم الحوراني، مسلم، وميشال عفلق، مسيحي، باِستعارة أفكار الثورة الفرنسية لتطبيقها في الواقع العربي، فأسّسوا حزب البعث العربي الاشتراكي. إستندوا في دعوتهم إلى قاعدة رفض التمييز بكلّ أنواعه، الإثني والديني والجنسي، ونادوا كذلك بتطبيق المبدأ الاشتراكي ووحدة الدول العربية.

كانت إيديولوجية عبد الناصر مشابهة نوعًا ما لأفكار حزب البعث. كان مسلمًا بطبعه، بخلاف البعث. وقد وجدت حركته صدى واسعًا ومقبولًا لدى الشباب القومي العربي. وظهر في سوريا أيضًا تيارٌ سياسي قوي آخر، ولكن في السرّ، هو الحزب الشيوعي المحظور. كان الرجل القوي فيه، خالد بكداش، ويدعى «سيّد سوريا والشرق الأوسط الشيوعي». وكان جليًا أنه وكيل الاتّحاد السوفياتي في المنطقة الذي له عدة أهداف فيها، أقلها السيطرة على بابا كركر والشرق الأوسط ذات الأهمية الاستراتيجية.

هكذا نرى أنه في نهاية الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي كان هناك ثلاثة تيارات سياسية قوّية تضرب بأمواجها سفينة العرب من كلّ الجهات: الناصرية



والبعثية والشيوعية. وإضافة إليها، كان هناك تياران سياسيان رجعيان لا يملكان أي برنامج مستقبلي غير استعادة ما فُقِدَ في خلال القرون الماضية: الإخوان المسلمون والقوى الرجعية الحاكمة.

شكّلت القومية الكرديّة في العراق حركة إضافية، لكنها لم تقلق الدول العربية الأخرى لعدة أسباب، لعل أهمها أنها كانت مشكلة عراقية فقط، ولم تشكّل أي تهديد للمصالح القومية العربيّة. تثبت أحداث اليوم مدى الضلال الذي كانوا فيه في تلك الأيام. سنتوسع في هذا الأمر لاحقًا.

بعد ثورة ١٤ تموز في العراق، كان الحديث يدور حول انضمام الأخير إلى الجمهورية العربية المتحدة، إذ زار جلال طالباني، أحد قادة الأكراد، الرئيس المصري في مناسبتَين مختلفتَين لتأكيد مطالبته بالحقوق الكرديّة في العراق. فطمأنه إلى حلول مرضية لطموح الأكراد القومية ضمن إطار كيان عربي.

كان هذا التنوّع السياسي ضمن الهيكل السياسي العربي يدل على عملية سليمة ولكنها بعيدة عن الديمقراطية، وهذه بدورها كانت، ولا تزال، غريبة عن العالم العربي وتقاليده. لا بد للثقافات الغربية أن تفهم الإسلام قبل أن تحاول تغييره. فالقناة التابعة للشيوخ في الهيكل القبلي العربي، وبدرجات متفاوتة، هي طريقة العبودية السائدة في عموم الوطن العربي. ولم تسمح الأنظمة الرجعية في الدول العربية بتغييرها ببدائل معروفة. إضافة إلى كلّ هذا، تنظّم الشريعة الإسلامية حسب السُنّة النبويّة والقرآن الكريم جميع نواحي حياة الفرد المسلم. فهي تعرِّف الهيكل الاجتماعي للمجتمع الإسلامي، وتحدّد حقوق الفرد وواجباته وتصرفاته، وهذه جميعها مقيّدة حسب نظام الشريعة على عكس السائد في الديمقراطية الغربية. ينشأ المجتمع الإسلامي عادة حول شخصية مركزية كالشيخ أو القائد الذي بدوره يختار مجموعة استشارية تدعى «الشورى» تقدّم له النصيحة. والنصوص القرآنية واضحة في التفريق بين الرجل والمرأة من ناحية الميراث والعلاقات الشخصية بينهما، وتعطي الرجل التفوّق في اتّخاذ القرارات. فعلى المرأة أن تطيع زوجها الذي له الحق الشرعي

في ضبطها، حتى بفرض العقوبة القصوى. لا يُسمح للمرأة أن تطلب الطلاق، ولو أن هناك بعض التعديلات على هذا الأمر في مصر.

يطبّق رجال الدين قوانين الشريعة ويوجّهون المجتمع عن طريق «الفتاوى» التي هي من نتاج «اجتهادهم». في الحقيقة إن المسلم العلماني لا يلتزم بالشريعة التزامًا كلّيًا مع وجود المرونة في العلاقات الشخصية. مع هذا تأتي التوجيهات الأساسية من الشريعة نفسها وهي بدورها غير قابلة لأي تحوير.

على الرغم من أن الإيديولوجيات السياسية المختلفة أعطت الغرب أحسن الفرص للاستمرار بسياسات «فرّق تسُد»، ولكنها في الوقت نفسه ضاعفت من قلق الغرب في تقوية المشاعر المعادية له، وإن استمرارية إهمالها ستعيق سيطرته على بابا كركر.

إعتمادًا على هذا التخبّط السياسي، انضمّ عبد الناصر إلى تيتو في يوغوسلافيا وجواهر لال نهرو من الهند وسوكارنو في إندونيسيا وكوّنوا «مجموعة دول عدم الانحياز» بتطبيق «الحياد الإيجابي»، في خطوة دفعته إلى الأمام لقيادة الوحدة العربية وأفسحت المجال لإثارة العالم العربي. عبدته الشعوب العربية كصنم أوحد باعتباره قائدهم اليقيني والمجسّد الفعلي لأحلامهم.

إعتبر السوفيات الرئيس المصري الرجل المناسب، والغرب أيضًا، ولكن بطريقة مختلفة. إحتقره الغرب. أدخل ظهوره على الجموع العربية وشخصيته الأخّاذة ونجاحه في إيقاظ الشارع العربي وتنظيمه ودفعه إلى الأمام الرعب إلى الغرب. وكانت نظرة الأخير إلى الحركة الناصرية على أنها امتداد للفكر الشيوعي، على الرغم من خطأ هذه النظرة أو صوابها، وأن مصر امتداد لدائرة النفوذ السوفياتي. فقد أصبح للسوفيات موطئ قدم في مصر لأول مرة في التاريخ، وبات بالتالي بإمكانهم التدخّل في أمور الشرق الأوسط. وسرّ السوفيات لأن النظام الجديد في مصر ومتغيّراته الحيوية ساعدت في خلق مشكلة كبرى للغرب ومعارك جانبية لصرف النظر عن الحرب الباردة الدائرة في العالم.



لتحقيق حلم راوده، تجرّأ عبد الناصر وأمّم قناة السويس فاندلعت حرب سنة ١٩٥٦ مع إسرائيل وفرنسا وبريطانيا. خسر الحرب ولكنه ربح القناة. بعمله هذا ارتفع رصيده أكثر عند الشعوب العربية التي استحوذت السيطرة على ممتلكاتها الشرعية واستعادت احترامها لنفسها؛ إذ وقف أحدهم أخيرًا بوجه «المعتدين» وطردهم من أرضهم، كما فعل صلاح الدين.

لم يكن عبد الناصر يحارب الغرب وحده؛ كانت عينه بشكل ثابت على العراق والدول الخليجية المنتجة للنفط. فتآمر على الشيوخ والعائلات المالكة بتهييجه المعارضة ضدهم. وأمّن، عن طريق الابتزاز، حصة من واردات النفط لمصر. تآمر ضد المملكة العربية السعودية وساعد الأمير طلال بن سعود، أحد الأمراء الكبار في المملكة، أن يرتد ويهرب إلى القاهرة ويعمل من هناك ضد عائلته لتغيير النظام.

لم تهدأ الآلة الدعائية لعبد الناصر عن العمل. ولم يهدأ «بوق ناصر»، أحمد سعيد، من إذاعة «صوت العرب من القاهرة»، عن طريق البيانات والتعليقات عن تهييج العراقيين ضد النظام الحاكم والإمبرياليين الذين يمتصون دماء الشعب العربي عن طريق سيطرتهم على بابا كركر. كان مفهوم الزعيم أن الثروة النفطية العربية ملك للدول العربية كافة، وأن النفط سلاح لقتال الغرب.

كان عدم الاستقرار مسيطرًا على الشرق الأوسط حيث كانت سوريا تمرّ بأسوأ مرحلة زمنية وتعاني من انقلابات عسكرية متتالية، بدءًا من انقلاب شكري القوتلي وحسني الزعيم والشيشكلي وحناوي وعبد الحميد السراج وغيرهم.

وبهذا، غيّرت ثلاثة دول عربية في الشرق الأوسط من أنظمتها السياسية في العقد الأول من الخمسينات؛ الثورة المصرية ضد الخديوي في ١٩٥٢، وثورة الجيش العراقي ضد الهاشميين في ١٩٥٨، والانقلابات العسكرية السورية المتتالية من ١٩٤٨ لغاية ١٩٥٨. وغني عن البيان أن الثورات في الدول العربية الثلاث الرئيسية في المنطقة جاءت نتيجة لمسببات مشتركة، وهي:

أ- الهزيمة المذلّة لجيوشها ضد القوّات المسلّحة الإسرائيلية في حرب ١٩٤٨ ووضع اللوم بكامله على العوائل المالكة الحاكمة والفئات الموالية لها.

ب- النفوذ السلبي للقوى الاستعمارية التي كانت تساند الأنظمة الفاسدة.

شعر الجيش العراقي المشهود له بالقوّة والسمعة العسكرية العالية بمرارة وعار الهزيمة أكثر من غيره، وعاش ضباطه في حالٍ من الغضب العارم مع ازدياد شعورهم بأنهم كانوا ضحية خيانة وغدر. كانوا يعلمون أنهم أبلوا البلاء الحسن في الحرب، وخاصة في معركة جنين، ولكنهم أبادوا الكثير من المدنيين اليهود من دون رحمة، وبالنتيجة خسروا الحرب.

بعد رجوع الجيش العراقي إلى البلد، وعلى الرغم من الهزيمة المدوية، أقيم استعراض عسكري في كركوك، حيث مقرّ الفرقة الثانية. حضرتُ استعراض القطعات التي مرّت أمام دارنا في شارع الأوقاف وكنت ألتقط الصور بكاميرا كوداك مدّعيًا وموهمًا نفسي بأنني صحفي.

لم يبدُ على أفراد القطعات المشتركة في العرض ما يدل على أنهم أبطال، ولا حتى تصرّفوا كأبطال. كانت نظراتهم تدل على الهزيمة والخذلان. منظر رؤوسهم غير المرفوعة دلّت بوضوح على انكسارهم.

رأيتُ في العرض العسكري الملازم الشاب سيروب داود الضابط الأرمني الوحيد في الجيش العراقي. كان متزوجًا من فكتوريا، ابنة خاجيك ترزيان الذي كنّا نزور صيدليته أثناء القيلولة ونناقش الأمور السياسية في العالم والشيوعية.



## الفصل التاسع

# نحن وشركة IPC

تعتبر كركوك المركز التجاري للمنطقة وكانت أكثر تقدّمًا من أربيل والسليمانية بسبب وجود شركة النفط العراقية IPC أولًا ومقرّ قيادة الفرقة الثانية، ثانيًا. كانت فيها المستشفيات الكبيرة ودور العلم والتجارة.

إليها، كان المزارعون يجلبون منتوجاتهم من الحنطة والسمن والأرز والخضروات وغيرها، ومنها يتمّ توزيعها على المدن والقرى المجاورة. وقد سيّطر الأرمن على شؤون النقليات، إذ كان ألكسان جفيليكيان ونرسيس دير نرسيسيان ودافيت هاكوبيان والإخوة يرانوسيان يملكون معظم شاحنات النقل وينقلون الحنطة والأرز.

كان سوق القورية المركز الرئيس للتسوّق. لم يكن مسقوفًا مثل أسواق القلعة ولا منظّمًا مثلها، فمواقع الدكاكين عشوائية. إذ يجد المتسوّق محل القصاب جنب دكان بيع لوازم الخياطة. كانت معظم المحلات تبيع الخضروات والفواكه الطازجة واللحوم والأجبان والرقي ذا الحجم الكبير، ومحلات أخرى تبيع كلّ المستلزمات مثل الحبال والسلال والشموع وغلايات الشاي والحلويات.

كان معمل الثلج الوحيد يقع قريبًا من السوق وينتج كتل الثلج الضخمة تلتقطها ملاقط عملاقة من القوالب لتوزيعها على المشترين. كان ابن صاحب المعمل، لطيف محمد بوزة، صديقي في الصف نفسه واصطحبني مرة لزيارة المعمل.

بإمكاني أن أقول إنه بالإضافة إلى مصفاة النفط ومحطة توليد الكهرباء، كان معمل الثلج الصناعة الوحيدة التي تعتمد على المكننة.

كانت تعتبر شركة IPC شريان حياة كركوك، ليس لأنها كانت تصبّ أكثر من نصف مليون باوند سترليني في اقتصاد المدينة في كلّ شهر، وهو مبلغ محترم حسب معايير العملة في تلك الأيام، بل بما جلبت لنا من نواحي الحياة المختلفة. على الأقل كانت نافذة مفتوحة على العالم الخارجي وأسلوب الحياة في الغرب.

فمن خلال الـ IPC كنّا نرى الحياة الأوروبية وثقافة الغرب ونطمح بمستقبلٍ أفضل لأنفسنا. ألهبت الـ IPC مخيلتنا حول الحياة وكيف تكون، فأضحى الكثيرون منا ساخطين بطبيعة الحال. وبدأ الكثير منا يكرهون البلد الذي أعطى الملاذ الآمن لعوائلنا المهاجرة التي نجت من جريمة الإبادة الجماعية الأرمنية.

كان الشاب في كركوك يريد إما أن يعيش الحياة الأوروبية فيها أو يهاجر إلى حيث يجدها. فقد سيطرت الثقافة الأوروبية على قلوبنا وتفكيرنا. وفعلت هوليوود فعلها أيضًا، إذ أصبح شخص شبه متعلّم مثل نوري قادر، ابن صاحب دكان كردي أمّي، يتكلّم عن السفر إلى هوليوود ليصبح مخرجًا سينمائيًا. كانت هذه هي الفكرة التي تحفّزنا وتعذّبنا في الوقت نفسه، كلّنا من دون تفرقة، الأرمن والآشوريون والتركمان على السواء.

كان داخل كلّ واحد منا نزاع داخلي؛ كنتُ ربما أكثر المتأثّرين بالنزاع بين نفسي وواقعي. فعلى الرغم من أن الثقافة الاستعمارية لبريطانيا كانت بمثابة منزلي الفكري، كان الفكر القومي الأرمني القاعدة الروحية التي أستند عليها. وتضارب هذان الإحساسان مع الشعور الخفي لمسقط رأسي كركوك، هذه المدينة التي ربطتني بأرضها كما يرتبط الطفل بأمه.

تفرض الحياة شروطها على المرء، وبالنسبة إليّ فإن الحياة في الغرب كانت ساحرة ومغرية. الهجرة إلى بريطانيا وأميركا، وخاصة الأولى، كانت بمثابة حلم يجب تحقيقه! إخترتُ بريطانيا بسبب لطف الحياة فيها وهيكلها الاجتماعي المناسب.



إخترنا أسلوب حياتنا وفق نمط الحياة البريطاني بالضبط: بدلة من ثلاث قطع من صنع Saville Row، أحذية علامة Churchill أو Barrett، غليون التدخين علامة شركة Dunhill، تبغ Capstan، ويسكي Johnny Walker Black، خاتم على الخنصر، ساعة جيب ذهبية مع سلسلة ذهبية، وكلّ رموز الحياة في بريطانيا.

كنتُ أعتقد أن أميركا متوحّشة وبرّية أكثر من اللازم، الحياة فيها كثيرة القلق، وغير تقليدية وغامضة بسبب رعاة البقر ومسدساتهم، ولهذا كانت غير مقبولة للكثيرين منّا.

نعم، كانت الـ IPC شريان حياتنا! جاءت إلى مدينتنا باسم شركة النفط التركية، إلى أن قام كالوست كولبنكيان، «السيد خمسة بالمائة»، بتشكيل ائتلاف Consortium تحت إدارة بريطانية وشكّل الشركة الجديدة. كانت الـ IPC بالنسبة إلى العراق ما كانت تمثّل شركة جنرال موتورز بالنسبة إلى أميركا، وأكثر.

شكّل النفط هيكل السياسات الداخلية والخارجية في العراق وكذلك القوى العظمى منذ حفر أول بئر نفطي في ١٩٢٤ وإلى الآن. كان ذا نفوذ كبير على ميزان القوى في الشرق الأوسط وسبّب بالاعتداءات والحروب، فنتج عنها الموت والدمار. غيّر النفط الهياكل الإثنية والاجتماعية في المنطقة.

إعتبر الكثيرون اكتشاف النفط بركة للعراق، ولعنة الله في نظر الآخرين. فمن ناحيةٍ، كان النفط يعني الوفرة والازدهار، ومن ناحيةٍ أخرى كان عائقًا نحو الاستقلال السياسي. كانت وجهة نظر القوميين أن الدول المنتجة للنفط ستبقى بصورة دائمة ضحايا ملايين المؤامرات ومخططات القوى العظمى المعادية لها، ولن تكون حرّة أبدًا لتحقيق أهدافها القومية، مثل الوحدة العربية. أثبت الزمن صدق توقعاتهم.

أثناء حكم العائلة الهاشمية في العراق، والذي دام حوالي أربعة عقود، تمتع البريطانيون وشركات النفط بأوقات هادئة. وجدوا في شخص الملك فيصل الأول حليفًا تمكّن بمهارته وذكائه من المشي على حبل مشدود، وقف البريطانيون على أحد

طرفيه، والعرب القوميون والوطنيون، وكان واحدًا منهم، على الطرف المقابل. هل بإمكان الملوك أن يكونوا وطنيين؟ حسنًا، فيصل واحد منهم!

كان عربيًا أصيل النسب، ولد في عائلة نبيلة في الحجاز (الآن جزء من السعودية)، محور الأمة العربية. والده كان الملك الحسين بن علي الهاشمي من نسل النبي محمد. كان إخوته الملك علي (ملك الحجاز لفترة وجيزة)، والملك عبد الله ملك شرق الأردن (جد الملك الحسين بن طلال). كانت سمعته معصومة من الشوائب، محبًا لعروبته، واقعيًا ولا يؤمن بالأوهام فيما يخص الوقائع السياسية؛ كان على علم تام بمن يملك القوّة في العالم، فيبتعد عن معاداته. حاول أن يلجم تحركات القوميين المتعصّبين، ولكنه كان يطلق عنانهم عندما تخرج أمور البريطانيين في العراق من يده.

تميّز بالحكمة وتصرّف كأبٍ حاني على الجميع. عمل مع لورنس العرب في الأيام الأولى من الثورة العربية ضد الأتراك العثمانيين. وأما كيرترود بيل، الدبلوماسية البريطانية وصانعة الملوك التي ساعدت على خلق وتشكيل المملكة العراقية، فكانت له علاقة حميمة ورومانسية معها. وهي شخصية استعمارية من الدرجة الأولى، خدمت ملكها وبلدها بكلّ تفانٍ وبدرجة مثيرة للإعجاب، ووجّهت شراع دولة العراق بالاتّجاه المناسب لبريطانيا. أنتجت شركة الـ IPC أثناء حياتها النفط وباعته من دون أي إعاقة. وبسبب الكرم البريطاني، كان العراق يحصل على خمسين سنتًا من كلّ برميل من نفطه.

كانت امرأة متحكّمة وذات عزيمة، أبعدت عنها الكثير من الناس من ضمنهم دبلوماسيي السفارة البريطانية. ووضعت أعمالها الأساس لكثير من الأمور السلبية في الحكم، مثل السخط والمعارضة وعدم الاستقرار السياسي في البلد. كان تأثيرها على الملك من العمق، ما جعل المعارضة تعتبره دُمية في يدها. من جهته، كان الملك فيصل رجلًا بدويًا على درجة عالية من الثقافة ويتقن الإنكليزية والفرنسية، واللغة العربية القرآنية بطبيعة الحال.



كان على علم تام بمحنة الشعب الأرمني ومعاناته على أيدي الأتراك، العدو المشترك للأرمن والعرب. وقاتل أبوه، الشريف حسين بن علي، إلى جانب البريطانيين الدولة العثمانية هادفًا أن ينال العرب عمومًا الاستقلال المنشود. كان «السلطان الأحمر»، عبد الحميد الثاني، قد نفاه إلى اسطنبول وأبقاه فيها لزمن طويل.

سنة ١٩٠٥، قام الأرمن بوضع متفجرات على طريق مرور موكب السلطان الأحمر لاغتياله، وأعجبت العملية الشريف حسين فتعاطف مع القضية الأرمنية، واعتبر الأرمن رفاقًا في السلاح. وإبان المجازر وعمليات التهجير القسري نحو أرض العرب، وجّه أنظار العرب إلى هذه المأساة وطلب منهم مساعدة وإيواء المهجّرين ومعاملتهم بود وإحسان «وأن يحافظوا عليهم كما يحافظون على أنفسهم وأموالهم وأبنائهم»، ولا تزال تلك الرسالة معلّقة في كنيسة الأرمن في بغداد.

كان لأبنه الملك فيصل الأول المشاعر نفسها تجاه الأرمن: فقد أولاهم ثقته التامة، إذ كان سائق سيارته الشخصية أرمنيًا، ومصلّح سيارته أرمنيًا ومجموعة من التقنيين الآخرين في خدمته كانوا من الأرمن. كتب الدكتور سندرسن، طبيب الملك الخاص ومؤسّس كلّيتي، الكلية الطبية الملكية في بغداد، في مذكّراته: « قرّر جلالته أن يبات ليلته في مزرعة تابعة لعائلة أرمنية في الفلوجة وأن يحضر مائدة غداء أقيمت على شرفه، بدلًا من أن يقضي ليلته في دار حاكم المدينة، فخاب ظنّ الأخير».

جاءت وفاة الملك فيصل في ١٩٣٣ في غير صالح البريطانيين، فقد خسروا شريكًا لهم، ولو لم يكن حليفًا دائمًا. إنشغلوا بوريث العرش، الملك غازي، لكونه مقرّبًا من النازيين وعربيًا شوفينيًا يكره الأكراد والأشوريين والبريطانيين الذين شكّلوا تحديًا لسلطاته عن طريق افتعال المشاكل والتهديدات. كانت تنقصه المرونة والبرغماتية اللتان تعتبران من المتطلّبات المهمة في الحكم والسياسة. أحاط نفسه بضباط من الجيش يشاطرونه طريقة تفكيره، وملأوا رأسه بدعاية مضادة لليهود والبريطانيين.

أنذرت تلك التوجّهات بالكوارث على البلد والبريطانيين. فالموالون للألمان وللعرب ذوي التوجّهات القومية ينالون الحظوة تحت اسم تخليص العراق من بريطانيا الإمبريالية، فيما نجم هتلر بدأ بالصعود على مسرح الأحداث واليهود يتدفقون على فلسطين. كان الفكر العربي السائد في تلك الأيام يقول صراحة: «إنهم يضعون الأرض العربية في قبضتهم، يجب أن نعمل شيئًا لإيقافهم».

سنة ١٩٣٩ قُتل الملك غازي بحادثة اصطدام سيارته. أثبتت التصريحات الرسمية أنها حادثة عادية بسبب فشل الكوابح أو ما شابه، غير أن القوميين كانوا مقتنعين «أنها عملية قتل، قام البريطانيون بقتله!» لأنه كان وطنيًا متعصّبًا ومتحمّسًا، ومتعاطفًا مع النازيين.

ورث ابنه الطفل، فيصل الثاني، عرش العراق، وبما أنه لم يكن قد بلغ السن القانونية بعد، نُصب خاله الأمير عبد الإله الموالي للإنكليز وصيًا على العرش. وهكذا، دفعت الأوضاع المتجددة الوصي إلى الأمام مع محيطه الذي يترأسه نوري السعيد، فارتاحت بريطانيا لتوجهات الحكم الجديد.

ليس معلومًا ما إذا كان الملك غازي سيسمح بهجرة يهود العراق إلى إسرائيل، ولكن الفريق الجديد لم يمانع ذلك، بل أتاح السبل اللازمة لهجرتهم. وقد عرضت قناة الجزيرة برنامجًا وثائقيًا بعنوان «اليهود العرب»، أكّد فيه العديد من المواطنين الإسرائيليين أن الحكومة العراقية أجبرتهم على الرحيل وسفّرَتْهم إلى إسرائيل وأنهم لم يرغبوا في ترك العراق.

بعملهم هذا حافظوا على تقليدٍ للعائلة الهاشمية في تسهيل الهجرة اليهودية؛ كان ملك الأردن عبد الله على غرار عدد من العائلات الفلسطينية المعروفة والمتنفذة، موافقًا على فكرة إنشاء مستوطنات يهودية في فلسطين. وبسبب ذلك، طالت العائلة المالكة العراقية تهمة الخيانة. وحسب التقاليد العربية المتبعة، كان على «الضباط الأحرار» معاقبة الهاشميين ومسح هذا العار.



على الرغم من ميل الملك غازي نحو ألمانيا، حافظ البريطانيون على الأمور تحت سيطرتهم وأحكموا قبضتهم على بابا كركر؛ واستمرت شركة IPC في ضخ النفط من كركوك من دون أي عوائق عبر خطوط أنابيب «K» وبعدها «T» نحو طرابلس في لبنان، وعبر خطوط أنابيب «H» إلى حيفا والبحر الأبيض المتوسط.

أعطى موت الملك غازي دفعًا للحركة الوطنية التي تعهدت بالاستمرار على خططه لتخليص العراق من الهيمنة البريطانية. بعد سنتين على رحيل الملك غازي، وكانت الحرب العالمية الثانية في أوجها، تألفت حكومة «وطنية» برئاسة رشيد علي الكيلاني وأدارتْ وجهها نحو هتلر وطلبت العون من النازيين.

تحت أنظار هذا الرجل ارتكِبت على الأقل مذبحة واحدة ضد الجالية اليهودية في بغداد والبصرة. نهب الغوغائيون دكاكينهم ودورهم بعد أن بثّوا الرعب في الجميع. وعلى رغم أنه لم يلحق بالسكان المسيحيين أذى كبير، عاش غير المسلمين في خوف وفزع. بعد كلّ مذبحة ضد اليهود، كان المسيحيون يبقون في دورهم ويغلقون محلاتهم التجارية. لم يكن بإمكانهم الابتعاد عن الحياة اليومية لمدة طويلة خشية اتهامهم بالتآمر، وكانت هذه مشكلة بحد ذاتها.

لم يدم الانقلاب الذي سُمّي على اسم رئيس الوزراء إلا أيامًا معدودة، إذ أعادت القوّات الموالية للبريطانيين سيطرتها على العراق. وبقيت حقول النفط سالمة مرة أخرى في أيدي الغرب، إلا في كركوك التي استمر وضعها مضطربًا.

كانت جايخانة (مقهى) أحمد آغا، الواقعة على زاوية مدخل قورية بازاري، وهو سوق شعبي لبضائع مختلفة، حلبة للجواسيس والشرطة السرّية. أشبه بمغارة مجوّفة، كانت نوافذ المقهى زجاجية مزخرفة عالية، مع ألف كرسي وكرسي، ومليئة بالدواوين الخشبية والسماورات العملاقة وعشرات أباريق الشاي ودلّات القهوة التي تحضر القهوة العربية المركّزة والمُرّة.

غطّت الجدران صور متنوعة لمساجد مختلفة وأخرى لمدينة مكة، وصور لملوك العالم وشاهات بلاد فارس مجتمعة مع صور لدور الدعارة وعاهرات جميلات من

شانغهاي تطل على الجالسين الذين انتابهم الكسل والخمول وهم يدخنون النرجيلة، أو يلعبون الطاولة والدومينو. كانت آلة الفونوغراف، ذات العلامة المميزة لصورة الكلب والبوق «His Master's Voice»، تصدح منها أم كلثوم والأغاني التركية القديمة حسب طلب الحضور.

كان المقهى علامة مميزة ومكانًا للقاءات، يقف أمامه عدد من سيارات الأجرة التي تنقل المسافرين إلى محطة القطار على مسافة خمسة أميال. لأفراد الشرطة السرية وعملاء الـ IPC المقاعد الأمامية لتفحّص وجوه المارة الواصلين من بغداد بالقطار. كانوا يبلغون عن المشكوك فيهم والعناصر الفوضوية من الشيوعيين وغير المرغوب بهم إلى القيادة. وكثيرًا ما ألقوا القبض على من اشتبهوا فيهم وفتشوا أجسامهم وملابسهم وحاجياتهم عن رسائل مخفية ينقلونها إلى المتعاونين معهم في البلد. كانت مهمّة هؤلاء المحافظة على بابا كركر بأي ثمن.

إستعمل التركمان في كركوك المقهى كنادٍ يلتقون فيه للتداول بأحلام الطورانية في توحيد الشعوب الناطقة بالتركية. رجعت هذه الأحلام إلى الحياة بعد تفكّك الاتّحاد السوفياتي.

قاد تحالف تركيا مع ألمانيا النازية الكثير من تركمان كركوك إلى الهوى النازي! شاع بين الناس أن أحمد آغا نفسه كان نازيًا لأن الطيارين الألمان والإيطاليين الذي هبطوا في كركوك مدة يومين أو ثلاثة سنة ١٩٤١ سألوا عنه، وغدا المقهى مركز قيادة لهم طوال فترة بقائهم هناك، أي مدة ثلاث وسبعين ساعة أو نحوها. وبعد فشل مؤامرة ألمانيا وهروب رشيد علي الكيلاني، رئيس الوزراء الموالي لألمانيا النازية، من البلاد، نفى البريطانيون أحمد آغا لبعض الزمن.

أذكر أنه في أحد الأيام، وبعد هبوط الليل بقليل، طرق ضباط إيطاليون بصحبة الشرطة المحلية، باب دارنا يبحثون عمن يستطيع أن يترجم الألمانية. أرسل أبي بطلب جارنا صنكُر فارتان، صاحب مخزن مكائن Singer للخياطة، التي كانت



زوجته لويزا إيطالية. تكلّموا معها لعدة دقائق وغادروا الحي، ولم نرهم بعد ذلك. ولا أعرف إلى اليوم فحوى المحادثة في تلك الليلة، أو لماذا جاء هؤلاء إلى دارنا، ومن أرسلهم إلى أبي، في أول الأمر. وبعد عقود على تلك الحادثة، صادفتُ ابن فارتان، صديقي بول في مانهاتن، فأكّد لي حصول تلك الأمور ولكنه لم يستطع معرفة سرّ زيارة الضباط الإيطاليين. كنا صغيرين آنذاك.

كان الوطنيون العرب موالين للنازية، ليس لأنهم منتمون إليها، بل لأن هتلر كان معاديًا لليهود والحركة الصهيونية؛ فأضحى عدو عدوهم صديقهم. ونالت بريطانيا عداء العرب من خلال إطلاقها وعد بلفور ودعمها الاستيطان اليهودي في فلسطين، فضلًا عن استمرار سياستها الاستعمارية في العراق. كانت هزيمة بريطانيا تعني إعادة الحقوق العربية الشرعية.

إعتبر العرب اليهود الأوروبيين «جسمًا غريبًا» مشابهًا للسرطان، ابتُلي به مجتمعهم وهدّد وجودهم. لم يكن للعرب أي مشكلة مع اليهود العراقيين أو السوريين أو اليمنيين، لأنهم كانوا من «أهل الذمة» وجزءًا من العالم العربي الإسلامي. كان صراعهم مع الصهيونية وليس مع اليهود.

نظر العرب إلى إنجازات هتلر بكلّ فخر وسرور. ولم يدروا، حالهم حال العالم، عن Crystal Nacht, Auschwitz, Dachau و Triblenka. وحتى لو عرفوا عن الحقائق المخفية خلف هذه الأسماء، فمن المشكوك فيه أن إعجابهم بهتلر كان سينتهي أو يقل، فمرارتهم كانت كبيرة! غذّت برلين هذه السلبيات من خلال الحرب الدعائية ضد هيئة الإذاعة البريطانية لتفوز بقلوب العرب وأفكارهم. كان العراقي العربي النازي يونس بحري يذيع بحماسة منقطعة النظير الدعاية النازية المضادة والمعلومات المضللة للعرب من إذاعة برلين. وهرب من بغداد بعد سقوط حكومة رشيد علي الكيلاني الموالية للنازية إلى العاصمة الألمانية.

كانت تعليقاته فريدة من نوعها! كان عالمًا بنفسية العربي، وخاصة العراقي، ولغته سليمة وسلسة وتخرج بكلّ طلاقة نحو أذن المستمع، وقد صيغَت وصُمِّمت لتقوّي الشعور القومي والوطني عند العرب، في الوقت الذي تُبرز شرور النفوذ البريطاني في المنطقة. لم يكن بحاجة لأن يستفيض بالكلام الزائد لإقناع مواطنيه عن أخطار ذلك «السرطان النامي»، المستوطنات اليهودية في فلسطين، فلقوّة خطابته القدرة على أن تستحث الجيوش وتقودها نحو المعركة.



## الفصل العاشر

# بزوغ الفجر الكردي

بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ بقيادة الزعيم قاسم، أعطى الأخير البارزانيين «العفو» وسمح بعودتهم من الاتّحاد السوفياتي. عند وصولهم إلى مطار بغداد عن طريق تشيكوسلوفاكيا، استُقْبل الملا مصطفى البارزاني وموكبه المرافق له بكلّ حفاوة وابتهاج وبالأحضان مع كميات كبيرة من الوعود.

أعطى الزعيم قاسم الملا مصطفى الدعم المعنوي الكامل وراتبًا شهريًا مع بعضٍ من الأسلحة الخفيفة ووعودًا بإجراء إصلاحات في كردستان وتقاسم السلطة بصورة متكافئة واحتمال قيام حكم ذاتي، معتبرًا أن «هذا البلد هو للأكراد والعرب». ولكن بعد أسابيع قليلة انحلَّت الصفقة وتلاشت. لم تتجسّد الوعود على أرض الواقع فواجهت الحكومة المركزية تمرّدًا كرديًا مسلّحًا جديدًا.

أوفد قاسم بابا علي شيخ محمود (ابن شيخ محمود حفيد زادة، مهندس الجمهورية الكردية في السليمانية التي قضى عليها البريطانيون سنة ١٩١٩)، أحد وزرائه لإجراء المشاورات مع الملا مصطفى. إصطحب بابا علي معه صديقه وشريكه في شركة أدوية بفايزر Pfizer وأحد وجهاء الأرمن، نيكوغوس ألكساندريان لمقابلة البارزاني في عرينه الجبلي. وفشلت الوساطة على الرغم من الجهود الجبارة التي بذلوها؛ فقد طالب الملا مصطفى بأكثر مما كان قاسم عازمًا على إعطائه. وقفت بابا كركر حجر عثرة في طريق المفاوضات.

إستؤنف الصراع من أجل كردستان ثانية! إستنفر الأكراد قواهم للتغلّب على المعوقات الضخمة التي خلقتها لهم حكومات المنطقة والقوى العظمى، كلّ واحدة منها لأسبابها الخاصة. فإنشاء دولة كردستان كان يعني:

١ - للعراق، فقدان السيادة على جزء كبير من أراضيه يتضمن حقول نفط بابا كركر في كركوك، وعين زالة في الموصل، وهما مصدران مهمّان من مصادر الدخل القومي للعراق.

٢ - لتركيا وإيران، التأثيرات السلبية المتوقعة على الجموع الكردية فيهما. كانت إيران معنية بصورةٍ خاصة بعد أن فقدت السيادة على منطقة مهاباد حين أسس القاضي محمد جمهورية مهاباد الكردية سنة ١٩٤٥.

كان الوضع في تركيا أكثر تعقيدًا. فبخلاف العراق وإيران لم تعترف تركيا بأكرادها كجالية أو أقلية، ولم تفعل ذلك معاهدة لوزان أيضًا. بعد تأسيس جمهورية تركيا في ١٩٢١ سلبَ أتاتورك الأكراد هويتهم القومية ودعاهم «أتراك الجبل». وعلى الرغم من ذلك، تجاوز عدد الأكراد في تركيا الإثني عشر مليونًا. ولا يرى الكردي نفسه إلا كرديًا. فالأكراد يؤلّفون قومية خاصة بهم، عاشوا في جنوب شرق تركيا منذ ٤٠٠٠ سنة. لهم كلّ الحق في الحصول على حقوقهم السياسية والمدنية من ضمنها الحكم الذاتي وهي مسألة تستحق النضال من أجلها. خسر الأكراد والأرمن في معاهدة لوزان كلّ ما جنوه من معاهدة سيفر. فقد اعتبرت الأولى الأرمن واليونانيين الذين كانوا يعيشون في تركيا في حينها أقليتين معترف بهما، بينما أنكرت تلك الصفة عن الأكراد. كلّفت نتائج هذا الإنكار الأكراد كثيرًا، فقد خسروا حماية لوزان عليهم.

حاول أتاتورك أن يمحو الهوية الشخصية الكردية من خلال القوانين التي سنّها. سنبحث هذا الموضوع في الفصول القادمة.

لم يثق البريطانيون بالأكراد مطلقًا ولم يرغبوا في أن يسيطروا على بابا كركر لأسباب واضحة للعيان: أولًا، كانوا يريدون الاحتفاظ بآبار النفط لهم. ثانيًا، لكون المجتمع الكردي مجتمعًا قبليًا، والنزاع المسلّح والمنافسة بين القبائل يؤديان إلى عدم



الاستقرار في المنطقة ويشكّلان ضررًا على صناعة النفط الضخمة. وقد أدى فشل الأكراد في الاتّحاد فيما بينهم إلى حرمانهم من الاستفادة من معاهدة سيفر في ١٩٢٠ التي وفّرت لهم السيادة «... إذا هم رغبوا فيها».

لم يتمكن الأكراد من توحيد جهودهم فدُفِنت قضيتهم في ترتيبات اتفاقية سايكس-بيكو بعد الحرب.

أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها مباشرة، كانت منطقة الشرق الأوسط، كما هي الآن، في حال اضطراب عنيف: فقد قسّمَ مارك سايكس وفرنسوا جورج بيكو الإمبراطورية العثمانية بما يخدم مصالح بريطانيا وفرنسا. فقد خلقت مجموعة من النزاعات والعداء. شوّشت الاتفاقية الموزاييك العربي السياسي والجغرافي. بُتِرَت مدينة بيروت عن سوريا، وضُمَّت إلى لبنان. إستُقطِعت منطقة الإسكندرون من سوريا واستولت عليها تركيا. فُصِل شرق الأردن من فلسطين، وأُعطيت الموصل إلى العراق على رغم احتجاجات تركيا وتركمان كركوك. لم تكن كردستان ولاية، فقُسِّمَت إلى أربعة أقسام بين تركيا والعراق وسوريا وإيران. خلق هذا التقسيم مشاكل طويلة الأمد لا تزال قائمة إلى اليوم.

كان للأرمن وضع أكثر تعقيدًا. كانت أرمينيا الغربية المؤلّفة من ولايات الأناضول الستة، كارس، آرداهان، فان، موش، بيتليس وأرضروم تحت حكم تركيا وخالية من الوجود الأرمني، بنتيجة الإبادة الجماعية. فيما أصبحت أرمينيا الشرقية واحدة من الجمهوريات الستة عشر التابعة للاتحاد السوفياتي. أما الأرمن في الشتات، أي جيل ما بعد جريمة الإبادة الجماعية، فقد حوّلوا ولاءاتهم إلى الدول المضيفة التي استقبلتهم بعد المذابح.

لم يكن للأرمن في العراق أي نفوذ سياسي كمجموعة؛ أما على الصعيد الفردي فقد لعب بعضهم أدوارًا مهمّة في التأثير على بعض الأحداث في العراق: عمل عددٌ منهم مع السيد تشابهان لتحقيق المصالح البريطانية. آخرون تعاطفوا مع السوفيات وعبدوا ستالين. في الوقت نفسه، كان هناك من يتعاطف مع النازيين لأن هتلر

صنّف الأرمن من الآريين أو الهند-أوروبيين، فأضحوا جنسًا متسيّدًا عكس اليهود وغيرهم. قام القائد الأرمني، الجنرال درو، بتشكيل كتيبة أرمنية للقتال إلى جانب هتلر في القوقاز، فاتهمه الشيوعيون واليساريون بشنّ حرب على الوطن. سانده أرمن آخرون لاعتبارهم أن «على المرء أن لا يضع كلّ البيض في سلّة واحدة»، وأن فعلته نوع من وثيقة تأمين في حال انتصار هتلر في الحرب. «صحيح أننا نساند الحلفاء، ولكن ماذا سيحدث لو خسروا الحرب؟ على الأقل وقوفنا مع درو يعطينا الأمان مع هتلر».



## الفصل الحادي عشر

# المنحى الغربي

خلال مطالعاتي، رماني فضولي خارج الفضاء العربي؛ فإضافة إلى أعداد «الأخبار» و «آخر ساعة» و «المصوّر» و«روز اليوسف» وغيرها من المطبوعات الأسبوعية المصرية، كنتُ أطالع النسخة العربية، من «المختار»، مجلة «ريدرز دايجست» الأميركية. في ذلك الوقت، كانت المجلة الشهرية المصرية، «كتابي»، تنافس «ريدرز دايجست» إذ كانت تزيّن صفحاتها مؤلّفات فولتير، شكسبير، برتراند راسل، آن ماري سيلينكو، هيمينكواي، برنارد شو، الأخوات برونتي، خليل جبران، ومليونًا آخرين من الكُتّاب.

قرأتُ لدانتي، ثاييس، مدام بوفاري، الكوميديا الإلهية، ديزيريه، البؤساء، النبي، قصة مدينتين، والكثير من الأعمال المشابهة باللغة العربية. وعندما بدأتُ تعلّم الإنكليزية، قراءة وفهمًا، في سنّ ١٤ أو١٥ بدأتُ في قراءة مجلات Look و Life و Time. وكانت جرائد Daily Telegraph و The Guardian و The London Times و Observer متوفرة أحيانًا فأطلع عليها. بطبيعة الحال لم أفهم كلّ ما قرأته في هذه المطبوعات، ولكن القاموس كان يُعينُني على فهم ما أقرأ. تعرَّفتُ أيضًا على شارع فليت ولورد بيفربروك وتشرتشل، فاتخذت قراري أن حزب المحافظين يعجبني أكثر من حزب العمّال.

لا أعتقد أنني تركت رسالة واحدة في مجلتَي لوك أو لايف لم أقرأها. كانت الإعلانات المادة المفضلة لدي: كلب صغير يعض من طرف سروال بنت صغيرة

على الشاطئ كاشفًا عن نابه، كإعلان لـ Coppertone وآخر لـ Nash و Hudson ولـسيارات Jeep Willis، أو إعلان لسيارة ستيشن واكن أميركية تصوّر الرخاء الذي يعيشه الأميركان في الوقت الذي كنا نحن محرومين منه. كانت هناك إعلانات مختلفة تصوّر ربة بيت ترتدي المئزر أو الصدرية وتشع الابتسامة على وجهها، في الوقت الذي لم تمس يداها أي عمل منزلي وهي تقف عند آلة غسل الملابس وجنبها آلة أخرى تعمل باليد لعصر الملابس المغسولة. كانت هناك إعلانات أخرى تدعو المصطافين لقضاء أوقاتهم في فلوريدا وكاليفورنيا وصيد سمك السلمون أو حتى ممارسة التزحلق على سفوح جبالها. كنتُ أقول، آه، كم هي جميلة تلك الحياة! أميركا! كم أتمنى لو استطعتُ الوصول إليها!

ولكن، كيف أستطيع الوصول إليها؟ أمي لم تكن تسمح لي بالسفر حتى إلى بغداد. كان مصيري في تلك المزبلة؛ لن تدعني أمي أن أخرج من كركوك! شعرتُ بأنني مسجون بفظاعة! لن تتركني أبدًا أن أغادرها!

إذا كانت المادة المطبوعة أعطتني نظرة مرئية للعالم الخارجي، فقد أصبح الراديو أنيسي ورفيقي وصديقي الذي يكلّمني طوال رفقته لي؛ أضحت أُذناي كأنها ملتصقة بالصمغ إليه لسماع أخبار أوروبا والحرب. بنى الراديو، وشكّل في الوقت نفسه، أفكاري وآرائي، وأعطى خيالي دفعًا إلى الأمام. كنتُ أرى من خلال الراديو الغارات على لندن وزيارة الملك جورج والملكة للأماكن المنكوبة، وكالة إطفاء الحرائق وتشرتشل، وأحداث أُخر. عرفتُ من خلاله الجنرال آيزنهاور، مونتغومري، باتن، روميل، كودريان، كورينك، وهتلر بطبيعة الحال. عرفتُ عن العلمين ودانكرك ويوم النصر. عرفتُ عن لقاءات طهران والقاهرة وأخيرًا يالطا.

أُدين بخبرتي هذه إلى جهاز راديو ماركة فيليبس يعمل بمصباح أو لمبة. لم يتمّ اختراع الترانزسترات بعد، ولم يكن وجود لصوت أميركا أو راديو ليبرتي أو راديو أوروبا الحرّة، وحتى إذا كانت موجودة، فلم أدرِ بها. كنتُ أستمع إلى هيئة الإذاعة البريطانية BBC على الموجة القصيرة ٢٥ مترًا أو ٣١ مترًا.



كانت الإذاعة تبدأ بـ«هنا لندن» وتتبعها نغمة مجلجلة وستُّ صفارات متقطّعة تقود إلى صوت متسلّط يعلن:

«BBC World Service. Here is the news read by....» وتبقى تلك النغمة من دون تغيير إلى اليوم الرابط الصوتي المباشر إلى ماضيّ، أيام سنوات الحداثة. ولا زلت أشعر بالإثارة لعدة مرّات في اليوم عندما استمع إلى BBC World Service. وفي كلّ مرة أجد نفسي مسافرًا عبر الزمن حيث أجد نفسي جالسًا أمام ذلك الصندوق السحري يغطيه منديل من حياكة أمي.«BBC London»، كلمات دائمة الحضور والوجود، مثيرة وكلّها ثقة!

كنت أستمع أحيانًا إلى الأغاني وموسيقى رقصة الفوكستروت وموسيقى النوادي، و«طلبات المستمعين» وتشكيلة من البرامج الغنية بالمعلومات والدعاية على راديو القوّات المسلّحة البريطانية من قبرص. يا لها من متعة! كنت أعتبر أن بريطانيا هي الكلّ في الكلّ وأن تشرتشل هو بطلي بالتأكيد. بكيتُ عندما خسر الانتخابات سنة ١٩٤٦ أمام كليمنت آتلي العمّالي.

شاهدت تشييعه على التلفزيون عام ١٩٦٣ حيث كان القطار الحامل نعشه يعبر المحطة تلو الأخرى مصاحبًا تعليق ريتشارد ديمبلبي. كنتُ في أدنبره حينها أقضي مدة دراستي عن طريق زمالة دراسية من شركة IPC أخذني الحدث إلى أيام حداثتي بصحبة جهاز الراديو من صنع فيليبس.

الفصل الثاني عشر

# إختمار الانقلابات

كانت صورة الواقع العراقي كالآتي: معقّدة، مشوّشة، مزعزعة وغير مستقرّة، ومتوقّعة النتائج. كانت القوّات المسلّحة التي ذاقت الهزيمة في فلسطين تنظّم انقلابًا لاسترجاع الشرف العسكري الضائع، وتغيير النظام الملكي والعمل على تحقيق حلم الوحدة العربية.

لم يكن هذا عملًا سهلًا للضباط الأحرار في العراق! ففي حين كانت الثورة في القاهرة بيضاء ولم تسفك الدماء فيها وحازت على الدعم المبدئي من الغرب، لم تنل بقية الدول العربية الدعم نفسه. وفشلت الثورة المصرية في أن تصبح نموذجًا للضباط العراقيين. وبينما فضّلَ الغرب التخلّص من العاهل المصري، الملك فاروق، وقفت بريطانيا بصلابة خلف صنيعتها، النظام الملكي العراقي الحاكم. ولم يكن سبب الدعم مودّة من الإنكليز للملكية العليلة، بل لأن هذه الأخيرة كانت قد ضمنت الوجود البريطاني في العراق، وسيطرتها على بابا كركر. وعلى الرغم من الصعوبات كافة، كانت حركة «الضباط الأحرار» في العراق تمشي قدمًا نحو تحقيق مآربها.

كان يقاسمهم هدفهم الأكراد والبعثيون والقوميون العرب والمهمشون من كلّ لون وظلال. عملت كلّ مجموعة بصورة منفصلة عن الأخرى لتحقيق أهدافها وجاهدت في ذلك بكلّ صلابة. كان الأكراد يهدفون للحصول على نوع من الحكم الذاتي واسترجاع ما حصلوا عليه من معاهدة سيفر في الماضي. كانوا يراهنون على العجلة السوفياتية لتنقلهم إلى تحقيق مساعيهم، فتعاونوا معها. لهذا السبب أصبحوا

في عين الحكومة والضباط الأحرار شيوعيين، وبالنتيجة غير جديرين بالثقة، فاستُبعدوا من خطط الانقلاب. وفي ضوء هذا، لم يعطِ القائمون على الانقلاب الضباطَ الأكرادَ معلوماتٍ صحيحة عن خططهم.

كانت معارضة الضباط الأحرار للشيوعيين بسبب عقيدتهم الشيوعية، أولًا، وولائهم للاتحاد السوفياتي، ثانيًا، إذ كانت الدولة السوفياتية قد ساندت في الأمم المتحدة إنشاء إسرائيل. ولهذا اعتبروا أن الشيوعية والصهيونية ولدتا من رحم واحد.

إضافة إلى هذين السببين، ثمة أسباب عقائدية ساهمت في استثنائهم من الحركة. فالشيوعيون غير جديرين بالثقة لكونهم ملحدين، كفّارًا بنظر المسلمين. ولم يرغب الانقلابيون في تبديل الثعلب الإنكليزي بالدب الروسي لأن الضباط الأحرار كانوا يعتبرون النوايا السوفياتية وخططها الجيوسياسية في العراق والشرق الأوسط استعمارية. فقد أخذوا في حسابهم ما قام به الاتحاد السوفياتي من اضطهاد المسلمين في المراكز الإسلامية الكبيرة في طشقند وسمرقند وجمهوريات آسيا الوسطى في الدولة السوفياتية.

كان أسلوب عمل الشيوعيين العراقيين مشابهًا لعمل الشيوعيين في أماكن أخرى: إعمل على تغطية هويتك، تعاون مع أي جماعة منشقة لتغيير النظام، ثم اختطف «الثورة» من أيديهم. وهذا ما حصل فعلًا بعد عشر سنوات من قيام الضباط الأحرار في تغيير النظام العراقي. ففي ١٤ تموز سنة ١٩٥٨، أي بعد ست سنوات من الثورة المصرية الملهمة لهم، قاد ضابطان من الجيش، العقيد عبد السلام عارف والزعيم عبد الكريم قاسم، انقلابًا دمويًا في العراق.

كانا نكرتين وغير معروفين من أي جهة. ظن الجميع أن جمال عبد الناصر هو منظّم الانقلاب؛ ولكن في خلال اليومين الأولين أصبح واضحًا أن جمال كان بعيدًا عن الأمر. في الوقت نفسه شارك الشيوعيون والأكراد في الركض خلف مخططاتهم ودوافعهم الفردية لتحقيقها.



قاد القائدان الثورة لتحقيق أهداف شيطانية لم تكن مقرّرة. لا يزال غامضًا إن كان قد أفصح أحدهما للآخر عن الاختلافات في وجهة نظريهما تجاه الخطط المستقبلية، ولكن ظهر إلى العيان، وبعد أيام قليلة من الانقلاب، وجود نزاعات حادة بينهما، خاصة حول موضوع رئيسي ذي تداعيات وإشكاليات دولية ألا وهو مسألة الوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة.

كان عارف متقلّب المزاج، ولا وزن سياسيًا له، وعربيًا مسلمًا ملتزمًا وتابعًا مخلصًا لعبد الناصر، «الأخ الكبير»، ومؤيدًا بقوّة للانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة. كان يريد الوحدة الفورية لكن الرئيس المصري الذي قَبِل العرض استمهله، وأبلغه ذلك بوضوح حين زار سوريا بعد أربعة أيام من الانقلاب. كان عارف يعتقد أنه بقيامه بالانقلاب قد أتمّ مهمته، وأنه بات عليه تسليم العراق إلى عبد الناصر على طبق من فضة. لم يكن قاسم المعارض الوحيد، بل أيضًا الولايات المتحدة والغرب، إذ إن ضم العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة يعني تسليم بابا كركر إلى جمال عبد الناصر مع ما يمكن أن ينجم عنه.

في المقابل، كان الزعيم عبد الكريم قاسم عراقيًا وطنيًا مؤمنًا بضرورة بناء عراق قوي، وغير متحمّس لوحدة لا مع الجمهورية العربية المتحدة، أو مع أي دولة عربية أخرى. هذا الثنائي وبخاصة قاسم، حيّر العراقيين. فقد شارك في دورات تدريبية عسكرية في بريطانيا وكان بريطاني الهوى، ومن أكثر الجنرالات الموثوق بهم من القصر ونوري السعيد.

كان السير نوري السعيد رئيس الوزراء شبه الدائم في البلد، ومن أكثر السياسيين العراقيين المجربين ولاعبًا رئيسيًا على المسرح الدولي، ومهندس حلف بغداد الذي أصبح حلف السنتو CENTO فيما بعد، وأحد حاشية الملك فيصل عند دخوله العراق ليُنصّب ملكًا عليه. سانده البريطانيون، وعارضوه، خافوا منه وطلبوا نصيحته واستمعوا إليها، وعندما حان الوقت أعطوه لقب «سير Sir». كان القصر يحترمه ويخاف منه ويحبه ويكرهه كحال عامة الناس، أما مهاراته السياسية فلم يقلل من شأنها أحد. فكيف يمكن لضابطٍ في الجيش مثل قاسم، بخلفيته

وإمكانياته المعروفة، أن يقود ثورة ضد أسياده؟ سؤال وجيه في تلك الأيام، والجواب عنه واضح، حسب النظريات التآمرية: مملكة غير مستقرّة والخوف من فقدان السيطرة على بابا كركر.

بعد عقدٍ على هزيمة العرب في فلسطين، وجزئيًا بسببها، نما شعور بالعداء ضد الملكية. وأنذرت معطيات عديدة إلى قرب حدوث تغيير جذري في الوضع العام العراقي، في ظل اضطراب الأحزاب السياسية القوي، واستشراء الفساد في الإدارات الرسمية، وانجذاب الناس نحو نداءات عبد الناصر لتحقيق الوحدة العربية، وعدم الاستقرار الناتج عن التهديد السوفياتي في الشرق الأوسط، وضعف قبضة العائلة المالكة على البلد (خاصة في الشمال الكردي)، كلّها كانت مؤشّرات إلى التغيير المرتقب.

كان الشعب مقتنعًا بكلّ هذا! فيما تطور الأحداث أنذر البريطانيين، فأي فقدان للسيطرة الاستراتيجية على البلد وبابا كركر، بنتيجة إقصاء العائلة المالكة من قبل غير المرغوب فيهم؛ معناه سيطرة عبد الناصر على شريان حياة الغرب، النفط. ولمنع تحقيق هذا السيناريو، وجدوا أن العلاج يكمن في تنفيذ انقلاب استباقي، وأن الجنرال قاسم، رجل الثقة، بالنسبة إلى نوري السعيد، هو الأفضل للمهمة.

أصبح هذا التفسير مقبولًا عند الناس الذين يؤمنون بالمؤامرات. إقتنعوا أن الاختيار وقع على قاسم لأنه كان غير معروف وهادئ الطبع ولا يثير الشكوك من حوله، ووطنيًا استوعب المطلوب من الخطة وقدّر الموقف جيدًا والأخطار التي قد تصيب العراق إذا لم يتم إنقاذ الوضع.

لا أحد يعلم إن كانت الخطة طُبِخت في مطابخ الـ Whitehall (مقر الإدارة المركزية للحكومة البريطانية) ولكن من المعقول أن نعتقد أن البريطانيين عرفوا بحركة الضباط الأحرار في العراق، بسبب التوغّل العميق لمخابراتهم في البلد، وعلموا أنهم بانتظار اللحظة المناسبة لقلب نظام الحكم؛ فإذا لم يساندوها في الخفاء، فقد أشاحوا بنظرهم عنها.



في ١٤ تموز ١٩٥٨، تحرّكت وحداتٌ من الفرقة الثالثة وهي لواء المشاة ١٩ بقيادة العقيد عبد السلام عارف، تلاها لواء المشاة ٢٠ بإمرة الزعيم عبد الكريم قاسم، من بعقوبة نحو بغداد في طريقها إلى الأردن ثم لبنان حيث كانت الاضطرابات قد بدأت قبل نحو شهرين. وبدلًا من عبور بغداد عند الفجر، توقّف اللواء في بغداد لقلب النظام، إذ حاصرت مجموعة من الضباط القصر الملكي، فيما احتلت دبابة أو إثنتان محطة الإذاعة الرسمية، وفي خلال ساعات تمّت السيطرة المطلقة على العاصمة من دون أية مقاومة تُذكر عدا مقاومة بسيطة عند القصور الملكية.

قُتل جميع أفراد العائلة المالكة مع الملك الشاب فيصل الثاني. سَحل الغوغائيون جثة الأمير عبد الإله، ولي العهد، لمسافة أميالٍ عدة، وعند وصولها إلى ساحة الملك فيصل كانت الجثة قد تمزّقت. وتمّ تشويه ما بقي منها وقُطِعت إلى قطع صغيرة وعُلِّقَت على عمود كهرباء أمام وزارة الدفاع. أما جثة الملك فيصل الثاني فقد دُفِنت بهدوء في إحدى المقابر ولم يطلها التمثيل.

سَلِم نوري السعيد من هذه المجزرة في اليوم الأول للانقلاب، ولكن قُبِض عليه وقُتِل بعد وشاية شاب من العائلة التي كان يحتمي بدارها، فهرب منها وقُتل في الشارع. أراني أحد زملائي من الكلّية الطبية الملكية، وهو ابن أحد الوزراء، حذاء كان يلبسها نوري السعيد عندما قُتل، وقال إنه يحتفظ بها من أجل المال.

وقعت هذه الأحداث المأساوية بسبب عدد من «الأخطاء» اللوجستية الكبيرة عند تعبئة وتحريك القوّات المسلّحة منها:

أ- انتهاك صريح لقواعد تحرّك القوّات المسلحة والتي تُلزم بتوزيع العتاد بعد عبور العاصمة، بغداد، فقد تركت الوحدات العسكرية ثكناتها بمعية السلاح والعتاد.

ب- حرّكوا القطعات العسكرية بكامل أعدادها بدلًا من تقسيمها إلى وحدات صغيرة قليلة العدد تُرسل بين الحين والآخر.

بعد الإطاحة بالنظام القائم شكّل «الضباط الأحرار» الحكومة واستحوذوا على المناصب المهمّة لأنفسهم: أصبح قاسم القائد العام للقوّات المسلّحة مع الاحتفاظ بمناصب أخرى ذات أهمية. صار عارف نائبًا له مع منصب وزير الداخلية، وترأس رفعت الحاج سيري، مؤسّس حركة «الضباط الأحرار»، دائرة الاستخبارات العسكرية، وعُيِّن الزعيم الركن ناظم الطبقجلي قائدًا للفرقة الثانية في المدينة الاستراتيجية كركوك. وأخيرًا، وبعد عشر سنوات من «النكبة الكبرى» في فلسطين، انتقم الضباط الأحرار من جزء من الإهانة التي لحقت بالجيش فأصبحوا أقرب خطوة من تحرير فلسطين.

جاء النظام الجديد بالكثير من الاضطرابات والفوضى والمشاكل الجديدة التي تحتاج حلولًا فورية. طفا النزاع بين القائدين على السطح منذ الدقيقة الأولى للانقلاب، إذ أصبح واضحًا أن كلًّا منهما قد أخفى بخبث نياته الحقيقية عن الآخر أثناء مراحل التخطيط. والآن، وبعد أن وصلا إلى مراكز القوى ساد بينهما النزاع والمكر والتنافس والمؤامرات السياسية وفقدان الثقة. كانت نقاط الاختلاف الرئيسية بينهما الآتي:

آ- تشكيل مجلس لقيادة الثورة والذي كان عارف يطالب به ويعترض قاسم عليه.

ب- الانضمام الفوري إلى الجمهورية العربية المتحدة.

إتهم عارف وجماعته قاسمًا بنكث العهد على ما اتفقوا عليه قبل الانقلاب، واتهموه بأنه «يعمل على انحراف الثورة؛ وأنه لم ينوِ إطلاقًا منذ البداية الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة».

حسب رأي قاسم، كان تشكيل مجلس قيادة الثورة يعني تحويل الحكم إلى حكم جماعي للأعضاء المؤيّدين لفكرة الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة، وبذلك سيحققون الوحدة معها بعد تصويتهم على الأمر. وبما أنه عارض هذه



الوحدة، فقد عارض تشكيل المجلس. وبعمله هذا جمع كلّ السلطة بين يديه وأصبح يدعى بـ «الزعيم الأوحد» للعراق.

جاء الدعم لسياسته من أغلبية العرب في العراق وعموم الأكراد والحزب الشيوعي وبريطانيا والولايات المتحدة، وبطبيعة الحال، إسرائيل. إذ بعد نصف ساعة من تسلّمه الحكم، زاره السفير البريطاني في وزارة الدفاع وحصل على الضمانات المتعلّقة بمصالحهم النفطية. وفي اليوم التالي، زاره سفير الولايات المتحدة وهدّده بغزو العراق إذا انضم إلى الجمهورية العربية المتحدة. أعطى قاسم وعوده للسفيرين بعدم انقطاع تدفّق النفط إلى بلديهما وبالإبقاء على الأسعار نفسها. خرج السفيران من عنده راضيين بما سمعاه. ودعمته العناصر الإثنية ومكوّنات الطيف السياسي في العراق، لأن مواقفه سهّلت تحقيق طموحاتهم. وأخيرًا، أطلق الغرب تنهيدة ارتياح!

لم تكن الوحدة تعني تسليم بابا كركر إلى عبد الناصر فقط، بل سلب العراق كبرياءه وسيادته؛ والدليل على ذلك تجربة سوريا السلبية في زمن الوحدة. إستغل قاسم هذا الدعم إلى أقصى حد بمكافأة داعميه. فقد أعطى الشيوعيين الشرعية في العمل، ووعد الأكراد بتصحيح الأخطاء التي مارسها بحقهم النظام السابق. وكوّن هذان الفريقان قاعدة قوّته في البلد، ولكن في الواقع كانا سببًا في نهايته. في الوقت نفسه، دعم عارف القوميين والبعثيين والأحزاب السياسية التي رأت فيه العجلة المناسبة للتقدّم خطوة أخرى نحو تحقيق حلمهم في تكوين دولة عربية واحدة تمتد من المحيط إلى الخليج. نصحه عددٌ من هذه القوى أن لا يسرع في خطاه، ولكنه لم يستمع اليهم.

وهكذا، ومنذ الأيام الأولى للثورة، رُسمت خطوط القتال بين عارف وقاسم، وانقسم البلد بحدةٍ إلى قسمين، وهذا ما جعل الأحداث المقبلة حتمية.

الفصل الثالث عشر

# صباح ١٤ تموز ١٩٥٨

شهدتُ أحداث تلك الثورة منذ الساعات الأولى لاندلاعها. في الساعة السادسة من صباح يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ خرجتُ من شقتي السكنية لأذهب إلى وحدتي العسكرية في معسكر الرشيد. كان على الأطباء الخريجين أن يستلموا التوجيهات الجديدة قبل الالتحاق بأماكن تعيينهم كأطباء عسكريين، وكنتُ واحدًا منهم. سمعتُ صوتًا هادرًا من مذياع مقهى قريب وهو يذيع بحزم البيانات العسكرية الواحد تلو الآخر بِاسم لجنة الثورة. عرَّف نفسه بِاسم العقيد أحمد صالح العبدي بعد قراءة كلّ بيان. في تلك الساعة من كلّ يوم، كانت الإذاعة تفتتح بثها بآيات من القرآن الكريم، بخلاف ذلك اليوم.

صرح ذلك الصوت الحازم بكلّ ثقة بالبيانات الآتية:

- البيان رقم ١: «أُلغيت الملكية».
- البيان رقم ٢: «لقد ثُرنا بِاسمكم وأسّسنا الجمهورية العراقية».
- البيان رقم ٣: «تمّ إعفاء الضباط المدرجة أسماؤهم من واجباتهم في القوّات المسلّحة، وحلّ محلّهم الآتية أسماؤهم، مع الترفيع».

وتلت البيانات الواحد تلو الآخر تؤكّد على سلطات النظام الجديد.

كانت الموسيقى والأناشيد العسكرية تربط البيانات ببعضها، وخاصة النشيد الثوري المصري «الله أكبر فوق كيد المعتدي» الذي كان أهم نشيد ملهم للجماهير

والذي تمّ تأليفه حسب طلب جمال عبد الناصر ليخدم كنشيد ثوري للعرب أينما كانوا، تعبيرًا عن دعوة الجموع العربية والناشطين إلى تحقيق انتصار القضية العربية عبر القضاء على هيمنة الاستعمار الجديد والتخلّص من الحكام الفاسدين.

كان هذا النشيد يرعب معارضي عبد الناصر ومن يكرهونه ويمقتون قيادته للقضية العربية. وكانت النية من تأليفه المساهمة في الحرب النفسية والإعلامية التي كان يقودها.

كنتُ حائرًا ومرتبكًا ولم أدرِ ماذا يدور في البلد. أية ثورة هذه؟ سألتُ نفسي. من هو أحمد صالح العبدي؟ منَ الذي قاد الانقلاب العسكري؟ ما الذي حدث لكلّ مراكز الاستخبارات وجمع المعلومات مثل مديرية الأمن العام والمخابرات المركزية الأميركية والمخابرات البريطانية-أين كانوا؟ ألم يروا ما كان آتيًا؟ أين كانت استخبارات حلف السنتو؟ ماذا حصل لـ"الثعلب" السير نوري السعيد رئيس الوزراء؟ ماذا حصل للملك الذي كان سيطير إلى اسطنبول صباح ذلك اليوم لملاقاة خطيبته؛ وهل نجح في مسعاه؟

لم يكن بمقدوري تصديق ما أسمع! كنتُ مرتبكًا وقلقًا وخائفًا ولم أعلم ماذا أتوقع من أحداث. إنقلاب عسكري في العراق؟ أمر غير قابل للتصديق! كلا، لا يحدث هذا في العراق! ومن هم هؤلاء الناس الذين يجري التداول بأسمائهم؟ لم أسمع بهم من قبل. ولكن ما الفرق؟ ليس هناك نظام ملكي بعد اليوم؛ فقد أنشأوا جمهورية!

مشيتُ نحو ساحة الملك فيصل الثاني لأستكشف ما يحدث في الوقت الذي انطلقت هذه الأفكار وغيرها في مخيلتي مسرعة.

كان الهدوء يخيّم على الشارع المؤدّي إلى الساحة كأنما لا شيء يحدث على الإطلاق. وعلى بعد ٢٠٠ ياردة، كان الباعة المتجولون للأكلات الشعبية مصطفين على امتداد الجدار وهم يقدمون الفطور لعمّال العبخانة، أكبر محطة لتوليد الكهرباء في بغداد، التي تقع عبر الشارع ويخيّم عليها السكون.



كان العمّال يجلسون القرفصاء على الرصيف في جانب الجدار يأكلون الفطور العراقي المفضّل المكوّن من الباقلاء المسلوقة والخبز المنقوع في حساء اللحم حيث يتوِّج الطبق قطع البصل. كان الآخرون يمضغون ما قضموا من سندويشات الفلافل. ويسير الكلّ بهدوء نحو مكان عملهم الهادئ، لعلهم لم يستلموا التعليمات الجديدة بعد من نقابة العمّال اليسارية التي تضمهم.

نعم، كان الشارع هادئًا والحركة فيه عادية، والوضع العام ككل صباح، عندما كنتُ أسير مسافة نصف ميل لأستقل الحافلة إلى الكلّية الطبية، أو سيارة الشحن العسكرية إلى مركز التدريب في معسكر الرشيد.

لم يستمر الهدوء والسكينة مدة طويلة بعد سماع أصوات غير واضحة في البعيد. عندما اقتربت من الساحة، أصبحت الأصوات أعلى فأعلى من بضعة مئات من المتظاهرين.

إعتقدتُ أول الأمر أنها تظاهرة شيوعية ولكنني انتبهتُ إلى عدم وجود أي علامات أو شعارات أو هتافات تدل على مشاركة الشيوعيين فيها. كانت الجموع تحمل صور جمال عبد الناصر. زالت مخاوفي نوعًا ما! ولكنني انتبهت إلى نفسي وقلت: ما الفرق؟ كلّ طرف أتعس من الثاني، لقد دُمِّرَ استقرار البلد، وأنا في وسط المعمعة.

سرعان ما ازداد حجم الحشد وتعالت الأصوات وفُقدت السيطرة عليه. كان المتظاهرون يقفزون وهم يلوّحون بالسكاكين والعصي كأنهم يقطعون الهواء غاضبين، إلى أن ظهرت مجموعة منهم يسحلون جسدًا لا يمكن تمييزه، كأنه نصف بقرة مذبوحة. إستخدموا سكاكينهم لقطع الجسد إلى قطع. كان جسد الوصي على العهد الأمير عبد الإله، وقد سحلوه لعدة أميال من القصر الملكي إلى الساحة، وبدأوا يمثّلون به. وكلّ من تمكّن من قطع قطعة من اللحم، ركل الجسد برجله وبصق عليه، أو داس عليه بقدمه، إلى أن أوصلوه إلى شارع الرشيد الأنيق والجميل. وأمام بناية وزارة الدفاع علّقوه على عمودٍ ليجف.

إستمر سحل الجثث عبر جسر مود (الذي يربط ضفة الكرخ الغربية لنهر دجلة مع ضفتها الشرقية، الرصافة) إلى أن وصلوا الساحة أيضًا.

في الوقت نفسه، استمر الراديو في بث الأناشيد الثورية والموسيقى العسكرية مع وجبة جديدة من البيانات الصادرة عن الانقلابيين، وقد مرّت ساعة كاملة على صدور البيان رقم واحد.

كنتُ شاهدًا على الأحداث أراقبها بهلع وخوف. كان المستقبل الغامض والحاضر المحيّر خاصة قد بددا أفكاري.

على الرغم من تحكّم الفوضى بالشارع، لم تجرِ أي عمليات تحطيم للممتلكات أو حرق للسيارات أو نهب للمحلات التجارية! فعلى سبيل المثال، سلِمت معارض حافظ القاضي لوكالات جنرال موتورز وكاريير المطلّة على الساحة من التخريب. ولم ينهب الغوغائيون معارض بيع ساعات أوميغا وتيسو ولونجين على الجانب المقابل من الساحة. أثبتت هذه السلوكية أن الغوغائيين يسلكون منحى سياسيًا وليسوا بسارقين. كان صاحب دكان في الزاوية المقابلة للساحة مستمرًا في عمله بعصر برتقال بعقوبة ليلبّي طلبات المتظاهرين الذين نالهم العطش من شدة الصياح والهتاف.

كان مطعما «العاصمة» و «شريف حدّاد» المتقابلان على جهتي الجسر فتحا أبوابهما لتقديم الفطور الصباحي، ولكن توقفت الخدمة فيهما لأن العاملين فيهما كانوا يحيّون الغوغائيين والمتظاهرين بابتهاج كبير. كان العاملون فيهما من تلكيف، وهي قرية مسيحية في الموصل، وتعتبر مصدرًا مهمًّا لرفد صناعة المطاعم والترفيه في الموصل وبغداد بأيدٍ عاملة رخيصة.

بعد أن كانوا أتباعًا فخورين للإمبراطورية الآشورية في نينوى، رماهم التاريخ في أحضان الفاقة والتفكّك والتهميش. أهملت الحكومة تلكيف فاضطر الشباب إلى النزوح إلى المدن لكسب العيش والتخلّص من هيمنة الأكراد المسلمين في منطقتهم. أصبحت الشيوعية لهم وللكثير من المضطهدين حاجة ضرورية للتغيير، وكان التغيير يحدث الآن أمام أنظارهم وفي ساحة الملك فيصل.



كان الصباح في بدايته. والفجر، مثل الانقلاب، أعطى مولدًا ليوم جديد: بزغت الشمس في سماءٍ زرقاء وولّدت ظلالًا هادئة لم تبرد بعد، مع الشعورً بالدفء في الساحة. لم تفعل النسمة الخفيفة وعصير البرتقال فعلها في ترطيب الرؤوس وإرواء الظمأ، إذ طالب المتظاهرون بالمزيد من الجثث والرؤوس؛ كانت أولى الجثث المسحولة قد وصلت الساحة قبل ساعتين.

وفي هذا الوقت، ازداد حجم الجماهير المتظاهرة وعلا صخبهم. كانوا يحملون صور جمال عبد الناصر ويصيحون: «وحدة وحدة عربية، لا انفصال ولا رجعية»، وهو الشعار الداعي إلى وحدة العرب ضد الرجعيين والانفصاليين.

ظلّ حجم الجموع ينمو أكثر وأكثر. تزايد الصوت النشاز القادم من بعيد مع وصول موجة جديدة من المتظاهرين الحاملين لأعلام عراقية ترفرف في الهواء. لم يكن هؤلاء أيضًا من الشيوعيين، بل من أنصار عبد النّاصر.

هل كانت الثورة ناصرية؟ ماذا حدث للمجموعات الأخرى؟ كان غياب الأكراد متوقّعًا لعدم وجود أعداد كثيرة منهم في بغداد للاشتراك في التظاهرات، ولكن ماذا عن الشيوعيين؟ لماذا كانوا غائبين؟

في هذا الخضم من البشر، مرّت سيارة جيب عسكرية وشقت طريقها من خلال الجموع وقد أطلقت العنان لمنبّهها وهي تسرع نحو مبنى وزارة الدفاع. أعقبتها الثانية ثم الثالثة. لم ينقطع سيل الموسيقى العسكرية والبيانات عبر الراديو في توجيه الناس:

«نوجّه الشعب إلى حفظ النظام، والذين لا يمتثلون للأوامر والتعليمات سيقدّمون إلى المحاكمة! لقد ثار الجيش من أجلكم لإرجاع حقوقكم إليكم، ولتحريركم أيها الشعب الأبي من الظلم الاستعماري والرأسمالي. تنبّهوا إلى ألاعيب أعداء الشعب الذين سيحاولون إجهاض هذه الثورة المقدّسة».

لم يكن «حفظ النظام» غاية المتظاهرين الذين كانوا يتنافسون للوصول إلى أي جثة وطعنها والبصق على ما تبقى من وجهها. كانت جموع الغوغائيين تأتي من جهة الكرخ، أي الضفة الغربية لنهر دجلة، عابرين التمثال البرونزي للملك فيصل

الأول ممتطيًا صهوة جواده. تساءلت ما عسى التمثال أن يقول لو عاد إلى الحياة؟ فقد ضحّى الكثير من أجل بلده، بناه من رماد المحتل العثماني، ناضل من أجل الاستقلال والسيادة، حارب البريطانيين من أجل معاهدة عراقية-بريطانية عادلة، والآن يُقتل ورثته مع العائلة الهاشمية برمتها في مجزرة وحشية. لعله سيهز رأسه غير مصدّق ما يحدث، ويمسك دموعه ثم يقرأ سورة الفاتحة على القتلى، ويحزن وحيدًا، وهو السلوك المناسب لأمير عربي جاء من بادية الحجاز. لا يبكي الأمراء الحقيقيون علانية، بل يحزنون بسكون!

وكما كان الوضع في الحياة الواقعية، كان يوجد على الجانب المقابل من الجسر تمثال الجنرال ستانلي مود في الساحة العامة حيث كانت عروض الرعب تتوالى أمام عينيه. هو أيضًا كان يمتطي صهوة جواد من البرونز. كنتُ أتساءل ماذا سيقول هذا الجنرال الذي «حرَّرَ» العراق سنة ١٩١٧، إذا تمكّن من الكلام. هل سيقرّ ويعترف أن سياسته وسياسة الحكومة الاستعمارية منذ ٤١ سنة المبنية على سياسات مخادعة قد أوصلت البلد إلى نقطة الغليان هذه؟ هل سيقرّ «أن تلك الغيمة هي التي جلبت هذا المطر» كما يقول البدوي؟ لم يتكلّم، وعليَّ ان أخمّن الجواب! لعلّه سيهز رأسه من الأسى لفشل مهمته وضياع الحقبة البريطانية في العراق. لعلّه سيقول، «عملتُ كلّ ذلك في سبيل الملك والوطن».

وقفتُ ساكنًا ومتّكئًا على أحد الأعمدة أراقب الناس، بعضهم متحمّس تأخذه الإثارة، بعضهم مخدّر من هول الحدث، وآخرون مثلي استهلكوا أنفسهم في التفكير. كيف يحدث هذا الأمر؟ كيف تسمح القوى العظمى بحدوثه؟ كيف يسقط البلد في حضن ناصر بهذه السهولة؟ وماذا عن بابا كركر وبقية حقول النفط؟

إستنتجت في قرارة نفسي أن هذا الأمر قد حدث بسبب خطأ آيك (آيزنهاور). لو لم يتدخّل في معركة قناة السويس ويردع آنثوني إيدن من مواصلة الحرب سنة ١٩٥٦، لانتهت الحملة بنجاح وانتهى ناصر، ولم يحدث كلّ هذا الأمر اليوم! لم يكن في مقدوري أن أفهم الأمر، نعم، لم يكن في مقدوري فهم ما يجري. كيف لم تعرف القوى العظمى بكلّ هذا؟



نعم، كان هذا بسبب خطأ آيك! ذلك الساذج البسيط! ذلك الغبي! كيف يسلِّم خروتشيف هكذا نصر؟ ألم يتصوّر ما سيحدث للشرق الأوسط كافة؟ هنا تقع غرفة سيطرة على المنطقة برمتها، هنا في بغداد. سينتهي الآن حلف السنتو! كيف ومن أين سيجدون حليفًا مثل نوري السعيد؟ هؤلاء الأميركيون لا يعرفون أبعاد السياسة الخارجية. سيتحوّل العراق الآن إلى الشيوعية، ومنطقة تابعة للسوفيات! سيفعلون برجال العهد القديم ما فعلوه بآلاف من الوطنيين الأرمن في ١٩٢٠ في يريفان عاصمة أرمينيا؛ قتلوهم بالفؤوس.

لم يكن عندي أي شك، وبالتأكيد وحتماً وبشكل مطلق، إن لون البلد سيتحوّل إلى الأحمر القاني، بلون الدم الذي يسيل الآن.

فكرتُ غاضبًا أن آيك ربما يستمع الآن إلى تصريح وزير خارجيته الغبي الذي لم يرَ ما كان في الأفق!

مسكين الملك فيصل، لم يستحق أن يموت بهذا الشكل! كان شابًا وبريئًا؛ لم تسنح له الفرصة أن يستمتع بالحياة مع خطيبته. لقد دفع بحياته عن أعمال خاله الشريرة. ولمن؟ ألم يكن بمقدورهم أن ينفوه خارجًا كما حصل مع الملك فاروق؟ لقد وضع الضباط المصريون الملك في يخته الملكي الذي أبحر إلى أوروبا ترافقه تحية إحدى وعشرين طلقة مدفع. تلك كانت الطريقة الحضارية في التعامل مع الموضوع. لكن العراقيين مختلفون؛ كانت القوّات العربية التي تحارب في فلسطين تنعت العراقيين بـالمتوحشين لقتلهم الآلاف من اليهود المدنيين بدم بارد في دير ياسين. ما كنتُ أراه الآن برهان على تلك الواقعة: كانوا وحوشًا بكلّ ما في الكلمة من معنى، وأنا أعيش في كنفهم! يا له من موقف يدعو إلى الشفقة!

أفكار وأفكار وأفكار تأتي مجتمعة من دون انقطاع، ومزّقت عقلي ووجداني إربًا إربًا. أشعر كأنني مهدد بالتشويش والحيرة، في الوقت نفسه، كنتُ أتمنى أن يهرب نوري السعيد، وربما، وفقط ربما، يستطيع أن يقيم انقلابًا مضادًا بمساعدة السي. آي. أي، كما حصل قبل ست سنوات في إيران.

كلا، لن تسمح بريطانيا أن تفلت بابا كركر منها، وكيف تسمح بحدوث ذلك؟ النفط شريان حياتهم! إن لم يكن بمقدورهم تحمّل ضياع بابا كركر، فكيف سمحوا بحدوث كلّ هذا الأمر؟ يجب أن يكون السبب مقنعًا، ولم أصل أنا إلى هذا الاستنتاج بعد! هل من الممكن أن تكون هذه الثورة من مخططات البريطانيين؟

إنحرفت أفكاري إلى مجالات أخرى، وأنا أتأسف على حال العراق ونفسي. هل هذه هي بغداد التي عرفتها وأحببتها؟ بغداد، مدينة اللطف والكياسة، والحداثة والرخاء، بغداد الأنيقة؟

هل هذا شارع الرشيد المزدحم نفسه حيث يقع المقهى البرازيلي والمقهى السويسري ويمنحان الأجواء الأوروبية لروادهما من الأدباء والمثقفين، للحوار وارتشاف الإسبريسو؟

هل هذا هو الشارع المزدحم نفسه حيث بإمكان أحدهم أن يتبضّع معطفًا أنيقًا من الفرو، أو مجوهرات، وعطور فرنسية؟

هل هذا هو الشارع نفسه حيث تمرّ الفتيات الغاويات وهن يلبسن آخر ما أنتجته دور الأزياء الباريسية، كأنهن يمشين على ممشى عرض الأزياء؟

كلا، إطلاقًا! كان الشارع مليئًا بالجثث والدماء، والله وحده العالم متى ستنتهي المجزرة! لم يعجبني ما رأيت وما كنت أشعر به. فكّرت أن العراق يذهب إلى الكلاب.

تركتُ مسرح الأحداث للغوغائيين ورجعتُ إلى الدار يملؤني اليأس والقنوط، في الوقت نفسه لا زلتُ آمل أن يقوم نوري السعيد بمحاولات للخلاص من هذا الوضع. لم يكن هذا ممكنًا؛ بعد يومين أو ثلاثة من الانقلاب، قبضت عليه السلطات وهو يحاول أن يغيّر مكان اختبائه، مرتديًا عباءة نسائية، بعد أن بلّغ عنه ابن صاحب المنزل الذي اختبئ فيه للحصول على المكافأة الموعودة. إشترى أحد طلّاب صفي الحذاء الذي كان ينتعله في هروبه ليبقيه للذكرى، وكان يرينا زوج النعال بتباهٍ. وبعد عقدَين من الزمن وقع بدوره ضحية مكر وخيانة وأُعدِمَ حسب أوامر صدام.



لم يغب عن بالي سؤال واحد أثناء كلّ هذه الأحداث. أين كان البريطانيون وأين كان الانقلاب المضاد؟ وكان الجواب نفسه في كلّ مرّة. هم الذين حرّضوا، وخططوا ونفّذوا هذا الانقلاب كضربة استباقية ليمنعوا سقوط البلد في قبضة جمال عبد الناصر أو الشيوعيين. فقد ضعفت سيطرة العائلة المالكة على الديدان السياسية التي كانت تنخر في هيكل البلد؛ وحان وقت التغيير.

كانت التأثيرات النفسية للانقلاب على تفكيري كبيرة وساحقة؛ ومما زاد الطين بلة عندما ألغتْ الكلية الطبية احتفالات التخرّج. لن أتمكّن مع ١٤٠ طالبًا وطالبة من ارتداء أثواب وقبعات التخرّج واستلام شهادات الاختصاص الطبية. خاب أملنا جميعًا توجّهنا إلى مكتب عميد الكلية لاستلام شهاداتنا من دون المظاهر الاحتفالية. ولإضافة الإساءة إلى الجرح، فقد شطبوا كلمة «الملكية» من «الكلّيّة الطبية الملكية» وكتبوا بخط اليد «الجمهورية» بدلًا منها.

كان «التخرّج» حدثًا محزنًا لي، وصار المستقبل «مبهمًا» أيضًا. جاء الانتقام بعد مدة من الزمن بعد أن تمّ تعييني بدرجة Associate Clinical Professor in Neurology في جامعة Tufts في بوسطن.

ففي شهر نيسان من سنة ١٩٧٦ تلقيتُ اتصالًا من الكّلية الطبية في الجامعة يسألونني إن كنت أرغب في الانضمام إلى موكب التخرّج في تلك السنة. كنت أقفز من الفرح، وجاء ردّي بالإيجاب. سألتني المتّصلة من الجامعة عن ألوان ثوب التخرّج في الكلّية الطبية في جامعة بغداد. لم أعرف ذلك لأنني لم أرَ واحدًا من قبل. ولكنهم وجدوا ألوان كلّيتي، فانضممت إلى موكب تخرّج دفعة من الأطباء الجدد والدموع في عينَيّ مع ذكريات الكلّية الطبيّة «الملكية» في بغداد. كنتُ أسير معهم في موكبهم، ولكنني لم أكن؛ فقد أمتص الماضي تفكيري بأكمله. تهامست مع نفسي «يحدث فقط في أميركا.» وهذه كانت نقطة توازن. سجّلتُ هدفًا... حسب اعتقادي.

## الفصل الرابع عشر

# فوضى الأربعينات

لم يكن عقد الأربعينات بشيرًا حميدًا للعراق. فقد ابتلِيّ بمحاولات النازيين العراقيين للاستيلاء على الحكم، في الوقت الذي كان هناك عدد من الانتفاضات من قبل الأكراد، خاصة البارزانيين، من ١٩٤٣ إلى ١٩٤٥.

كانت هناك أيضًا هزيمة الجيش العراقي أمام الدولة اليهودية الفتية، مع ظهور علامات القلق والاضطراب في صفوف القوّات المسلّحة هددت العائلة المالكة ونعتتها بـ «خونة القضية العربية».

كانت تعديلات المعاهدة العراقية-البريطانية تلوح في الأجواء في الوقت الذي سقطت فيه معاهدة بورتسموث. كان الحزب الشيوعي يخلق المصائب والخراب في البلد عن طريق تنظيم الاضرابات عن العمل مع السعي لإضعاف سلطة الحكومة.

كان هناك نزفٌ للأدمغة في العراق: هاجر اليهود من الأطباء والعلماء إلى إسرائيل. كان الإنكليز يفرضون شروطهم، على جري عادتهم، ويدفعون إلى العراق ١,٥ دولار لبرميل النفط، وينهبون ثروة البلد.

كان النظام الحاكم يقف على أرضٍ رخوة، لعدة أسباب، أقلها عدم استقرار المنطقة:

- كانت سوريا تعيش في اضطراب سياسي هائل؛ حيث تتوالى الانقلابات الواحد بعد الآخر. كان ميشالً عفلق وأكرم الحوراني يضعان اللبنات الأساسية لحزب البعث، الذي وصل إلى حكم سوريا والعراق بالفعل.

- كان خالد بكداش، الكردي المعتبر أكبر شيوعي خبيث وفتّاك في الشرق الأوسط، يهزّ الأنظمة التقليدية في المنطقة.

- لم تكن علاقات العراق مع تركيا على ما يرام؛ كان هناك خصام متبادل وعدم رضا بين البلدين بسبب الموصل الذي أُعطي إلى العراق الحديث الولادة عن طريق استفتاءٍ عام نظّمته عصبة الأمم. كانت هناك مسألة العقيد صلاح الدين الصبّاغ (أحد «الأربعة الذهبيين» من ضباط الجيش الذين نفّذوا الانقلاب «الوطني» الموجّه من النازيين من قبل رشيد علي الكيلاني في ١٩٤١)، رجل مطلوب من قبل العراق، لجأ إلى تركيا ويعيش فيها من غير قيود. إعتبر العراق الموقف التركي عملًا عدائيًا.

- كانت هناك مسألة النزاع على شط العرب ومنطقة خوزستان بين العراق وإيران. وكذلك قضية الكويت، إذ كان الملك فيصل الأول قد طالب بها رسميًا باعتبارها أرضًا عراقية.

- كان الحزب الشيوعي الإيراني، توده، المدعوم ماليًا من الاتحاد السوفياتي، يصدِّر إيديولوجيتها عن طريق رجال الدين إلى المدينتَين المقدّستَين، النجف وكربلاء، حيث لجأ آية الله روح الله الخميني هربًا من الشاه، قبل أن يُبعده صدّام إلى Noufle Le Chateau في فرنسا.

هناك ظروف دولية أخرى سبّبت للعراق عسر الهضم.

- ففي مصر، كانت هزيمة القوّات المسلّحة أمام إسرائيل قد تخمّرت في لجج المعارضة وجلبت عدم الرضا العام إلى القمة، وبدأت طروحات الوحدة العربية تتبلور في أنحاء الأرض العربية بحيث أزعجت بريطانيا والنظام الملكي في العراق.



- وعلى المستوى العالمي، خسر هتلر الحرب، وخسر القوميون العرب هتلر، حليفهم الروحي، وأصبحوا الآن تحت رحمة بريطانيا الاستعمارية والإمبريالية، التي كانت تحاول خنق الحركات القومية العربية بخلقها «إسرائيل غير الشرعية».

- خلق هذا الوضع اليأس عند العرب فتطور بدوره إلى الكراهية.

- لم يكن للطبقة الحاكمة أي بديل؛ لم يكن في مقدورهم أن يسيروا مع الشيوعيين الملحدين لأسبابٍ دينية، واختلافات ثقافية، وانقسام سياسي تاريخي، ولهذا كان عليهم أن يضعوا الكبرياء جانبًا ويحصلوا على أفضل صفقة من أسيادهم البريطانيين، مستعمريهم السابقين.

- أما عامة الشعب، فكانت لهم خَيارات مختلفة؛ إمّا أن ينضمّوا إلى صفوف الحزب الشيوعي، كما فعل بعضهم، أو ينضموّا إلى حزبٍ قومي سياسي، أو ينضمّوا إلى حركةٍ سرّية تعمل في الخفاء، وكانت هذه الأخيرة بدأت تتبلور في البلد.

- أما الأكراد، فكانت الأمور واضحة جدًا لهم؛ إما الانضمام إلى جماعة بارزاني، وهذا يعني نوع من التجمّع القبلي، أو الانضمام إلى حزبٍ سياسي علماني، مثل الشيوعيين. جذب الشيوعيون الأكرادَ إلى صفوفهم واستغلوهم أيما استغلال تحت اسم مساعدة الشعوب المقهورة في العالم وتحريرها من شرور الغرب الإمبريالي.

وبهذا المنطق الذي اعتمدوا عليه في عقد الأربعينات، اكتسب الشيوعيون وجاهة وشعبية كبيرتين عند الطبقة الفقيرة من عامة الشعب، وخاصة الشيعة في الجنوب والأكراد في الشمال.

كانت الخطوط الموهومة بين الحكّام الموالين للبريطانيين وبين الأكراد اليساريين المدعومين من قبل الاتحاد السوفياتي راسخة بشكلٍ جيد. لم يكن الدعم السوفياتي للأكراد نتيجة إعجاب، ولكنها كانت محاولة للسيطرة على «السائلَين» اللذين كانا

في حوزة الأكراد: النفط والماء. وجود النفط في كركوك والموصل، وغزارة مياه دجلة والفرات في كردستان التركية.

لم يكن معظم العرب مهتمًا بهذا الأمر: فقد ساووا الصهيونية بالشيوعية واعتبروهما واحدًا. «اليهود هم الذين أسّسوا الشيوعية». ويرجع اعتقادهم بهذا الأمر إلى عدة حقائق: كان كارل ماركس يهوديًا وكبار الشيوعيين كانوا يهودًا. إضافة إلى ذلك، كان الحزب الشيوعي العراقي يحوي في قيادته العليا يهوديًا واحدًا على الأقل.

بريطانيا لم تعد تلك الإمبراطورية القوية، بعدما انسلخت عنها جوهرة تاجها، الهند، في ١٩٤٨. وأعجب العرب ببطل الاستقلال الهندي غاندي، الذي تسبّب بهزيمة بريطانيا، ولاموا البريطانيين على اغتياله: «لم يتركوه ينعم باستقلال الهند، قتلوه». وكانوا يضيفون: «البريطانيون لا ينسون أبدًا».

ولدت «إيديولوجية» جديدة بمجيء نهرو، «الحياد الإيجابي». ثم انضمّ إلى نهرو كلّ من عبد الناصر وتيتو، وسوكارنو، رئيس إندونيسيا: وسيطروا معًا على مقاطعات ذات مساحات شاسعة، وأجبروا العالم أن يتكوّن من ثلاثة أقطاب بدلًا من قطبَين.

بعد لقاء الرئيس الأميركي روزفلت مع الملك عبدالعزيز بن سعود، سيطر الأميركيون عمليًا وفعليًا على المملكة العربية السعودية الغنية بالنفط وبدأوا في منافسة السادة القدماء، البريطانيين؛ فبدأت ARAMCO تواجه وتنافس الـ IPC.

على الرغم من أن الحكومات لم تعلّق كثيرًا على هذه المسألة، بيد أن الإنتليجنسيا العربية لم تحب أيضًا السياسة الأميركية لاعتبارها أن «تصويت ترومان في الأمم المتحدة ما أدى إلى قيام دولة إسرائيل». عن خطأ أو عن صواب، اعتبروا أميركا دولة استعمارية أخرى نصّبتها إسرائيل لإزعاج العرب. نما هذا التفكير الآن، وأصبح اعتقادًا راسخًا لدى الشارع العربي وقادته؛ إن قوى الضغط الإسرائيلية (اللوبي) في الولايات المتحدة هي التي توجّه مقاليد الدولة لمصلحة إسرائيل ضد الدول العربية.



جلب العقد الجديد من السنوات مجموعة جديدة من الفرص والتحديات والمشاكل للعراق والمنطقة.

كان معرض بغداد التجاري الدولي حدثًا كبيرًا بحدّ ذاته، أُقيم سنة ١٩٥٣ ورأينا فيه جهاز التلفزيون لأول مرّة؛ فقد عرضت شركة PYE البريطانية تكنولوجيا التلفزيون في المعرض التجاري ثم باعته إلى الحكومة. أذكر شخصيًا تلك اللحظة التي انبهرتُ فيها واستمتعتُ في الوقت نفسه، عندما رأيت صورتي على شاشة جهاز تلفزيون وأنا أمرّ من أمام جهاز الكاميرا المنصوب في صالة عرض حافظ القاضي. كانوا يطلبون من الناس أن يمرّوا من أمام جهاز الكاميرا ويجرّبوا بأنفسهم أعجوبة باي (PYE). كنت رأيت جهاز التلفزيون سابقًا ولكن على صفحات مجلتَي Look و LIFE وكانا من إنتاج Philco و Marconi. باي (PYE) كانت بريطانية، ولهذا لم تُعلن في المجلات الأميركية.

كانت معارض شركة حافظ القاضي أنيقة وجميلة وتقع في ساحة الملك فيصل الثاني في مدخل جسر مود (الذي سُمّيَ على اسم الجنرال ستانلي مود البريطاني الذي احتلّ بغداد في الحرب العالمية الأولى). كان تاجرًا كبيرًا ووكيل الشركات الأميركية العملاقة مثل جنرال موتورز وكارير.

إشترى حافظ القاضي تجارته من بيت لاوي، وهي عائلة عراقية يهودية امتلكت الوكالة قبل هجرتها من العراق سنة ١٩٤٨.

في فندق غرونر باوم على جبال الألب في مدينة باد غاستاين النمساوية، حالفني الحظ أن ألتقي سيدة عراقية يهودية، ميتزي دانيال، ابنة مناحيم دانيال، وكانت في الثالثة والثمانين من عمرها. تقاسمنا معًا الذكريات عن بغداد. إمتدحتُ جهود أبيها وعمها في تثقيف جيلٍ من العراقيين. فقد أسّس أبوها مدرسة مناحيم دانيال التي كانت تعتبر مؤسّسة تعليمية خاصة، حيث كانت الطبقة الأرستقراطية المسلمة ترسل بناتها للدراسة. لم تذهب ميتزي إلى تلك المدرسة. وبخفة دم، وضعت أصبعها على شفتيها وقالت «شوووووش، لا تقل لأي أحد، أنا ذهبتُ إلى مدارس كاثوليكية في فيينا».

كان سلوك تلك السيدة أرستقراطيًا بكلّ ما في الكلمة من معنى، وأصبح سلوكها واضحًا وجليًا عندما استضفناها في دارنا في نيوهامبشير، حيث بقيت معنا بضعة أيام. وبالنظر إلى وضعها الاجتماعي وخبراتها في الحياة، أعتقد أنها اتّخذت خطوة شجاعة في قبولها دعوة من غرباء لا يمتّون لها بصلة. كانت في راحة تامة وفرحة جدًا إلّا في ذلك اليوم الذي أخذتها معي في سيارتي لأريها قريتنا الجميلة. لقد شعرت بعدم الأمان وظلت تسأل عن اتجاه سيرنا ولماذا اخترتُ ذلك الطريق بالذات. فهمتُ قصدها وما يجول في بالها وعرفتُ مصدر قلقها وعدم الشعور بالأمان. كنتُ في نظرها عراقيًا، ففاتحتها بوضوح عن شعورها بالقلق، فارتاحت نفسها واعترفت لي بخوفها مني.

في الخمسينات، كانت إلى جانب شركة حافظ القاضي آلاف من الشركات العراقية التي تتعامل مع الغرب إذ كانت هناك حوالي ١٥٠٠ شركة أجنبية تعمل في العراق. شكّلَ الموظفون الأرمن معظم الكادر التشغيلي فيها لاتّقانهم اللغة الإنكليزية ومهارتهم في إدارة أعمالها ومكاتبها.

كان العراق يسير إلى الأمام: إمتدّ خط السكك الحديدية العراقية المتجه من بغداد إلى كركوك نحو أربيل، عاصمة كردستان العراق حاليًا، ويعتبر ثاني أطول خط في البلد وكان من القياس الضيق. وأما الخط العريض الذي كان جزءًا من خط برلين–اسطنبول–بغداد فامتد إلى البصرة على الخليج، وربط بين قلب أوروبا ومنبع الخيرات في الخليج. كان هذا الطريق مهمًا وإستراتيجيًا بحق!

كانت الحرب الباردة في قمتها. ولأجل تطبيق السياسات الغربية لاحتواء الاتحاد السوفياتي، كان نوري السعيد يعمل على تحقيق وصياغة تحالف مع بريطانيا وتركيا وباكستان. لهذا، شاركهم في تأسيس حلف الـ(سنتو) في عام ١٩٥٥. وقد اعتبر الوطنيون تأسيس الحلف طريقة أخرى تتبعها بريطانيا للتدخّل في شؤون المنطقة. واجه الحلف معارضة شديدة من الشارع العراقي واستمر لفترة قصيرة.



بعد ثماني سنوات على الهزيمة في فلسطين، تسلّح الجيش العراقي بترسانة حديثة من الأسلحة العصرية، وتحسّن مستوى معيشة أفراده. كثر عدد الضباط الذين حصلوا على فرص إضافية للتعليم والتدريب العسكري خارج البلد. إضافة إلى ساندهرست وغيرها من المعاهد العسكرية البريطانية، فقد أُرسِل الضباط العراقيون إلى معاهد الولايات المتحدة العسكرية للغرض نفسه. كان هذا دليلًا على التوجّهات الجديدة للحكومة، ودلَّ في الوقت نفسه على جهود أميركا لسحب العراق خارج النفوذ البريطاني.

كانت الولايات المتحدة تحرز النجاح في المنطقة، في الوقت الذي كان النفوذ البريطاني ينحسر. خرجت فرنسا من اللعبة السياسية حتى في مستعمراتها السابقة، مثل سوريا ولبنان. فيما لم يكن العراق أبدًا تحت النفوذ الفرنسي، ولم يعرف باريس إلا عن طريق عطور كوكوشانيل، واتفاقية سايكس–بيكو المذمومة وسيئة الصيت.

كان عقد الخمسينات استثنائيًا في العراق: لم يكن النفوذ البريطاني الاستعماري الحديث ملموسًا أو مرئيًا للمواطن العادي؛ فقد غلّفه التمويه والغموض. كان عهد الإدارة الاستعمارية المركّزة انتهى وحلّت محله ذرائع حيكت بمكرٍ لإبقاء العراق في فلك الغرب، وهكذا بقيت السيطرة المحكمة على بابا كركر.

هبَّت رياحٌ جديدة على العراق في هذا العقد وجلبت معها التأثير الثقافي الأميركي على الشباب؛ فقد غزت هوليوود وسيطرت على قلوب وعقول الشباب العراقي، حالها حال كوكا كولا وسجائر تشيسترفيلد ولاكي سترايك وكاميل. لم يكن لسجائر مالربورو وجود في العراق، وحتى لو وجدت، فإنها لم تكن شعبية تمامًا كالسجائر الإنكليزية مثل بلايرز وكرافن أي وكولد فليك وماركوفيتش. حتى تدخين البايب مثل البريطانيين أصبح غير مستحب، وقد تعلّقتُ بهذه العادة منذ أيام الكلّية الطبية، ولا تزال تلازمني إلى هذا اليوم. أصبحت اللطافة صفة أميركية وليست إنكليزية. أصبح الاقتداء بممثلي وممثلات هوليوود مثل إيفا غاردنر، دوريس داي، جاين راسل، كاثرين هيبورن، جون آليسون، كلارك غيبل، وغريغوري بيك وغيرهم معيارًا لتصرفات الشباب والشابات في بغداد.

أصبحت الثقافة والعادات العربية المميزة رجعية ومرَّ عليها الزمن. وأصبحت طريقة العيش والحياة الإنكليزية التي يروِّج لها المعهد البريطاني، (أسّسه الدكتور ساندرسون «باشا»، طبيب البلاط الملكي ومؤسّس الكلّية الطبية الملكية) قديمة لا تنسجم مع الحداثة. إنجذب الشباب إلى USIS (United States Information Service) بينما التصق الجيل السابق بنادي العلوية (نادي اجتماعي-رياضي في بغداد مشابه لنادي الجزيرة في القاهرة)، حيث كانوا يشربون الويسكي ويطاردون زوجات بعضهم البعض ويخدمون محفلهم الماسوني بإخلاص.



## الفصل الخامس عشر

# كركوك قُدس العراق

بعد التخرج مباشرة عُيِّنتُ في وحدة عسكرية في قلعة دزه (قلعة السُرّاق) في كردستان العراق، التقيت هناك ضابطًا برتبة عقيد اسمه عبد الله مصطفى، من القومية الكردية، وكان قد انتقل حديثًا إلى تلك الوحدة. كان يدَّعي أنه هو الذي قاد الهجوم على قصر الرحاب (القصر الملكي) صباح يوم الانقلاب في ١٤ تموز. وكان يتفاخر ويتبجّح أنه كان أول من فتح النار على القصر الملكي، عندما خرج أعضاء العائلة المالكة رافعين أيديهم وحاملين القرآن الكريم فوق رؤوسهم يطلبون الأمان.

وحسب عدد من الكتب المنشورة لمؤلّفين معروفين مثل خليل إبراهيم حسين، كانت قصة مصطفى حقيقية، باستثناء الجزء المتعلّق ببطولة تلك الواقعة. أما خليل، مؤلّف عدد من الكتب الموثوقة عن الثورات في العراق، فيقسم بالله وبالقرآن الكريم بأنه هو الشخص الذي قتل العائلة المالكة. أميلُ إلى تصديقه بدلًا من مصطفى، لأن صدقيته مبنية على مؤلّفاته وكتاباته، أما مصطفى فكان مجهولًا إلى ذلك الحين.

ففي أحد الأيام وأثناء شربه قدحًا من العرق، ذكر لي أنه كان من «الضباط الأحرار» ضمن خلية سرّية، وكان من المفروض أن يعرف بخطة الانقلاب وساعة الصفر، ولكن المتآمرين من العرب خدعوه. تركوه بعيدًا عن الحدث «لأنني كردي». من الممكن أن يكون هذا الادّعاء صحيحًا لأنهم لم يرغبوا بالمشاركة الكردية لعدم شرعنة المطالب الكردية بالحكم ذاتي. ومن الممكن أن يكون الفزع أصاب الضباط في اللحظة الأخيرة، ولم يتمكّنوا من الاتصال بجميع الضباط

الأعضاء في التنظيم، من ضمنهم مصطفى. بغض النظر عن التحليلات، رأى مصطفى أن ثمة تآمرًا قد حصل.

عن باقي قصته يقول إنه علم بالهجوم الوشيك فأخذ رشاشته وذهب مباشرة إلى القصر الملكي. رأى هناك دبابة أو إثنتين قد أطلقتا ثلاث قذائف فتهدّم جزء من القصر. إستسلم حرس القصر على الفور، وأجبر هذا الاستسلام العائلة المالكة على الخروج. كان مصطفى يعتقد أن الضباط العرب سيقبضون على أعضائها وينفونهم خارج البلد، كما فعل أقرانهم المصريون بملكهم. لم يكن هذا مقبولًا لديه لأن المتآمرين كانوا عربًا، لهذا «غير جديرين بالثقة». كان يقول إنه في حالة نفي العائلة المالكة، كان البريطانيون سيعيدونهم إلى العرش الهاشمي بعد مدة من الزمن. كانت مخاوفه تعتمد على حادثة شبيهة: فقد واجه الأميركيون مأزقًا مماثلًا في انقلاب مصدق في إيران، فأعادوا تنصيب الشاه على عرش الطاووس في عام ١٩٥٣. إذا حدث ذلك الأمر هنا فأنه «سيقتل القضية الكردية». لهذا السبب، «وباجتهاد فوري، قررتُ إنهاءهم، ففتحت عليهم النار وقتلتُ العائلة».

بغض النظر عمّن أطلق النار، هناك حقيقتان:

١ - مات أفراد العائلة المالكة.

٢ - خدع الضباط العرب حلفاءهم الأكراد بإنكارهم المشاركة في الانقلاب.

كان العقيد مصطفى منفيًا في قلعة دزه، كشكلٍ من «النفي الداخلي» داخل البلد. لقد أبعده الجيش إلى هذه الوحدة العسكرية في أقصى الشمال الشرقي في بلدة كردية مجاورة لإيران. وبسبب التطورات السياسية في بغداد، أضحى شخصًا مكروهًا، أو على الأقل غير مرغوب فيه لكونه كرديًا.

لستُ متأكدًا إن كان العقيد مصطفى حارب في فلسطين أم لا، ولكنه كان يحمل جرحًا شبيهًا بالجرح الذي أصيب به الضباط العرب؛ من غضب ومرارة من جرّاء الهزيمة. تضاعف غضبه وتضاعفت المرارة التي كان يشكو منها لأن الثورة لم تعترف به كبطل وأصبح يشعر في داخله بأنه منبوذ.



لم يحصل الأكراد على حصتهم من الغنائم التي وعدوا بها قبل الثورة، ولم يكن هناك أي مشاركة كردية في هيكل القوى المشكّل. كان العقيد مصطفى يعتبر ما حصل خيانة لكردستان، ويعكس الخيانة المتأصّلة في سلوك العرب. وهكذا، أصاب النكوص الآمال والطموحات الوطنية الكردية بتحقيق نوع من الحكم الذاتي المنشود.

كانت شكوك العقيد مصطفى تنبع من الأعماق استنادًا إلى أحداثٍ تاريخية سابقة، كصدى لشعور جماعي كردي بأن موطنهم مقتسم بين تركيا وإيران وسوريا والعراق. في الوقت نفسه، كانت هذه الشكوك ناتجة عن غضب الشعب الكردي من القوى العظمى التي خانتهم لمرّاتٍ متتالية من خلال مؤامرات إقليمية ودولية انتهت إلى هزائم قاسية عانى منها الأكراد وخاصة لدى تفكيك جمهورية مهاباد الكردية (١٩٤٦-١٩٤٥) في إيران حيث تولّى الملا مصطفى بارزاني (والد مسعود بارزاني) منصب وزير الدفاع.

خلال مراحل التاريخ، لم يتمتع الأكراد بأي شكلٍ من الاستقلال أو السيادة. إستهانت بهم الحكومات التي عاشوا في كنفها، إضافة إلى القوى العظمى، وأنكرت عليهم حقوقهم القومية، وكانت النتيجة فقدان أراضيهم وشعبهم واحترامهم للنفس وفرص الاستقلال أو الحكم الذاتي.

إضافة إلى كلّ هذا، وفي أحسن الأحوال، عاملتهم تلك الحكومات كمواطنين من الدرجة الثانية، وبعد ولادة جمهورية تركيا، مسح مصطفى كمال أتاتورك هويتهم القومية وأطلق عليهم اسم «أتراك الجبل».

وصراحة، إن النظام العراقي أهمل الأكراد بدوره ولكن ليس أكثر من إهماله لعرب الجنوب.

على عكس أقرانهم في تركيا، فإن أكراد العراق لديهم الحق في التكلّم بلغتهم وتدريسها وطبع منشوراتهم والتمتّع بإرثهم الثقافي من دون معوّقات. وأكدت لهم الحكومة بالقول: «أنتم أكراد ونحن عرب، ولكننا جميعًا عراقيون». تذاع الأخبار

والبرامج باللغة الكردية من محطة إذاعة بغداد، وهي محطة الإذاعة الوحيدة في البلد. كنتُ غالبًا ما استمع إليها وخاصة عندما كان زميلي في الدراسة «شمال صائب»، يغني منها. كان مغنيًا فولكلوريًا محبوبًا من الأكراد ويؤدي أغانيه من «باشي كوردي» (القسم الكردي في الإذاعة). كان يكتب بنفسه كلمات أغانيه ويلحنها. كانت «هلسا-هلسا» من أشهر أغانيه الكلاسيكية يوقظ فيها حبيبته النائمة «استيقظي، استيقظي يا حبّي، كفاكِ نومًا». لم يخطر على بال أحد في يومها أن «حُبّه» التي كان يحاول إيقاظها من نومها هي الأمة الكردية الغافية. «إستيقظي يا حبي، استيقظي»!

خلال الأربعين سنة الماضية كان «شمال صائب» وأغانيه من ذكرياتي الممتعة عن الماضي البعيد. إفتقدتُ غناءه. إلتقيتُ عُمرًا قبل سنوات قليلة في أحد المؤتمرات في سان فرانسيسكو، فقال لي إنه وشمال عاشا في غرفة واحدة لمدة خمس سنوات في ولاية ميريلاند الأميركية، وقد توفاه الله قبل بضع سنوات. أعطاني شريطًا مسجّلًا لشمال وهو يغني «هلسا، هلسا»، غالبًا ما أستمع إليه.

شارك الأكراد فرادى أو بشكل مجموعة في الحكومات. كان هناك وزراء أكراد مثل بابا علي الشيخ محمود، أحمد مختار بابان، وسعيد قزاز. لم يكن لهؤلاء أي صدقية في الحركات السياسية الكردية، إذ اعتبروا جزءًا من المؤسّسة الحاكمة، وبالنتيجة تابعين لبريطانيا.

كان هناك نواب أكراد في البرلمان العراقي حسب نسبتهم إلى مجموع السكان ومن دون أن يكون لهم تأثير سياسي؛ فقد أدّوا خدمتهم حسب مصالحهم الشخصية ومصالح التاج. وفي بعض الأحيان، أهملوا مصالح الشعب وخدموا مصالحهم فقط. وبالنتيجة، بقيت كردستان مهملة ولم ينلها التطور والتقدم في الحياة ومستوى المعيشة.

كان النظام بصورة عامة فاسدًا إذ أثّرت فيه الرشوة والسرقة والمحسوبية والمنسوبية وعدم النزاهة والاحتيال والاختلاس. لم يكن الأمر مستغربًا، لأن العراق المعاصر كان استمرارية للحكم العثماني القديم، وكانت الأغلبية من موظّفي الدولة من مخلّفات الحكم العثماني الفاسد.



كان النظام الإقطاعي الذي استمرّ العمل به لقرونٍ عديدة قد كوّن النسيج المتميّز للمجتمع. كان شيخ العشيرة في الجنوب والآغا الكردي في الشمال يمسكان بيديهما مقومات حياة المجتمع: كان يملك الأرض، يجهّز الفلاحين من عشيرته بالحبوب والبغال ولاحقًا الجرارات الزراعية، يقرض المال إذا احتاجه أحدهم للزواج، ويملك الكوخ الذي سيعيش فيه. مارس شيخ العشيرة القضاء حسب العادات والتقاليد المرعية وفصّل الحكم الإسلامي ليناسب رغباته.

إستغل البريطانيون والعائلة المالكة هذا النظام القبلي إلى أقصاه! وعن طريق الإغراءات والخدمات الممنوحة سيطروا على شيوخ العشائر الذين كانوا يسيطرون على عشائرهم التي كانت تمثّل تقريبًا معظم سكان البلد. تجذّر هذا الانحطاط والفساد في التوجّه السياسي الكردي فسرّع من خطاهم نحو البحث عن نوع جديد من الحل الجذري.

لم يكن جديدًا البحث عن حلّ للقضية الكردية على الرغم من تعرّضهم المتتالي للخداع من قبل القوى العظمى.

حصل الخداع الأكبر بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، حيث عالجت معاهدة السلام (١٩١٩) ومعاهدة سيفر (١٠ آب ١٩٢٠) المسألة الكردية. تولّى البريطانيون الانتداب على العراق الحديث الولادة بحدوده المخططة بصورة خاطئة، والتي كانت بحاجة إلى إجراء التعديلات الضرورية للاستمرارية المستقبلية. كان تخطيط الحدود الجنوبية أسهل من غيرها: جلس ضابط بريطاني برتبة دنيا في خيمته واستخدم المسطرة في رسم الخطوط، فأخرج منطقة الكويت والصحراء المحاذية من الأرض العراقية. إحتجّ العراق ولكن من دون نتيجة، وبقيت المسألة معلّقة وحيّة؛ طالبت الأنظمة العراقية المتعاقبة بإرجاع الكويت إلى الدولة الأم. كان الملك فيصل الأول أول من طالب بها، ولكن مناوراته السياسية فشلت. وبعد الثورة وفي عام ١٩٦١ طالب الزعيم عبد الكريم قاسم بالكويت واستنفر قوّاته لغزوها، ولكن البريطانيين منعوه من ذلك. وهذه المسألة بالذات وغيرها من الأسباب دعت صدام حسين إلى غزو الكويت عام ١٩٩٠.

لم يكن رسم الحدود في شمال العراق بتلك السهولة في رسم الحدود على الرمل في الجنوب! فقد تركت معاهدة السلام العراق الحديث الولادة في نزاع عظيم مع تركيا حول ولاية الموصل المحاذية لتركيا، والتي هي الآن في كردستان العراق.

في معارضة واضحة لتركيا الكمالية، ناورت بريطانيا على طاولة المفاوضات لإدخال الموصل ضمن مملكة العراق الحديثة التكوين. لم يكن إصرار بريطانيا على هذا الأمر نابعًا من حُبِّها للعراق، بل بسبب الثروة النفطية في الولاية. فقد ضمن الانتداب البريطاني على العراق سيطرة البريطانيين على الثروات.

تحدّى مصطفى كمال أتاتورك قرار عصبة الأمم ودافع كلّ طرف عن وجهة نظره. ولحلّ المأزق الناتج عن إصرار الطرفين، قررت عصبة الأمم إجراء استفتاء شعبي في الموصل لإجلاء الأمور. جاءت لجنة مكوّنة من سبعة عشر عضوًا إلى الموصل وقابلت ممثلين عن التركمان في كركوك والأكراد في الموصل والعرب. كان التركمان على نحو ساحق مع إعادة انضمام الموصل إلى بلدهم الأم، تركيا، على عكس العرب والأكراد. بطبيعة الحال، كان العرب مع بقاء الموصل ضمن العراق، أما الأكراد فكانوا بحاجة إلى إقناع.

لعب عمي كريكور، الطبيب المعروف في الموصل، والذي كان يعرف كلّ الآغوات الأكراد (رؤساء العشائر الكردية)، دورًا مهمًّا في إقناعهم بعدم التصويت على الانضمام إلى تركيا. فقد ذهب من جامع إلى جامع يحذّر الأكراد ويقول لهم إنه في حال انضمام الموصل إلى تركيا، فإن مصطفى كمال سيجبرهم على تغيير أسلوب حياتهم؛ وسوف يرغم بناتهم على الذهاب إلى المدارس المختلطة، يعطي النساء الحريات المختلفة فيلبسن الملابس الغربية الطراز من أكمام قصيرة وغيرها، وفي نهاية الأمر سيتساوين مع الرجال. «وستفقدون السيطرة على زوجاتكم وبناتكم» كما قال لهم، وأضاف: «واذا رغبتم في إحداث هذه التغييرات الاجتماعية التي هي ضد تعاليم النبي محمد، فاذهبوا وصوّتوا للانضمام إلى تركيا».



دوّى صدى هذه الكلمات في المجتمع الكردي، واستجابوا له. خسرت تركيا. وكانت نتيجة الاستفتاء أن بقيت ولاية الموصل ضمن حدود الدولة العراقية الفتية. غضب تركمان كركوك! وكانت النتيجة العرضية المباشرة لهذه الترتيبات زيادة الاستقطاب العنصريّ المستمر إلى يومنا هذا، حيث يدفع العراق ثمن الأخطاء التي ارتكبها مؤسّسوه من القوى العظمى قبل قرن من الزمن.

كانت سخرية القدر التي نتجت عن هذا النصر للأكراد أنها غيّرت من جغرافية المنطقة وغيّرت من مصير الأمة الكردية: ببساطة، جزّأت كردستان.

فكردستان تتكوّن بصورة رئيسية من عشائر تقطن تركيا والعراق وسوريا وإيران، ولم تكن تملك في وقتها الرشد السياسي الجماعي لتتصور تأثيرات القرار الذي اتخذوه. كانت كلّ عشيرة تتبع أهواء الآغا وتعمل على تحقيق مصالحها الموضعية، وهي السيطرة على أراضي العشيرة فقط. وهكذا أضاع الأكراد الفرصة الممتازة التي أعطتهم إياها المادة ٦٢ من معاهدة سيفر، والتي تنص:

«سوف تعدّ بريطانيا وفرنسا وإيطاليا مسودة مشروع للحكم الذاتي الموضعي للمناطق ذات الأغلبية الكردية الواقعة شرق نهر الفرات، جنوب الحدود الجنوبية لأرمينيا والتي سيجري ترسيمها لاحقًا، وشمال حدود تركيا مع سوريا وبلاد ما بين النهرين، حسبما جاء في المادة ٢٧».

كما ذكرت المادة ٦٣: «توافق الحكومة التركية وتقبل وتنفّذ قرارات اللجان المذكورة في المادة ٦٢». وذكرت المادة ٦٤:

«عندما تصبح المعاهدة الحالية نافذة المفعول خلال سنة، على الشعوب الكردية القاطنة ضمن المساحات المذكورة في المادة ٦٢ أن تتوجّه إلى مجلس عصبة الأمم بطريقة تبيّن أن أغلبية القاطنين على تلك المساحات ترغب بالاستقلال عن تركيا. وإذا قرر المجلس حينذاك أن هذه الشعوب قادرة على الاستقلال وأوصى بمنحهم إياه، على تركيا تنفيذ هذه التوصية، وتتخلّى عن كلّ الحقوق وسندات المُلكية لهذه الأراضي.»

في منطقة كردستان العراق (كردستان الجنوبية)، انقسم الأكراد سكانيًا إلى كتلتين عشائريتين رئيسيتين؛ الأولى: بهدينان (ومنهم البارزانيون)، وعاشوا في شمال العراق المتاخم مع تركيا. والثانية، سوراني (ومنهم الطالبانيون)، والذين عاشوا في شمال شرق العراق المتاخم لإيران. يتكلّم هؤلاء لهجات كردية مختلفة، ولهم عادات وتقاليد عشائرية مختلفة أيضًا، وتعتبر كلّ هذه عوامل تفرقة وليست عوامل توحيد. ولهذا السبب، من الطبيعي لأفراد هاتين الكتلتين أن تكون لهم، كلّ على حدة، أواصر وعلاقات مع أقرانهم عبر الحدود، التركية والإيرانية، أكثر من علاقاتهما مع بعضهما البعض. ومن النظر إلى التركيب الاجتماعي والسياسي والفكري-العقائدي لـ«الأمة» الكردية حينذاك، نكون منصفين لو ذكرنا أن الأكراد أنفسهم لم يكونوا قد كوّنوا وطوروا بعد فكرة كردستان الموحّدة وذات سيادة. ففي العراق مثلًا، لم يكن لهم تاريخ في تكوين حركة سياسية منظمة مماثلة للثورة، ما عدا الانتفاضة المحلية للشيخ محمود حافظ زادة في السليمانية في ١٩١٩ والتي قمعتها القوّات البريطانية. أما في تركيا، فلهم ثلاثة محاولات: انتفاضة الأمير بدرخان في بوهتان في سنوات ١٨٣٠؛ انتفاضة الشيخ عبيد الله في سنوات ١٨٨٠؛ وتلك التي قام بها الشيخ سعيد عام ١٩٢٩. على الرغم من عدم نجاح هذه الانتفاضات في تحقيق مساعيها نحو حكم ذاتي، حوّلت فكرة القضية الكردية إلى هدف نحو كردستان الموحّدة المستقلّة، فصارت مطلب جميع الأكراد إلى يومنا هذا.

بعد زوال جمهورية مهاباد الكردية في ١٩٤٦ وانسحاب الملا مصطفى بارزاني إلى الاتحاد السوفياتي، فرغت كردستان العراق من حضور سياسي؛ فقد كان اسما الحركة الكردية العراقية والملا مصطفى مترادفين. لم تكن الآراء السياسية قد تحوّلت إلى هياكل تنظيمية قادرة على تحشيد الجموع نحو عمل سياسي؛ كانت النظم العشائرية والانتفاضات التي يقودها الآغوات السمة السائدة في الواقع الكردي.

شكّل لجوء الملا مصطفى إلى الاتحاد السوفياتي والفراغ السياسي الذي نتج بسبب غيابه، فرصة ممتازة للتوغّل الشيوعي في المجتمع الكردي. وقد صوّرت الدعاية السوفياتية موسكو على أنها المدافعة عن الشعب الكردي ضد الاستعماريين



والإمبرياليين والحكومة العراقية التي أصبحت دمية بين أيديهم. وهكذا، وبعد وقتٍ قصير، اختطف الشيوعيون الحركة الوطنية الكردية التي كانت تستند على الوضع السكاني الإثني والعالمي. إستغلت الحكومة العراقية هذا الوضع وأصبح لديها سببًا مقنعًا لاضطهاد الأكراد مع التظاهر الكاذب أنها لا تحارب الأكراد، بل الشيوعية!

في منتصف الخمسينات دخل إلى الساحة السياسية قادة أكراد من الشباب الواعي والمثقف والمتطور فكريًا، وأكثرهم بروزًا جلال طالباني، وتصدّوا للمؤسّسة الكردية ذات الصفة العشائرية والإقطاعية والرجعية. أعرفه شخصيًا لكونه جارًا وزميلًا دراسيًا. كانت الحكومة تضطهده باستمرار لفعالياته السياسية.

تحت تأثير هذه العوامل كافة، انتقل مركز القوّة من بارزان، ذات التوجّه العسكري، إلى المركز الثقافي لكردستان العراق، السليمانية، حيث الطالبانيون.

بدأت مقولة «كردستان للأكراد» بالتبلور بين الأكراد، ولكنها لم تتطور كلّيًا، ليس بسبب الاختلافات العشائرية واللغوية فقط، بل لطريقة نظرة كلّ منهما للآخر. كان الطالبانيون ينظرون إلى البارزانيين كمحاربين قبائليين ورجعيين وإقطاعيين يحبّون اللعب بالأسلحة ويفشلون باستمرار في تأمين مكاسب للقضية الكردية. في المقابل، يرى البارزانيون في الطالبانيين مجموعة غير جديرة بالثقة وغير كفوئين ومن طبقة الموظفين من الدرجات العليا والمثقّفين الذين ليس في استطاعتهم القتال.

لغاية رجوع الملا مصطفى من المنفى عام ١٩٥٨، كانت القضية الكردية في العراق، والتي هي الآن بيد المثقفين، محصورة ضمن جملة من التصريحات القومية المبهمة، والمطالبات بتحسين الحقوق الاقتصادية والمدنية الكردية. فقد أصاب التشويش العقيدة السياسية الرئيسية وتحوّلت إلى شكل شاذ وغير متجانس من الوطنية داخل إطار ماركسي، أو اشتراكي. لم يكن كلّ هذا مهمًّا؛ بل إصلاح ما فسد وتحسين حياة الفرد الكردي.

وضع الموقف الجديد القيادة الكردية على خلاف مع حلفائها، وبالدرجة الأولى الحزب الشيوعي العراقي. وعلى الرغم من أن الاتحاد السوفياتي كان عرّابها، ولكن

المنافسة كانت واضحة المعالم، والعداء ظاهرًا بين الحزب الشيوعي العراقي المكوّن من المجموعات العرقية العراقية كافة، وبين المثقفين القوميين الأكراد. رفضت عقيدة الحزب الشيوعي العراقي القومية كنهج، بينما كانت الحركة الكردية بأكملها مستندة إليها.

في خضم هذه الأحداث، كانت هناك ثلاث قوى سياسية مهيمنة تأرجح السفينة الكردية، وكلّها علمانية: الإقطاع والقومية والشيوعية، تعمل كلّ واحدة منها بصورة فردية حسب قناعتها الذاتية. الجدير بالذكر هنا، وبخلاف أبناء عمومتهم في تركيا، لم يكن الإسلام أو أي دين آخر في يوم من الأيام عاملًا في الحياة السياسية لأكراد العراق حتى سقوط صدام في ٢٠٠٣.

لم يكن لهذا التشظي في القوى السياسية أن يستمرّ! ولن يتمكّن أي فريق أن يصل إلى أهدافه بالعمل الفردي. وبرجوع الملا مصطفى، تطور تدريجيًا اندماج مضطرب وغير متجانس بين النخبة المثقفة وشيوخ العشائر، وبصورة خاصة الملا مصطفى. كان عليهم أن يتبنّوا القضية الكردية العراقية، ويعملوا معًا على الرغم من اختلافاتهم وكراهيتهم المتبادلة، وكانت هذه من سمات علاقاتهم! كان عليهم أن يعملوا تحت مظلّة واحدة ليعرضوا على العالم مسألة الوحدة فيما بينهم، والتطور السياسي في عملهم. هذا العالم الذي كان يقلل من شأنهم دائمًا ويصرف النظر عن قضيتهم ويعتبرها وهمًا وخيالًا لمجموعةٍ من الوطنيين الصغار.

بخلقهم هذا الكيان الموحّد، جمعوا أفضل ما لدى كلّ طرف من إمكانية: السلاح والخبرة السياسية. أدركوا أنه من دون هذا التوافق والوحدة سيكون من المستحيل الوصول إلى أهدافهم. بقي هذا الاقتناع المهزوز أحيانًا القوّة الدافعة خلف تحمُّل واستمرار النضال الكردي إلى يومنا هذا.

بعد رجوع الملا وإخبار الأكراد عن المعاملة السيئة التي لاقاها في المنفى، أدارت القيادات الكردية وجهها عن الشيوعية والاتّحاد السوفياتي، واسطتَي النقل اللتين استخدموهما في العالم الثنائي الأقطاب، لعدة عقود.



إنتهى هذا التقارب إلى تشكيل حزب سياسي، الحزب الديمقراطي الكردستاني، الذي شكّل غطاءً ضم تحته الطيف السياسي الكردي بأكمله في العراق، وقاد النضال لتحقيق شكل من الحكم الذاتي.

ومن هذا التوازن الهش بين الفريقين، الذي أنشأه الحزب، كانت النخبة المثقفة تأمل أن تكون لها الهيمنة على تسيير شؤون الحزب وكسر النفوذ العشائري، خاصة نفوذ الملا مصطفى، بينما حاول البارزانيون، حاملو السلاح، تحقيق السيطرة الكاملة.

تحوَّل الحزب الديمقراطي الكردستاني منذ البداية إلى منظّمة تحت سيطرة بارزاني، وهي حقيقة قادت جلال طالباني، البرغماتي، إلى أن يترك الحزب محتجًا ويشكّل حزبًا حسب ميوله، أسماه الاتحاد الوطني الكردستاني. وهكذا، أضحى أكراد العراق منقسمين مرّة ثانية على الجبهات العشائرية؛ أصبح الحزب الديمقراطي الكردستاني الحزب السياسي في بارزان (مع زاخو ودهوك وعقرة وعمادية وسنجار وغيرها...) على محاذاة الحدود الجنوبية الشرقية لتركيا، بينما كانت معاقل الاتحاد الوطني الكردستاني في الشمال الشرقي للعراق (سليمانية وحلبجة وغيرها...) متاخمة للحدود الإيرانية.

كان الانقسام طبيعيًا ومتوقّعًا لعدم نضوج أي من الطرفين نضوجًا كافيًا للتخلّي عن خلافاتها المتجذرة. ولكن بعد سنوات على وفاة الملا بارزاني، وإثر حرب عاصفة الصحراء، تحوّل الانقسام إلى نزاع مسلّح بين الحزبَين، واضطر مسعود بارزاني إلى طلب المساعدة العسكرية من صدّام حسين، لمساعدته في قتال الإخوة الذي سقط فيه آلاف القتلى إلى أن تدخّلت أميركا لوقفه. ووقّع الطرفان في واشنطن على ميثاق للمصالحة بينهما دُعي «اتفاق واشنطن» لكنه لم يستمرّ غير عدة أشهر، وفتجدد الخلاف بينهما.

بعد عاصفة الصحراء وفرض منطقة حظر الطيران، سيطر الحزبان الكرديان على مساحات شاسعة من ولاية الموصل القديمة. شملت هذه الأراضي مدن الموصل وأربيل وكركوك والسليمانية التي تحوّلت إلى محافظات.

من ناحية التوزيع السكاني كانت الموصل تمثّل عراقًا مصغرًا، اجتمع فيه العرب السنة والأكراد مع مجموعة من التركمان في مدينة تلعفر، ومجموعات من الأشوريين والكلدان والإيزيديين وعدة آلاف من الأرمن المهجّرين الذين نجوا من جريمة الإبادة الجماعية التي ارتكبتها تركيا.

شكّل الأكراد الأغلبية في أربيل والسليمانية، بينما بقيت كركوك كما كانت خليطًا من الأقوام. كانت اللغة التركمانية السائدة فيها؛ من غير أن يعني ذلك أن كركوك كانت تركمانية. فقد تكلّم الأكراد الموالين للعثمانيين اللغة نفسها، فأعطوا الانطباع الخاطئ بأن كركوك ذات أغلبية تركمانية. وعلى الرغم من هذه الفوضى كانت المعاملات الرسمية والدراسة في المدارس والجوامع تجري كلّها باللغة العربية.

كانت الولاية تتكوّن من الأغلبية السُنية، على الرغم من وجود جيوب شيعية تركمانية في قرى كركوك، مثل تسعين وطازة خورماتو وطوز-خورماتو. عاش الأكراد الشيعة في خانقين ومندلي البعيدتين في الجنوب ولم تكونا ضمن حدود ولاية الموصل.

كان التنوّع السكاني، وليس الديني، في كركوك مثارًا للنزاعات والانشقاقات والمقاومة السلبية والمذابح المنظّمة والمناوشات المسلّحة. وليس من قبيل المصادفة أن أحد الأهداف الرئيسية لحكّام العراق المتتالين إزالة النتائج السلبية لهذا الاختلاف السكاني عبر تعريب كركوك. وقد برروا موقفهم بأنهم هم من قاموا بالثورة العربية الكبرى من الحجاز، وحاربوا الدولة العثمانية، وحرروا البلاد العربية، وليس الأكراد، ولا التركمان بالطبع. كان العراق عربيًا ويجب أن يبقى عربيًا. هكذا قرروا.

ولكن، هل بقي كذلك؟

يعتبر التكوين السكاني في كركوك اليوم حاجزًا رئيسيًا أمام صياغة دستور نهائي مقبول من الجميع. العقبة هي مستقبل كركوك التي يجب أن تكون إما:

آ- جزءًا من كردستان العراق.



ب- أن تستمر حسب الوضع القائم جزءًا من الحكومة المركزية.

ج- أن يجري تدويلها.

عند أخذ الاعتبارات المتناقضة بالاعتبار، من غير المعقول وغير القابل للتصور، أن أي حلّ سوف يرضي الأطراف المتنازعة. ستبقى كركوك مصدرًا للخلافات وتناقض الآراء، ومصدرًا للتحديات بين الجميع، ناهيك عن الحرب. وبهذا المعنى العام، كركوك هي قُدس العراق.

جرّدت المؤامرات الدولية الكبرى الأكراد من مستقبلهم: ففي عام ١٩٢٣ وفي تحالفٍ غير مقدّس بينهما، نجح اللورد كرزن من بريطانيا وعصمت إينونو من تركيا في التوقيع على معاهدة جديدة في لوزان ألغت معاهدة سيفر، فسرقوا حقوق الأكراد والأرمن في الأرض والسيادة. قسّمت المعاهدة كردستان بين تركيا وسوريا والعراق وإيران.

ماذا يحمل المستقبل للأكراد؟ لا أحد يعلم، أو على الأقل العقيد مصطفى، التي كانت محادثاته معي، أو مجرد وجوده، يبعثان القلق في نفسي يومًا بعد يوم.

الفصل السادس عشر

# كردستان

في أول تعييني كضابط طبيب، التحقت بوحدتي العسكرية في قلعة دزه، التي تهدّمت فيما بفعل المعارك بين العشائر الكردية. في أيام عزّها كانت بمثابة حصن طبيعي للمتمردين الأكراد الذين حاربوا الحكومة المركزية. كانت المدينة الوحيدة لعشيرة بشدر وبالتالي المركز التجاري للمنطقة. كانت منطقة واسعة ووعرة وجبلية تمتد على الحدود الشمالية الشرقية للعراق. هي حقًا منطقة رائعة الجمال ذات جبال عالية تكسوها الثلوج وتتخللها أودية ومنحدرات عميقة. ستشعر وأنت في قلعة دزه كأنك قد زرتَ إنسبروك وإنترلاكن وكارميش أو أي جزء من جبال الألب في أوروبا.

وعلى عكس جبال الألب، فإن جبال زاغروس غير مستغلة سياحيًا ولا تزال على طبيعتها البدائية. جبالها مكسوة بالثلوج حتى في فصل الصيف، وترتفع من وديان عميقة تفسح في المجال للثلوج الذائبة لكي تتحوّل إلى شلالات تسحر قلوب ناظريها بجمالها مع جداول وغدران بيض.

على الارتفاعات المنخفضة تحني أشجار الجوز والتوت والتين البري رؤوسها من ثقل أغصانها احترامًا لجمال الطبيعة المحيطة بها. ترى في بعض الأحيان عنزة جبلية تختفي خلف صخرة بعيدًا عن عين الصياد. طريق نيسمي بلون التراب يلتوي على السفح الأخضر للجبل ويمتد النظر معه إلى أبعاد بعيدة فيأخذ خيالك إلى ما لا نهاية.

تقع إيران هناك، في مكان ما، حيث يعيش النصف الآخر لعشيرة بشدر.

بعد ساعتين من السفر نحو الجنوب، تقع مدينة السليمانية التي تعتبر المركز الثقافي لكردستان العراق، وعاصمة المحافظة. ولكن لا يمكن الوصول إلى السليمانية لانعدام طرق المواصلات إليها؛ كان هناك قرار بإبقاء البشدر معزولة لإضعاف الأكراد. كانت الخطة إبقاء بابكر آغا على جبلٍ في بشدر، والشيخ محمود على جبلٍ آخر في السليمانية، في وضع يسمح للسيّد آلان تشابمان، الضابط السياسي البريطاني، بالسيطرة على الجانبين بكلّ سهولة.

تقع المدينة على جبلٍ من دون قمة، لم أعرف يومًا ارتفاعه، ولكنه عالٍ. تشبه الجبال المكسوة بالثلج نساءً عجائز يغطين رؤوسهن بالشال الأبيض المتهدل على الكتفين، وهن يراقبن الصغار في لعبهم. تتعاقب على سفوحها بيوت وأكواخ بسيطة من الطين تعاقبًا انحداريًا نحو الأسفل.

يشكّل سطح أحد البيوت الفناء الأمامي للبيت الذي يقع فوقه مباشرة، بحيث يتراءئ السفح كدرجٍ تبدأ فيه قصة الحياة مع بداية كلّ يوم، مع صوت الديك الصائح. في هذا الوقت بالذات، تكون امرأة البيت قد بدأت تبحث في قن الدجاج عن البيض، وقد جهّزت فطور الصباح المتكوّن من الخبز الطازج واللبن الرائب والحليب والعسل والشاي والبيض. وتبدأ بنقل الماء اللازم للاحتياجات اليومية للعائلة، فتغسل الملابس وتنشرها على الحبال لتجف وهي تتشبع برائحة الزهور البرية المحيطة بها. وفي أشهر الصيف، يستطيع المرء أن يرى النساء وهن يحمّمن الصغار في الهواء الطلق، ويكملن النهار بالأعمال المنزلية الأخرى. جميعهن أميات، لا يعرفن القراءة والكتابة؛ ولكن التعليم وصل مؤخرًا إلى أطفالهن في المدارس الابتدائية.

كان الشارع الرئيسي في قلعة دزه من دون اسم، تتخلله أعمدة التلفونات والكثير من الحفر. وقد تكون هناك أعمدة لإنارة الشارع، ولكنني أتذكر جيدًا أنني لم أصادف أي إنارة ما عدا الضوء الوحيد الموجود عند مدخل المعسكر.



عند السير على الشارع الرئيسي، يشاهد الناظر المشاهد المألوفة نفسها: خيّاط يعمل على آلة Singer للخياطة، محل صغير للصياغة، دكان القصّاب، دكان البزركان (تاجر أقمشة ومواد أخرى)، محل نجارة، دكان لوازم الخياطة والسلع الصغيرة ويبيع في الوقت نفسه أنواع الكلاش (وهي أحذية تصنع في المناطق الكردية، وجهها من حياكة صوفية أو حريرية، والنعل من الجلد أو المطاط المأخوذ من إطارات غوديير المستعملة. وهناك أيضًا محل الحدّاد الذي يصنع حدوات الخيل والخناجر، ومحل صانع السلاح.

وتجد أيضًا في الشارع الرئيسي عربة يجرّها حمار لبائع يعرض أنواع الخضروات، مثل، الفجل الذي يضاهي حجمه البطيخ الصغير والرقي والبطيخ الإيراني والباميا والباذنجان والخس والخيار والبصل الأخضر والبندورة وغيرها، وكلّها من إنتاجٍ محلي.

يزرع في كردستان أجود أنواع التبغ في العالم، من ضمنها تبغ ذو نكهة طبيعية ينافس التبغ الأنطاكي. لا أعرف ما اسمه العلمي، ولكن يسميه الأكراد «بو دار»، أي العطري. وهو مصدر رئيسي للدخل في المنطقة وللحكومة التي سيطرت على تجارته من قبل دائرة التبغ. لعل Balkan Sobranie يحتوي على هذا التبغ وهو غير متوفر للاستهلاك المحلي.

وترى بائعًا متجولًا يحمل على كتفه سجادة إيرانية هرّبها عبر الحدود ويحاول بيعها. والحق يقال، إن قلعة دزه تستحق اسمها.

يجول الناس على طول الشارع الرئيسي من دون هدف كأنهم يمشون في نومهم. يجلس بعضهم في «الچايخانة» يشف الشاي الحلو ويتفرّج على المارة، والبعض الآخر يدخّن النرجيلة المليئة بالتبغ الخام غير المصنّع.

يرتدي الرجال الملابس الكردية التقليدية من شروال وقميص ووشاح للخصر طوله عدة ياردات حول بطونهم وآخر أقصر منه يلف الرأس. كان بعضهم يلبس ملابس غربية بقياسين أكبر من العادي تصل أكمامها إلى أطراف

الأصابع مع ربطة عنق قصيرة تحاول الوصول إلى الخصر من دون جدوى. وكان هؤلاء من الطبقة المثقفة ومعلّمي المدارس وموظفي الدولة. أما النساء، فيرتدين ملابس ملونة وعريضة تصل إلى الكاحل. كان الناس بُنية ضعيفة وقوية في الوقت نفسه. كانت بشرتهم بيضاء وعيونهم زرقاء. وأما عظم الخد فكان بارزًا وعاليًا ككبريائهم وجباهم.

كان المنظر العام جميلًا يحوي كلّ الألوان: البنفسجي والأصفر والأحمر والبرتقالي ممزوجًا مع الأزرق يعطي الأكراد مسحة من الألوان المتعددة عكس العرب والتركمان. لن تجد هنا عباءة المرأة العربية السوداء. كان الزي الكردي علامة فارقة لعنصرهم. لفة الرأس تدل على عشيرته فيما شارباه يدلان على الوقار والمهابة والشرف.

الزي النسائي هو نفسه لدى النساء المسلمات، ويناقش الفقهاء أن لباس المرأة في عهد النبي وبعده كان محافظًا جدًا، إذ يغطي الرأس، والأذرع لغاية الأرساغ، والأرجل إلى الكواحل، ولكن لم يستعملن الشادور والعباءة وغطاء الوجه، فهذه كلّها جاءت في عصور متأخرة.

كان على النساء في قلعة دزه، مثل النساء الكرديات في أي مكان آخر أن «لا تبقى الواحدة منهن خالية البطن، لأن كثرة الولادات لمصلحة الوطن». كان هذا إيمان راسخ بصورة جدية ويستجيب لمتطلّبات السياسة القومية. كان الكلّ يحبّذ إنجاب الصبيان مع عدم تحديد العدد، إذ يؤمن الكردي أن الذكر مقدّر له أن يموت في ساحة القتال قبل أن يحين أجله الطبيعي. ولهذا، يقول الكردي «ابن لكردستان والباقون لي». هذا أمرٌ يبعث على الأسى والحزن ولكنه ليس تصرفًا غير واقعي بالضرورة؛ فقد احتاج الأكراد دومًا إلى مقاتلين لإشعال نار الحروب من أجل القضية الكردية. وبطبيعة الحال كان هؤلاء الذكور معرّضين للسوق لأداء الخدمة العسكرية في الجيش العراقي وأن يخدموا على الأقل لمدة سنتين. لم يمتنع الآباء عن أداء أبنائهم الخدمة العسكرية لأنهم برروا ذلك «بحصولهم على التدريب العسكري المتقدّم ورجوعهم إلى البيت وهم يتمتعون بالخبرة الكافية في خوض الحروب الحديثة، ومن ثم الانضمام إلى بقية المقاتلين الأكراد».



سعى العرب أيضًا إلى كثرة الإنجاب ولكن لغايات مختلفة؛ بإمكان العائلة ذات العدد الكبير من الذكور أن تفلح وتزرع مساحات أكبر من الأرض لدعم العائلة.

كانت الحياة في قلعة دزه معقّدة أكثر من الحياة في القرى والقصبات الصغيرة التي تحيط بها. كان العَلَم الذي يرفرف على المباني الحكومية دليلًا على تواجد السلطة هناك، ولم تكن كثيرة العدد؛ مدرسة واحدة ومستوصف صغير ودوائر حكومية صغيرة تخدم ٢٥٬٠٠٠ نسمة. كان إهمال الدولة للمنطقة واضحًا وجليًا، فالطريق المؤدي إلى المدينة مهمل وبحاجة ماسة إلى الصيانة إذ يصعب سلوكه في الشتاء.

أثناء النهار، كان معسكر الجيش المسيطر على المدينة وضواحيها؛ وتختلف الأمور في الليل، حيث كان الرعب هو الآمر الناهي. كان المتمرّدون الأكراد، والمهرّبون الإيرانيون من البشدر يجتازون الحدود ليلًا لبثّ القلق في المنطقة وتذكير الحكومة المركزية في بغداد بالقضية القومية الكردية. وكان هذا يكشف مدى سيطرة بغداد على البشدر في نهاية الخمسينات.

قبيل الحرب العالمية الثانية فرض بابكر آغا، رئيس عشيرة البشدر، سيطرته التامة على المنطقة، كما فرض البارزانيون سيطرتهم على مناطقهم، وحتى أن بابكر آغا روّج عملته الخاصة باستعمال النقود العراقية من فئة العانة (أربعة فلوس)، ولكنه أضاف عليها فلسًا لتصبح قيمة العانة خمسة فلوس. عندما وصلتُ إلى قلعة دزه في صيف ١٩٥٨ كان نفوذه قد بدأ بالانحسار وخفَّ نور هالته الوهّاجة وزال بريقها. كان مريضًا وطريح الفراش، مع هذا تتذكره الناس بالخوف والهيبة. كانت عينه العمياء والمغطاة دائمًا، قامته القصيرة، وجهه المنحوت نحتًا ومن دون أي تعابير، وحشيته الباردة، جميعها خلّفت عنه صورة سلبية مطلقة عند العامة. فذكر اسمه كان كافيًا لخلق رعشة لدى السامع.

إنتابتني الرعشة نفسها عندما جاء عدد من أتباعه إلى غرفتي يطلبون مني أن أرافقهم إلى داره لعلاجه. قبلتُ الدعوة من باب الفضول، إضافة إلى واجبي كطبيب. إعتبرتها فرصة نادرة لمعالجة شخص من مقامه.

كان بابكر آغا أحد المتعاونين مع السيد تشابمان، ومن هذه القناة كان يتبادل الخدمات مع الحكومة البريطانية. كان من الممتلكات الثمينة للبريطانيين وتتذبذب قيمته صعودًا ونزولًا حسب إذعان حكومة بغداد للمطالب البريطانية. إستغل آلان تشابمان بابكر حسب رغبته.

إصطحبني أربعة من رجاله في سيارة جيب أميركية مكشوفة وأسلحتهم الأوتوماتيكية مصوبة نحو الخارج. إستغرقت الرحلة أكثر من ساعتين على طريقٍ ترابي.

عرفتُ إننا اقتربنا من عرينه عندما صوّب المرافقون الأربعة فوهات أسلحتهم نحو الأرض. كان رجاله المسلّحون منتشرين على المرتفعات المحيطة بالدار.

بعد عدة عقود من الزمن، جاءت الفرصة لأزور «عش النسور» في بيرختيسكادن التي ذكّرتني بحصن ذلك المستبد في جبال الألب الكردية؛ فكرتُ أن الطغاة يخشون شعوبهم التي يتظاهرون بحمايتها فيتحصنون خوفًا من المستقبل.

إستقبلني رجاله وأظهروا لي وافر الاحترام واعتنوا براحتي بإضافة العديد من الوسادات إلى المصطبة الممتدة على الأرض المفروشة بالبساط حيث أجلسوني. هذا النوع من التصرّف نابع من التقاليد الاجتماعية للأكراد إذ يحترمون الضيف أجلَّ الاحترام.

لم يستغرق الفحص طويلًا وكانت الدقائق العشر التي أمضيتها في فحصه كافية لأكتشف حالته الصحية المتدهورة. أمضيتُ وقتًا أطول بكثير لأشرح لكبار العشيرة عن سوء صحته وفقدان أي أمل بشفائه الذي أصبح بيد الله وحده.

في الواقع، كانوا يتوقّعون هذا التشخيص السلبي، ولكنهم أرادوا استبيان رأي الطبيب العسكري الجديد لعله يأتي بما لم يأتِ به الآخرون.

أصرّوا أن أبقى إلى موعد العشاء «لئلا يزعل الآغا» كما قالوا. فبقيت!

صبّ أحدهم الماء الدافئ من الإبريق لأغسل يدي وتبعه آخر بمناشف تركية.



قبل البدء بالأكل يجب الهمس «بسم الله» بصوت خافت ولكن مسموع من الحضور، ثم البدء باستخدام ثلاث أصابع بدلًا من الملعقة، على الرغم من أنهم وفّروا لي ملعقة خشبية. من يعرف عادات الأكل عند العشائر سينال رضى الجميع إذا استخدم أصابعه في الأكل كبادرة احترام للمضيف. بعد الانتهاء، من الأكل يتكرر طقس غسل اليدين ويتبعه الشاي الداكن اللون القوي النكهة، وبعدها يكون الضيف حرًا للمغادرة.

أنهيتُ زيارتي بالدعاء إلى الله أن يمنح الآغا العافية السريعة، على الرغم من أن الجميع كانوا يعلمون ثقل المرض عليه وعدم وجود أي فرصة للشفاء.

توقّع المرافقون أنه بعد إيصالي ورجوعهم إلى القرية سيحل الظلام، فالأفضل أن نسرع بالمغادرة؛ فغادرنا.

في طريق عودتنا، خطرت على بالي تساؤلات عديدة؛ الله وحده يعلم ماذا فعل هذا الرجل ليصل إلى ما وصل إليه! كم حربًا شنَّ؟ كيف تمكّن من إعاقة سلطة الحكومة على عشيرة البشدر؟ ما هي التأثيرات التي فرضها على القضية الكردية؟ ما هي المؤامرات التي نفّذها مع السيد تشابمان لإبقاء الأكراد البارزانيين والآغوات تحت السيطرة؟ إلى أي مدى كان تأثيره لإبقاء بابا كركر تحت سيطرة البريطانيين؟ كم كلّف الخزانة البريطانية من نفقات؟

على كل حال، ما رأيته في قلعة دزه أسعدني جدًا. كان إحساسي إنني أحسنتُ الاختيار بقبولي موقع خدمتي العسكرية هذا؛ جبال عالية رائعة المنظر، شلالات وجداول مياه بيض تخلب الألباب، وطريقة حياة بدائية، كأنني أتمتع بإجازة مدفوعة التكاليف.

تكيّفت بسهولة مع الحياة العسكرية. كان مستوصف المعسكر تحت إدارتي، مع ستة أسرّة منتشرة في القاعة. يعمل معي من ضمن الكادر الطبي ممرض واحد مع وجود خزانة واحدة لحفظ الأدوية مع بعض المورفين ومستلزمات ضرورية أخرى.

كان الممرض أكرم تركمانيًا من مدينتي كركوك، لغته العربية ركيكة جدًا ولم يتعلّم اللغة الكردية لكرهه الأكراد. كان سجل زيارة المرضى شحيح المعلومات فأمضينا الأيام في معالجة هذا النقص.

إكتشفت بعد بضعة أيام ان أكرم يشرب المسكرات أثناء الدوام. لم أره يشرب فعليًا ولكنه كان سكرانًا في ساعات العمل، فتملّكني الغضب الشديد. بذلت جهدًا لتأديبه، ولم تجد العقوبات نفعًا. في أحد الأيام صفعته (لم أكن قد سمعتُ بالجنرال باتون ومضاعفات صفعه أحد الجنود بعد)، ولكن من دون نتيجة، فاستسلمت.

بعد مضي بضعة أشهر علّمني هذا الشخص درسًا لم أنسه طوال حياتي والتزمتُ به إلى هذا اليوم: تعلّمتُ ألا أستخف بأي إنسان أو أقلل من قدره أو أستسلم للسلطة التي في يدي.

كان التعاطي مع شخصيات البلدة جزءًا من حياتي اليومية، وهم العقيد عبد الحميد، آمر الكتيبة، خالو رشيد من مكتب شؤون التبغ، الحاكم (القاضي) مصطفى، العقيد مصطفى، بطل الثورة المنسي، ورشدي آوجي رئيس البلدية. كانوا كلّهم من الأكراد ما عدا رشدي الذي كان تركمانيًا من مدينتي وعلى معرفة بأبي. كنا نتقاسم الهموم، ونتكلّم عن مستقبلنا كأقليات في المجتمع. كنّا نكره الشيوعيين ولم نكن من أنصار الثورة لهذا السبب. كنّا نتفق على هذا الأمر فقط. كان رشدي تركمانيًا وطورانيًا في الوقت نفسه، وكنت أنا أرمنيًا ومن ضحايا الحركة الطورانية. حسب اعتقادي، لم يثق أحدنا بالآخر إلا ضمن دائرة المجتمع الذي نعيش فيه.

كان العقيد عبد الحميد كرديًا، لطيف المعشر وطيّبًا ومحترمًا من الجميع، ولكن تعوزه الهيبة والجاذبية. لم يشارك أبدًا في نقاشات تعرّضه للخطر، ولم يكشف عن أحاسيسه الحقيقية. أعتقد أن تصرّفه كان واقعيًا لأنه كان القائد العسكري في المنطقة وعليه أن يحسب خطواته.

كان خالو رشيد من السليمانية ويتكلّم باللهجة السورانية، ويدافع بطبعه الدمث واللطيف عن مبدأ كردستان المستقلّة. كان يقول: «ليس هناك أي سبب



لئلا يحصل الأكراد على حقوقهم، ويحكمون أنفسهم بأنفسهم. ليس هناك أي سبب يدعو إلى عدم تدريس الكردية في المدارس». أعتقد أنه لم يملك أي فكرة عن سبيل تحقيق ذلك. كانت العبارات مثل الحكم الذاتي والاتحاد أو التحالف مع العرب في العراق لا تعني له الكثير. كان كرديًا قوميًا يسعى إلى حصول الأكراد على حقوقهم.

كان خالو مدخنًا شرها ويتعاطى المشروبات الكحولية، ويتنهد باستمرار لتهوية رئتيه ومشاكله وقلقه. كان يسعل بشدة ولمدة طويلة إذا ما بدأ بالسعال. كانت القضية الكردية سببًا لقلقه ومبررًا لدفن مشاكله في الكحول. وإضافة إلى كلّ هذا كان يشعر بتعاسة الحظ، إذ لم ينجب أولادًا ليعطي أحدهم لكردستان ويحتفظ بالآخر لنفسه. كان يؤمن أن منح ولد واحد لكردستان سيعطيه شرفًا يتمتع به الأكراد الآخرون الذين حالفهم الحظ بهذه المأثرة. كان خالو وطنيًا عنيفًا في حبه لكردستان، كان «كرديًا حقيقيًا».

كانت الأوضاع السياسية والأمنية المقلقة، إضافة إلى الشائعات المنتشرة عن السرقات والجرائم المختلفة، تجعلني أشعر بعدم الأمان وبالضعف. شعرت بحاجة ماسة إلى امتلاك سلاح ناري.

إشتريت مسدسًا من نوع Parabellum عن طريق أحد المعارف مع علبة أو إثنتين من الذخيرة وذهبت إلى إحدى الوديان البعيدة لتجربته. بعد أن أطلقت الرصاصة الأولى، وهي الأولى في حياتي، سمعتُ الصدى يردد «أنت محمي»، فشعرت بالثقة بالنفس. قضيت تلك الليلة في نوم هانئ والسلاح تحت مخدتي. لم يخطر في بالي أبدًا أن شراء السلاح سيقلق مضجعيً ليلًا ونهارًا ويسبّب لي مشاكل عظيمة لا تخطر على البال.

الفصل السابع عشر

# مهمّةٌ كارثية

إستلمتُ برقيتين منفصلتين في ٦ آذار ١٩٥٩ واحدة من وزارة الصحة والثانية من مديرية الشؤون الطبية العسكرية تطلبان مني التوجّه نحو أربع قرى بعيدة على الحدود العراقية-الإيرانية بسبب تفشي وباء التهاب السحايا ووباء التيفوس. أعطيت نسخة من البرقيات إلى آمر الكتيبة الذي قام بالترتيبات اللازمة لسفري في اليوم التالي. أرسل معي إثنين من أفراد الشرطة الخيّالة للحماية والتوجيه.

لم أوقع هذه الرحلة، بخلاف آمر الكتيبة الذي تعوّد على استلام أوامر مشابهة من قبل، وكان الأمر بالنسبة إليه روتينًا عاديًا. أما أنا فرحّبتُ بهذه الفرصة لأتمكّن من التعرّف على المناطق الواقعة على الجانب الآخر من قلعة دزه.

في الصباح الباكر، امتطينا صهوات الخيول وبدأنا رحلتنا. كان الوقت بداية الربيع حيث السماء صافية وزرقاء. هبَّ نسيمٌ هادئ فأنعش الأحصنة والخيّالة من تعب المسير. كانت القرى منتشرة على سفوح الجبال، قرية هنا وأخرى هناك، مرتبطة مع بعضها بطريق ضيق يسمح بمرور حصان واحد فقط. كانت المناظر جميلة وجذّابة للغاية كلّما ارتفعنا عاليًا في سلسلة جبال زاغروس. كان التسلّق حادًا وشديد الانحدار. كان علينا أن ننحني نحو الأمام ونتمسّك بالحيوان لئلا نتزحلق نحو الخلف، ونقع في الهاوية.

أحسسنا برقة الهواء كلّما تسلّقنا نحو الأعلى. بدأت الخيول تعاني من الارتفاع وتبذل جهدًا في التنفس وتبطئ في الصعود. أكّد لي رفيقاي الخبيران أن الحيوانات

ليست تعبة بل تعاني مشقة الارتفاع، فبدأت تلهث في التنفّس. مهما كانت الأسباب، كان علينا أن نستمرّ بالركوب والمسير في خط منفرد؛ لم نتمكّن من الترجل لإراحة الحيوانات لضيق الطريق وشدة الانحدار. ولم نتمكّن من تحفيز الخيول على الإسراع لوعورة الممر الضيق والخوف من السقوط. كانت حياتنا تعتمد كلّيًا على هؤلاء «الأصدقاء». كنت قلقًا. إضافة إلى كلّ هذه المتاعب، كان رفيقاي يحكيان عن البغال التي ترمي ركابها نحو الهاوية من دون إنذار، إذا لم يتمكّن الراكب من السيطرة عليها. لم تساعد رواياتهما كثيرًا المبتدئ الذي معهما.

كان الطريق الضيق يلتف حول الجبل معرِّضًا إحدى حافتيه نحو الهاوية دائمًا. كنّا نقف أحيانًا ليتمكّن أحد الرجال من قطع أجمة نبتت على الطريق أعاقت المرور، وأي خطوة في غير مكانها تأخذنا إلى حضرة الخالق.

تمتمت في نفسي «يا إلهي، هل هذا سبيلنا للموت؟ أهكذا تكون نهاية إنسان؟ ماذا يكون حالنا لو تعثّرت المطية؟ وماذا عن فاتحي، ابني؟ هل يستحق أن يكبر من دون أب؟ وماذا عن والديَّ اللذين فقدا أربعة من أبنائهما قبلي وهل سيتحمّلان فقدان ابن آخر؟ أوه، أرجوك يا الله، نجني!

لم أتلُ الصلاة الربانية كثيرًا في حياتي. تذكّرت الكنيسة التي هجرتها وابتعدت عنها؛ تذكّرت كاهن الرعية، خورين كاسابيان، وإيليا، المبشّر البروتستانتي في غرفة المطالعة الخاصة بجماعة كريستيان ساينس. حاولت أن أستعيد هدوئي ورباطة جأشي، على الأقل لا زلت جالسًا فوق السرج.

قلت في نفسي: «أنظر إلى هذه الغيوم، بإمكانك مسكها إذا حاولت». سمعت صوتًا ينهرني من داخلي: «لا تكن أحمقًا، ولا تحاول. لا تفقد توازنك». إستغنيت عن الفكرة. لم أحد نظري عن مراقبة خطوات الحيوانات.

بيوتٌ صغيرة استرعت انتباهي عندما نظرت أمامي. وأما الدخان الأزرق الذي تنفثه المداخن، فكان دليلًا على وجود الحياة في داخل تلك البيوت. تساءلت عن نوعية الحياة اليومية في هذه القرية النائية والبعيدة عن مظاهر التمدّن. يستيقظ



المرء في الصباح الباكر، ويتناول فطورًا من منتجات حقله، يعتني بماعزه وغيرها من الحيوانات الداجنة التي يملكها، يوقد غليونه المصنوع من الفخار، ويتمدّد على فراشه حتى المساء. أما في الليل، فيحاول أن يكثر من نسله لينجب ولدًا لكردستان ويحتفظ لنفسه بمن تبقى منهم.

لماذا يعيش الناس في هذه المنطقة النائية؟ وماذا أفعل أنا هنا؟ هؤلاء الأوغاد الجالسون في بغداد يأمرون الناس لعمل كذا وكذا! كيف عرفوا بوجود وباء هنا؟ لم نستلم أي تقرير يؤكّد وجود حالات مرضية في هذه القرى! هل استجابوا لشائعات؟ أعتقد أن هذا هو السبب. يتحركون استجابة لشائعات ليبيّنوا للناس أنهم يعملون ويفعلون شيئًا! سيطر على أعصابك، فلن تجرؤ أن تفقدها، فتفقد توازنك!

لم تتغيّر الأمور كثيرًا خلال الساعات التي أمضيناها إلا شعوري بالدوار، فنتج عنه إحساس آخر بالارتياح؛ يظهر أن مستوى الأدرينالين قد نضب؛ لاحظت أن مخاوفي قد تبدّدت، ووجدت نفسي جالسًا باستقامة على السرج. وصلنا أخيرًا إلى هضبة منبسطة فترجّلنا عن الخيول للاستراحة. الحمد لله!

كانت الهضبة واسعة. غطّت بقعٌ من الثلج الحقل الذي وصلنا إليه حيث الزهور البرية الناعمة قد بدأت بالتبرعم بألوان جميلة. كنّا في بداية الربيع. ذكر لي رجال قافلتنا أن القرويين يغلون الزهور ويشربون ماءها لمعالجة السعال والبرد وآلام المعدة والإسهال. تمنيت لو أعرف أسماء هذه الزهور الطبّية، ولكنها مسألة غير هامة. هناك مليون من الأمور الخافية عني التي لا علم لي بها.

بعد قليل من الراحة، استأنفنا الرحلة. كوّنت الثلوج الذائبة مساقط مياه صغيرة، واستمرّ الطريق الملتوي عبر الأشجار. رأينا موظفَين يقيسان عمق الثلوج بواسطة قضيب متدرّج ليبلغا بغداد بالنتائج لتتمكّن دائرة الري من تقدير حجم المياه التي ستصب في نهر دجلة عن طريق الزاب الكبير.

عند حلول نهاية اليوم، التقينا عددًا من الناس من قرى متعددة. كانوا رجالًا كبارًا في العمر ونساءً عجائز تكلّموا معنا بأفواه خالية من الأسنان. بينما كانت النساء

الجميلات الأصغر سنًا يقفن بصمت وهن يرتدين الأزياء الكردية الطويلة ذات الألوان الجميلة بأكمام طويلة رفعنها إلى الأعلى وعقدنها خلف رقابهن. في الوقت نفسه، لففن خصورهن النحيلة بقماش ملون لفصل البطون عن الصدور، وغطين رؤوسهن بوشاح خفيف سقط بلطف على أكتافهن. سأل أحد مرافقيَّ رجلًا:

– كاكا، هل يوجد عندكم مريض؟

– نه.

– هل مرض أحدٌ هنا أو مات شخصٌ من المرض في القرى المجاورة؟

– والله نه زانم.

لا يهم السؤال الذي طرحنا عليه، كان ردة دائمًا «والله نه زانم».

لم يكن الأمر أنهم لا يعرفون ما جرى في القرى المجاورة، ولعلهم كانوا صادقين، ولكن حتى لو كانوا على علم بمجريات الأمور عندهم، لما أفصحوا عن الحقيقة لئلا تسبّب لهم الأذى مستقبلًا.

كانوا مرتابين من الأغراب لدرجة أنهم يحتفظون بأسرارهم لأنفسهم، ويتجنّبون الحديث خوفًا من أن يكون الأغراب من رجال الحكومة. في هذه الحال، كنا من موظفي الحكومة.

«نه زانم، راحة جانم»، سيكون بالي مرتاحًا إنْ قلتُ لا أعرف. مقولةٌ كردية للابتعاد عن المشاكل.

لعلهم تعاونوا معنا أكثر لو لم نأتهم بالزي الرسمي. كانوا يستاؤون من الشرطة حتى لو كان هؤلاء من الأكراد، لأن رجال الشرطة جعلوا حياتهم لا تطاق، إذ كانوا يأخذون الرشاوي ويقبضون على الناس ويمثلون الأدوات الوحشية للحكومة.

وعلى الرغم من كلّ هذه السلبيات فالأكراد مضيافون. أينما ذهبنا قدموا لنا اللبن الخاثر والشاي والخبز الطازج. ويتساوون في كرمهم مع البدوي العربي وسكان القرى العربية. وبخلاف عرب الأرياف، الأكراد مشهورون بالنظافة؛



أدواتهم المنزلية تلمع دائمًا ويعتني القروي الكردي بالنظافة الشخصية وذلك لتوفر المياه الجارية في بيئته الجبلية على عكس العربي في بيئته الصحراوية.

كان علينا المسير عدة أميال أخرى قبل الوصول إلى محطتنا الأخرى لقضاء الليل في قرية تعدادها مائة شخص. أسرعنا الخطى للوصول قبل حلول الظلام. لا أتذكّر اسم تلك القرية. لعلني تذكرتها لو لم نواجه حادثة كبيرة. أخذنا التعب نحن الثلاثة من الرحلة. تقوّست رجلاي وآلمتني مؤخرتي من طول مدة الركوب على السرج. إستضافنا رئيس القرية في داره. شعر الرجل بالفخر وهو يضيّف ضابطًا في الجيش وطبيبًا في الوقت نفسه. ذبح رجاله دجاجتين وبدأت النساء بتحضير الطعام. أكلنا بشهية كبيرة ونحن جالسون على البساط المفروش ثم استمتعنا باستكانات الشاي الأسود المحلّى.

كانت جدران الغرفة الطينية عارية إلّا من صورة مؤطرة لكلمة «الله»، وبندقية معلّقة من مسمار طويل. مصباح نفطي بضوئه المتردد أضفى علينا سكينة نور هادئ مع إيقاع رتيب ، بلب-بلب، بلب-بلب، أضافت الطمأنينة إلى الليل وساعدتنا على النوم. لم يجرِ حديث طويل بيننا حيث تغطّى كلّ واحد بغطاء وأشعل سيجارته وأدخلها في حامل طوله قدم واحد يستعمله في التدخين. وأما أنا كنت أستمتع بغليوني وأجتر المناظر الطبيعية الجميلة التي رأيتها في طريقنا. إستغرقت في النوم وأنا جالس في مكاني. عندما استيقظت في الصباح شعرت براحة تامة وكنت على استعداد للسفر إلى القرية الأخرى. لم يبلّغنا رئيس القرية عن أي حالة مرضية في منطقته.

إنتهيت من غسل وجهي بالكاد بماء النبع البارد عندما اقترب مني أحد حراسي وأمرني أن أعطيه رسغَي. بدا مضطربًا عندما قيَّد يدي «حسب الأوامر الصادرة من القيادة.» لم أفهم ما يجري، وكانوا هم في الظلام أيضًا. أخبروني أن حرس الحدود استلموا برقية تطلب اعتقالي ونقلي إلى قلعة دزه. أصبتُ بصدمة عنيفة واعتراني الاضطراب. ظننت أن هناك سوء فهم، وإن لا، فلماذا يطلبون اعتقالي؟ ماذا فعلت لتصفد يديَّ بالأغلال؟ سألت: «هل بإمكاني أن أرى البرقية؟»

- كلا، لا يمكنك ذلك.
- أليس من حقي أن أعرف من وقّع على الأمر؟
- لا، ليس من حقك.

مرافقَي اللذان كانا قبل يوم واحد فقط، مطيعين وخانعين لدرجة التذلّل، أصبحا اليوم يلعبان لعبتهما معي بكلّ خشونة؛ أصبحا فطِنَين لأنهما منذهلان مما يحدث وخائفان من مهمة كبيرة كمثل اعتقال ضابط طبيب في الجيش.

ركبنا الخيول وتقدّمنا بخطى ثابتة. لم أرَ في طريقي جبالًا أو سمعت خرير مياه الينابيع والشلالات أو براعم الزهور البرية التي تنبت من تحت بقع الثلج. لم أتمتّع بالمناظر الطبيعية في هذه الرحلة. تراءى لي أن الجبال قد ذابت بشكل حمم سوداء في ذلك اليوم الربيعي. كان الثاني عشر من شهر آذار.

عند الغسق شعرت أننا نقترب من قلعة دزه لسماعنا أصوات بشرية بشكل إيقاع متناغم. وبعد برهة قصيرة تحوّلت هذه الأصوات إلى ضوضاء مقلق وارتفعت بشكل صياح بشري، فتسارعت ضربات قلبي مع تصاعد حدة الصراخ.

بانت الرؤوس أولًا من مسافة معينة ثم ظهرت الأبدان فالأرجل كلّما تقدموا في مسيرتهم نحو مرتفع من الأرض. كان الغوغائيون من بضعة آلاف وهم يصرخون، «ماكو زعيم إلا كريم، كواويد بعثية»، اقتربوا منا وهم يظهرون دعمهم لـ«القائد الأوحد» ضد جمال عبد الناصر وأتباعه، «الوحدويين، الخونة، الرجعيين، وأعداء الثورة».

كان التجمّع عدائيًا من دون شك وهم يلوحون بالعصي والهراوات والخناجر والمسدسات. بصقوا عليّ وحاولوا سحب قدمي لإسقاطي عن صهوة الحصان، وصبوا جام غضبهم عليّ كأنني سبب مآسيهم، أو أنا الوصي أو نوري السعيد. إستمروا بالصياح، «خائن، خائن».

كنت خائفًا. إلتصق لساني بسقف حلقي. تمتمت بكلمات لم أستطع قولها من شدة الخوف. كيف أستطيع الكلام ومع من؟ من يستمع إلى كلامي؟ من سيصل إلى تفاهم



معي؟ كان الحشد ممسوسًا ومأخوذًا ومستعدًا للانتقام من آغواتهم، من الإمبرياليين والرجعيين وبقايا النظام السابق، وكنت أنا هناك، حاضرًا، أجسّد كلّ هؤلاء.

ما كنت أراه أمام ناظري جسد ولي العهد الممزّق والمسحول في الشوارع؛ فقد تعلّم العراقيون أسلوبًا جديدًا للتعبير عن غضبهم: جلب الموت للبشر الأحياء عن طريق سحلهم في الطرقات. ظننت لبرهة أن المصير نفسه سيصيبني.

بدأت الأسئلة تجول في بالي بتكرار وبشكل جماعي:

هل مات الوصي على العرش قبل تقطيع جسده أو بعده؟

هل شعر بشيء آخر غير الألم؟

هل كان يصرخ للحصول على النجدة أم يتوسّل من أجل الرحمة به؟

لا، ما كان من صفاته أن يتوسّل من أجل الرحمة! من الصعب التفكير في هذا الأمر!

كم استغرق من الوقت قبل أن يموت؟

كنت أذوب من الخوف في إحساسي الداخلي، أما في الخارج فقد حافظت على رباطة جأشي واتزاني. أعتقد إذا أظهر الشخص في سلوكه الخارجي رباطة الجأش والهدوء والاستخفاف والمواجهة حتى لو كان داخله يتحلل ويتفسّخ، سيترك تأثيرًا نفسيًا على الغوغائيين؛ لعل سلوكه هذا لن يشجعهم على الهجوم عليه. إنه من الخطأ أن يلعب المرء دور الميت تحت هذه الظروف. لم أفعل ذلك!

كان هذا هراءٌ في هراء، هراء نظري وتجريدي! في الواقع، لم يغيِّر سلوكي في ذلك الوقت أي شيء البتة؛ كانوا يهجمون علي وفي نيتهم سحلي، وكادوا أن ينجحوا في ذلك لو لم يتدخل أحد حراسي في الوقت المناسب. فقد جلب انتباههم عندما صرخ في وجوههم: «قبضنا على رجل، ولا نعلم بعد إن كان خائنًا، على الرغم من اتهامه بذلك. من الممكن ألا يكون خائنًا! من الممكن أن يكون شخصًا مهمًا لهذا طلبوا القبض عليه، فإن قتلتموه الآن سنخسر معلومات مهمة! دعوني أسلّمه إلى

السلطات المختصة، فهم يعرفون كيف يتعاملون معه. أنتم تثقون بالقادة الجدد، اليس كذلك؟ إنهم ثوار وسيفعلون الشيء الصحيح».

أعطانا خطابه الممر الآمن، على الرغم من عدم تفرّق الغوغائيين؛ فقد ظلوا يتبعوننا بشعاراتهم وتهديداتهم الاعتيادية. وصلنا إلى أبواب المعسكر بعد عشر دقائق. أخذني الحراس إلى الداخل، وأبقوا الغوغائيين في الخارج وقد استمروا بالتظاهر وإطلاق التهديدات، فشعرت بالأمان!



## الفصل الثامن عشر

# رحلةٌ طويلة

فتح العقيد عبد الحميد التحقيق الرسمي في تلك الليلة قائلًا: «دكتور آستارجيان، هذا هو الرفيق شفيق من المقاومة الشعبية».

-أنت تعرف العقيد مصطفى. طبعًا تعرفه، وتعرف أيضًا الحاكم مصطفى. لقد عيّنتنا القيادة لإجراء تحقيق أولي في قضيتك. أعرف أن أسئلتنا ستكون بسيطة. أعرف عن رحلتك إلى الحدود الإيرانية، لأنني أنا الذي رتبتها، وأنا الذي وقّعت على أوراقك الرسمية الخاصة بمهمتك، وجهّزت لك وسائل الأمن، وأعرف الأسباب الموجبة لرحلتك. أبلغنا المخبرون أنك كنت تحاول الهرب إلى ايران. أليس كذلك؟

-سيدي، لقد ذهبت إلى منطقة الحدود لأتحقق من وجود أمراض معدية في القرى الحدودية، رأيتَ بنفسك الأوامر الصادرة من بغداد في هذا الخصوص، ورتّبت بنفسك لوازم السفر ومتطلبات الأمن. لماذا أهرب إلى إيران؟ زوجتي وابني موجودان هنا! وها هي نسخ من البرقيات التي أعطيتني إياها.

-نعم، نعم، أحتفظ بها أيضًا، لا أفهم ما يجري، لا أستطيع أن أفهم كلّ هذا! لقد ذهبتَ إلى هناك بواجب رسمي. أنا جهّزت جميع متطلّبات سفرتك، فقط أنا لا أفهم ما يجري!

كان يتكلّم وينظر إلى الرفيق شفيق الذي كان يجلس بوضع مهيمن ومسيطر ينظر مثل كلب مسعور، مثل ابن عاهرة مليء بالانتقام، يتنفّس النار بدلًا من الهواء.

-هل تنتمي إلى حزب البعث؟ سألني الرفيق بصيغة الأمر وبصوت شديد النبرة.

- لا، لا أنتمي.
- هل تعرف العقيد الشوّاف؟
- عقيد مَن؟ لم أسمع به أبدًا!
- يعني أنك لا تعرف ذلك الخائن؟
- لا، أعتذر، أقصد، لا أعرفه.
- تقصد أنك لا تعرف عن الأحداث التي تجري في الموصل؟
- لا، لا أعرف؛ أي أحداث؟
- عقيد مصطفى، هل لديك أي أسئلة؟ تدخّل العقيد عبد الحميد مقاطعًا.
- لا، لا توجد لدي أي أسئلة.

نظرت إلى العقيد مصطفى وتصورته يرمي أفراد العائلة المالكة بالطلقات «خوفًا من أن يغيّر هؤلاء العرب الخونة آراءهم تحت ضغط من البريطانيين أو السي آي أي ويعيدون تنصيبهم». ظننت أن «بطل الثورة» الذي صادقني في نفيه الداخلي، بكى على كتفي وأفصح عن مشاعره الداخلية عن العرب وخداعهم للقضية الكردية، سيأتي إلى نجدتي. لا، لم يفعل! في الوقت نفسه، لم يتفوّه بأي شيء يفضي إلى إيذائي.

كانت الأسئلة بسيطة وصريحة. ظننت أن شهادة العقيد عبد الحميد مع الهدوء الذي سيطر على مجريات التحقيق، جاءت كلّها في مصلحتي. كانوا قد أزالوا الأصفاد من يدي، فشعرت بالأمل والراحة.

كان العقيد عبد الحميد مهذبًا ورقيقًا وأنهى التحقيق قائلًا، «أنا متأكد من وجود سوء فهم في الموضوع، وسيجري ترتيب الأمور في الصباح. يظهر عليك التعب يا دكتور، فقد مرّرت بالكثير، لماذا لا تأخذ قسطًا من الراحة؟ من أجل حمايتك، ستبقى



في المعسكر وسيكون هناك جنود لحمايتك؛ لا تقلق من أجل زوجتك وابنك. ستعتني زوجتي وزوجة الحاكم مصطفى بهما».

توضحت الأمور قليلًا حول قضيتي التي كانت ذات علاقة بثورة قائمة في الموصل، وبطريقة ما يحاول هؤلاء ربطي بها. ماذا أفعل مع هؤلاء الناس؟ لا أعلم حتى من يكونون، أو من هو هذا الشوّاف! لم أستطع أن أفهم مجريات الأمور هذه. لم يخطر على بالي الكثير؛ كنت بريئًا، وملتزمًا بالثقة، وساذجًا.

كان ملاذي في تلك الليلة خيمة نُصِبَت لي قرب مكتب العقيد عبد الحميد. لم أكد أن أجلس على السرير حتى دخل جندي وأدى التحية العسكرية وقال لي وهو في وضع الاستعداد:

«سيدي، أنا هنا لحراستك، فاشعر بالأمان! سيدي، هل ترى هذا السلاح؟ سأدخله في مؤخرة من يحاول أن يؤذيك. لا تقلق وخذ راحتك.» أخذ نفسًا عميقًا وقال، «لا بد أنك جائع، أنا متأكّد أنك لم تأكل طيلة اليوم. هؤلاء الأوغاد، هل ترغب أن آتيك بشيء من الكباب؟ سآتيك به».

كنت منذهلًا؛ كان هذا الشخص العريف أكرم، الممرض السكير الذي كنت أعاقبه من دون رحمة، والآن في وقت مأساتي يستجيب بتضحية النفس والكرم والرقة. أحسست بأنني مغفل لمعاقبتي هذا الشخص الرقيق القلب والمُراعي لشعوري. أحسست بالصغر والمذلة. ذاب تصوري إلى دموع مثل الثلج الذي أعجبت به على الجبال ولكن مع غياب الأزهار الجميلة التي ترفع رؤوسها من خلاله.

هذه البادرة اللطيفة منه جعلتني أكبر بعقد أو عقدين من العمر، وفي تلك اللحظة أخذت عهدًا على نفسي أن لا أستصغر أي بشر مهما كان. لم أنكث بالعهد لأكثر من أربعين سنة.

سيطرتُ على دموعي بصعوبة وقبلت دعوته مقتنعًا أنها ستكون آخر وجبة أتناولها ولو لفترة من الزمن. لم يعطِ الكباب أبدًا ذلك المذاق الطيب في فمي. سحبت الغطاء على رأسي، كنوع من الحماية حسب تصوري، ونمت.

بعد أن نمت ثلاث ساعات أيقظني صوت في الساعات الأولى من الصباح: «سيدي، سيدي، استيقظ.» فتحت عينَي لأجد العريف أكرم. «إستيقظ، سنترك هذا المكان، يعتقد الآمر أنه لن يتمكّن من حمايتك من الغوغائيين عند حلول الصباح، لهذا قرر أن يُخرجك من هذا المكان ويرسلك إلى القيادة العامة في السليمانية». كنت في الزي العسكري عندما نمت. لم أملك شيئًا لآخذه معي غير حقيبة الطبيب الجلدية القديمة التي تحتوي على بعض اللوازم الطبية، والبرقيتَين اللتين حددتا مهمتي نحو القرى الحدودية. جهّزت نفسي ولبست حذائي!

خلال دقائق قليلة كنّا في سيارة الإسعاف العسكرية في طريقنا إلى خارج البلدة. مرّ السائق عبر المدينة مطفئًا أنوار السيارة. تنفسنا الصعداء بعد عبورنا الجسر الواقع في ضواحي المدينة. لا يمكنهم القبض علينا الآن حتى لو علموا بهروبنا.

مع حلول الفجر كنّا ابتعدنا عن قلعة دزه. كان أكرم معي في الخلف يحمل رشاشه وحارس آخر في الأمام مع السائق. حال ابتعادنا عن المدينة خيّل لي أننا ابتعدنا عن منطقة الخطر، وكان هذا ما حصل فعلًا! من غير اعتبار للعوائق، كان الوقت باكرًا لأفكر في أمور جدية؛ ولكن حلّ هذه المعضلة كان شغلي الشاغل. لم أستطع أن أركّز تفكيري على وضع واحد؛ كان فكري ينجرف من الإعجاب بجمال المناظر الطبيعية التي زرتها إلى الشعور بوضعية الأمان الكاذب التي أنا بها الآن، إلى الخطر المحدق بي، ثم إلى الحياة والموت. وعلى الرغم من كلّ هذه الأمور لم أتمكّن أن أصرف النظر عن عدم إمكانية وصف المناظر الجبلية الجميلة. أوه، كم كنت فرحًا برؤيتها!

في منتصف النهار وصلنا إلى معسكر الجيش في السليمانية، فأزالوا القيود عن يديّ. إستلمني أحد الضباط الذي سألني عددًا من الأسئلة المعتادة. في الوقت نفسه، استولوا على حقيبتي الطبية التي كانت تحوي السماعة وبعض من الأدوات الطبية والبرقيتين، وتحفّظوا عليها.

كنت أعتقد أن الحقيبة مصدر دفاعي الرئيسي، ولكنها لم تكن في حوزتي، وهذا ما أقلقني جدًا! إذا أتلفوا هذا الدليل المادي أو أضاعوه، فبإمكانهم أن يتهمّوني بأي



تُهمة؛ هؤلاء شيوعيون وبإمكانهم تدبير أي شيء لاتهامي. ماذا يمكنني أن أفعل حينئذ؟ إستنتجت أن كلّ ما جرى إلى الآن كان بسبب سوء تفاهم، ولن يتلفوا أي دليل تحت أيديهم. وحسب اقتناعي، كان عليهم أن يأتوا بي إلى هنا تطبيقًا لمبدأ سلسلة المراجع العسكرية. ومما زاد من اقتناعي في إطلاق سراحي المعاملة الطيبة التي لقيتها إلى الآن. بعد أن قرأ الضابط الخفر ما في أوراقي قال: «دكتور، أعتقد أننا لا يمكننا أن نطلق سراحك، ولا نستطيع حلّ هذه المعضلة هنا. لم نفهم مشكلتك من بداية الأمر! يجب أن يكون هناك سبب آخر لإرسالهم في طلبك. تكلّمنا مع القيادة في كركوك فطلبوا استجوابك بأنفسهم. هم سيقررون ما سيفعلون في أمرك».

- ولكن ماذا يطلبون، هل بإمكانك أن تخبرني؟
- لو علمنا بالأمر لأخبرناك، ولكننا لا نعلم. يطلبونك هناك!

سلّمت على أكرم وودعته، وشكرته على طيبته وكرمه، ثم صعدت إلى سيارة الجيب بعد أن وضعوا القيود في يدَي، واتجهنا إلى مقرّ قيادة الفرقة الثانية في كركوك.

كان المكان معروفًا بتسميته العثمانية، «القشلة»، وهي القشلة نفسها التي كنت أجتازها لسنين عديدة في طريقي إلى المدرسة المركزية أو مكتبة سيد عباس. كانت مقابل غرفة قراءة جماعة كريستيان ساينس، ولم تكن بعيدة عن محلات تموين وبقالة يملكها الأرمن: كاريكين دولكيريان، كريكور ياغلجيان، فاهان دولكاريان، وإستيبان.

كان المكان مألوفًا لدي فأحسست بالاطمئنان، ولكن القشلة كانت غير تلك التي أعرفها، كانت مليئة بالحركة بشكل غير اعتيادي: سيارات الجيب وضباط برتب عالية وجنود يدخلون إليها ويخرجون باستمرار. سيارات مليئة بالجنود تسير في كلّ الاتجاهات. جنود يحملون رشاشاتهم. يحرس أفراد الانضباط العسكري المدخل من جهتيه وهم مدججون بالأسلحة الرشاشة بدلًا من البنادق العادية التي يستخدمونها في العرض. كلا، لم تكن القشلة نفسها في هذه المرّة، كانت مختلفة؛ لم يكن المكان على عادته مسترخيًا في النوم والهدوء، كما عهدته من سنوات.

دخلنا غرفة تحت الرواق حيث كان أحد الضباط موجودًا، ومن دون أن يعيرني أي انتباه، أمر أحد الحراس أن يودعني الحبس. عندما تركت الغرفة رأيت غرابيت (ليس اسمًا حقيقيًا)، أحد موظفي ثانوية الأرمن في بغداد والذي كنت قد كتبت عنه تقريرًا عند تقييمه قبل عدة سنوات.

كانت الشائعات تتناوله حينئذ على أنه شيوعي، وأثبت وجوده في هذا المكان أنه بالفعل كان شيوعيًا، أو على الأقل متعاونًا معهم. رآني وتعرّف عليّ من دون شك، ثم تبادل الكلام مع الضباط المتواجدين. عرفت من نظراته وإشارات يديه أنه تكلّم عني بعدائية.

تبيّن لي بأنني معتقل. رافقني إثنان من الحراس وفتحا بابًا حديديًا وأدخلاني عبره. كان الممرّ مظلمًا ورطبًا وكئيبًا. إجتزنا عددًا من الزنزانات المليئة بالمعتقلين وفتحا باب إحداها ورمياني فيها وأغلقا الباب عليّ. أصبح واضحًا بأنني في سجن المحكومين عليهم بالإعدام في غرفة مساحتها أربعة أقدام في سبعة أقدام وذات سقف عال يتدلى منه مصباح صغير قليل الضوء ولا يمكن الوصول إليه. كان باب الغرفة يسمح بالنظر نحو ممر خافت الضوء، يقود إلى بابٍ بنافذة صغيرة تسمح برؤية شعاع ضوء النهار في الطرف الأبعد منه. كان ينبعث ضوء خافت من مصباح معلّق من السقف العالي للممر.

كان الأثاث الوحيد الموجود في الغرفة فراشًا هزيلًا ووسخًا للغاية تنبعث منه الروائح الكريهة ومفروشًا على الأرضية الرطبة الصلبة. كانت آثار البراز والبول وقذف المني والدم في كل مكان.

أما الجدران فكانت مليئة بالعبارات المكتوبة بالغائط بدلًا من الطباشير:

«وصيتي الأخيرة...». توقيع مصطفى أحمد من شاطرلو.

«إلى ابني أحمد: أنا راحل، إعتني بأمك وأختك الصغيرة». توقيع جاسم.

«أنا بريءٌ؛ أطلب منك أن تثأر من شنقي...».



«لم أقتل، لا توجد عدالة في هذا البلد». شكري.

«إلى أمي خديجة: سلام والوداع إلى أن نلتقي ثانية في الآخرة».

«إلى أخي علي: أنا بريء، لا يصدقونني، لم أقتل!»

«أشهد أن لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

رسم أحدهم صورة زوج من الأثداء بلون القهوة على الجدار وبجانبها عضوا ذكريا للموازنة. كنت متأكدًا بأنني في سجن المحكومين عليهم بالإعدام.

كانت الصراصير تمرح في الغرفة مع فأر صغير كأنها تحتفل بقدوم ضيف جديد، ومصدر جديد لبقائهم على قيد الحياة. لم أقتلهم، لم أتمكّن من ذلك؛ كيف، وهم رفقتي من الأحياء في تلك الزنزانة. تساءلت بداخلي لو تمكّنت من تدريبهم! هل أستطيع أن أدرّبهم على السباق؟ لعلني سألهو كثيرًا في مراقبتهم! ظننت أن بإمكاني أن أفعل ذلك، ولكن هذا سيستغرق وقتًا طويلًا، ولن أكون هنا لوقت طويل لتدريبهم! لعلني يجب أن أقتلهم جميعًا، فهم قذرون! ولكن لأي سبب؟ ماذا فعلوا لي؟ ها إنك تسأل عن العدالة لنفسك وتنكر حق الحياة لهذه الصراصير؟ ما هذا المنطق؟ هل أنت قاتل؟ مجرد أن بإمكانك قتلها، فهل هذا تبرير للقتل؟ من الممكن أن الله خلقهم لسبب ما لا نعرفه نحن! أنا متأكّد أنها لا تريد أن تموت؛ ولا أنا راغب بالموت. نعم، الله موجود طبعًا! لا يهمّني ما قالت العمة فكتوريا، فأنا متأكّد أن الله موجود، نعم هو موجود! يا الله! هل ستساعدني؟ أعلم أنني لم أذهب إلى الكنيسة منذ وقت طويل لتمجيدك، ولكنك ترى أنه ليس خطأي. إبتعدت عن الكنيسة لأن الأب خورين، القس، لم يستطع أن يجيب على أسئلتي، ثم قال كلمات غبيّة عن تسييل دماغي إذا مارست ما اكتسبته من وصولي إلى سن البلوغ. أنت تعرف قصدي!

حسنًا، إذا كان الله موجودًا لماذا أنا في هذا المكان؟ لماذا لا يأتي إلى نجدتي؟ لم ينقذ مليونًا ونصف المليون من الأرمن أثناء الإبادة الجماعية التي ارتكبتها تركيا! أي نوع من الله هو، أو هي؟ وماذا عن ابني وزوجتي؟ أعتقد أنهم سيكونان على ما يرام؛ ستراعهم عائلتي!

لعل هذا المدعو الله شخص طيّب، ربما لا، إنه مذكر حصرًا وليس مؤنثًا! يجب أن يكون فنانًا، أتذكّر كيف كانت الجبال والشلالات جميلة المنظر في كردستان؟ الله وحده يستطيع أن يخلق جمالًا كهذا! أوه، أتمنى أن أكون هناك في هذه اللحظة. الخبز الحار اللذيذ واللبن الرائب الثخين والدافئ الذي تناولناه في تلك القرية! كان يجب أن أولد في عائلة فلاحية مثل تلك؛ لكانت الحياة أبسط وأكثر مرحًا. هل تذكر الصبايا الكرديات اللواتي كن يمشين في الجوار من غير حمّالات صدر، وأثداؤهن تهتز مثل رؤوس الحملان الحديثة الولادة؟ أوه، كم أتمنى أن أكون راعي غنم أرعى قطيعي في جبال كردستان!

ولكن، انتظر لحظة! أنت أرمني ولستَ كرديًا، وهذه الجبال كردية وليست أرمنية. حسنًا، نحن لدينا جبالنا أيضا في كيليكيا وجبل آرارات! حسنًا، أتمنى أن أكون راعي غنم أرعى غنمي في جبال أرمينيا. يجب أن تكون جميلة جدًا، إنْ لم أقل أجمل. أتصوّر أنها أجمل بكثير لأنها تعود لي، نعم! جبال آرارات وكيليكيا تعود لي على الرغم من عدم تواجد الأرمن فيها الآن. هؤلاء الأتراك الأوغاد، قتلوا من قتلوا، وهجّروا أكثر من مليون منا إلى صحراء دير الزور في سوريا ليلاقوا حتفهم، ولكن هل متنا؟ لا، فنحن أحياء! ولكن، هل نحن أحياء؟ هل أنا حي؟ وكم من الوقت سأبقى حيًا؟

أووووه، ها قد ظهر فأر صغير آخر.

كيف الخروج من هنا؟ حرس! حرس! حرس!

ليس من جواب.

أحسست فجأة بضيق المكان عليَّ كسترة كانت بمقاسي قبل عقد من الزمن، ولبستها الآن. كان الجو ملطخًا بروائح الرطوبة والبول والغائط، ولم تكن هناك الكفاية من الهواء للتنفّس بسهولة.

لا أذكر الكثير مما جرى في ذلك اليوم. لا أذكر حتى إن أعطوني شيئًا للأكل. ومن لديه الشهية للأكل؟ كنت أريد فقط الخروج من بيت الفأر ذاك!



كنت يائسًا من إرسال الخبر إلى أبي الذي له علاقات مع أناس كثيرين، ومن الممكن أن ينقذني. أتمنى أن أتمكّن من إرسال الخبر إليه، ولكن كيف؟

إستمريت بالصياح لعل الحراس ينتبهون لي ويأتون. فكّرت أن أُرشيهم إذا أتوني، ولكنني لا أملك أي نقود معي. وإذا أرسلتهم إلى أبي سوف يكافئهم لإيصالهم الخبر. إستنتجت في نهاية الأمر أن هؤلاء الجنود مشبعون بالفكر الشيوعي، وليسوا حراسًا عاديين غير مثقفين الذين يقبلون الرشوة. فهؤلاء جزء من المنظّمة الشيوعية ويطبّقون ما يمليه عليهم مخطط ثورتهم.

أيقظني صوت صرير الباب بعد أن غفوت قليلًا. كانت الزنزانة شبيهة بتلك التي في سجن Sing Sing لوجود قضيب معدني بشكل زاوية في القاع. فتح عريف باب الغرفة وأمرني أن أخلع حذائي، ففعلت ذلك. أوقفني على حديد الزاوية وربط يدَيَّ وقدمَيَّ بشكل حرف X. بعد عدة عقود من الزمن، عندما رأيت الرئيس ريشارد نيكسون، إثر استقالته من منصبه، وهو واقف على باب طائرة الهيليكوبتر، رافعًا ذراعيه إلى الأعلى، تذكّرت وضعي وأنا واقف على باب السجن، مربوط اليدين والقدمين؛ شعرت بألمه الذي كان نفسيًا وليس جسديًا، على عكس ما كنت أشعر به.

الوقوف على قضيبٍ حديدي بشكل زاوية وبقدمين عاريتين، مؤلم جدًا، فهو لا يقطع أسفل القدم بل يسبّب ألمًا مبرحًا لا يمكن تحمّله. ولكن الوقوف على قضيب حديدي وبقدَمَين حافيتَين، والرسغان مقيّدان إلى الأعلى لهو مؤلم أكثر بدرجات. لم أفكر بشيء ولم يخطر على بالي شيء. أصبت بالجنون؛ فقدت أعصابي بحق. كيف أستطيع أن أتحمل هذا الوضع الجسدي، وإلى متى؟ غادر السجّانون زنزانتي. لم تفد توسلاتي معهم لإطلاقي سراحي. طلبتُ منهم الرحمة، فأجابني أحدهم، «أيها المتآمرون البعثيون الأوغاد، كنتم تريدون حرف مسار ثورة الشعب، أنتم أعداء الشعب، لا تستحقون أية رحمة».

لم أتمكّن من الاحتفاظ برأسي منتصبًا وأنا في ذلك الوضع الجسدي شبه المعلّق. كانت الأغلال تقطع رسغي، وتؤلمني قدماي بالشدة نفسها. رأيت الصراصير

والعناكب تتسلّق الجدار، فتساءلت لماذا تتمكن هذه الحشرات أن تبقى في وضع مستقيم بينما أعاني أنا من ذلك؟ تخيّلت الأمر من دون نتيجة.

بالأضافة إلى الألم، كان الحبس الانفرادي وتقييدي سجنًا مضاعفًا لي؛ للجسد والروح.

في الحقيقة لم أدرك كم من الوقت مضى وأنا أعاني من ذلك الوضع، ولكنه تراءى لي كأنه الدهر بأكمله.

دخل العريف ثانية فظننت أنه استجاب إلى صياحي ورجائي؛ فكّ أغلالي وأمرني أن أرتدي حذائي ثم أخرجني من المبنى إلى حيث أشعة الشمس الساطعة التي أفقدتني البصر لوهلة، ثم مررنا عبر باحة نحو المبنى الذي كان فوق رواق المدخل.

تسلّقت الدرجات بصعوبة والألم يعصر قدميَّ. رغم كلّ شيء، أحسست بالراحة وأنا أستنشق الهواء الطلق وأرى ضوء النهار. فتح السجّان بابًا خشبيًا ضخمًا وأدخلني إلى بهو فسيح يقود إلى غرف عديدة. قادني إلى غرفة في الزاوية اليسرى التي كانت تطل على غرفة مطالعة جماعة Christian Science، تعرّفت مباشرة على الضابط المسؤول.

تلفظّت بشيء من التشجيع والقوة: «أوه، عدنان، كم جميل أن أراك هنا بعد غياب سنوات طويلة. كيف حال كنعان (شقيقه)؟»

كان ذلك الضابط عدنان العزّاوي، صديق أيام الحداثة. كان أحد الحاضرين في لقاءات الظهر في صيدلية «العراق»، والشيوعي الذي حاول ضمّي إلى صفوف الشيوعية. شعرت بصيص أمل في قلبي، وظننت أنه قادر على إطلاق سراحي.

«ها، أرى أنك واحد منهم ، هنري! أنا آسف هنري، هذا حزبك؛ ليس لدي أي دخل في الموضوع. لن أستطيع مساعدتك، وسوف لن أترأس جلسة التحقيق. سأغسل يديَّ من قضيتك، فقط لأجل الأيام الماضية».



بهذه الكلمات ترك صديق الطفولة، الرائد عدنان العزاوي، الصالة في الطابق الثاني من القشلة حيث كان الشيوعيون يقيمون «حفلات التعذيب» لاستخلاص الاعترافات من «أعداء الثورة».

قال لي عدنان، وعلى وجهه ملامح غير مفهومة: «الصداقة شيء والعقيدة شيء آخر»، كأنما ينقل عبارة من الكتب الإرشادية « كيف تحقق مع رفيق حزبي» الصادرة عن الكرملين.

بعد مدة طويلة، فكّرت بما حدث في ذلك اليوم وأدركت أنه كان في مأزق؛ لم يكن من الممكن أن يترأس جلسة الاستنطاق بسبب ذكريات الطفولة، والشعور بالكثير من الذنب؛ وفي الوقت نفسه، لم يكن باستطاعته أن يطلق سراحي، لأن القضية كانت خارج نطاق صلاحياته. كان يعتقد أنه بغسله يدَيه من قضيتي قد وجد الحل المناسب لمأزقه. كان بإمكانه أن يستمر بالتحقيق بطريقة متحضّرة، ولكنه لم يتمكّن من ذلك لأن التعذيب كان واجبًا. بيد أنه لو كانت نيته صافية ولم يرغب بالانتقام من الماضي، لأمرَ بتعذيبٍ زائفٍ، أو حتى خفيف من دون إلحاقِ الأذى، وفق متطلّبات الاستجواب، بدلًا من تركي بين أيدي الوحوش.

أُصبت بالدوار! تذكّرت كلماته، «ستنتصر الشيوعية يومًا ما وتسود العالم». و«ستستيقظ الشعوب المقهورة يومًا ما وتطيح مصاصي الدماء الذين سحقوا صدورها بثقلهم لمدة طويلة».

تراءى لي أن هذا هو اليوم الموعود؛ وظننت أنه يومه هو، ولكنه يومي أنا أيضًا، ولو بطريقة مغايرة، إذ قلتُ في نفسي: «يا ابن العاهرة، لقد أثبتَّ بنفسك وجهة نظري، كنتُ صائبًا، آنذاك والآن؛ هذه هي الشيوعية التي كنتُ أُفسّرها لك، تستطيع أن تأخذها الآن وتحشرها في مؤخرتك».

وبدأت الحفلة، بعد خروج عدنان بوقت قصير.

– هذه بعض الأوراق، أريدك أن تكتب كلّ ما تعرفه.

- كل ما أعرفه عن ماذا؟ لا أعرف حتى سبب وجودي هنا! ماذا فعلتُ وما هي التهم المنسوبة إلي؟
- كلّ شيء عن تهريب السلاح من إيران، دورك ومنصبك في حزب الطاشناق، ودورك ودور الحزب في التعاون مع الشوّاف.
- لا زلت لا أفهم عما تتكلّم؛ هل تريدني أن أختلق قصصًا؟ عن أي سلاح تتكلّم؟ من هو شواف هذا؟ أنا لا أعرف حتى من هو! لم أسمع بِاسمه لغاية هذه اللحظة. وأين السلاح الذي قمتُ بتهريبه؟
- خذ ما تحتاجه من الوقت واكتب عن كلّ شيء، وإلّا! لا تنس أن تكتب اسمك وتوقّع على الإفادة!

ملئت إحدى الأوراق بقصتي بدءًا من البرقيات لغاية اعتقالي، وقّعتها، وسلمتها إياهم. لم تفدني تلك «الإفادة». لم يرضَ العريف بما كتبته. قدّم لي «إفادة» جاهزة ومطبوعة بالآلة الطابعة، وقال بأنني كنت متآمرًا مع القوى الرجعية للإطاحة بالحكومة، ولهذا السبب أنا «معادي للشعب» منذ أيام الشباب، وكنت متوجّهًا إلى الحدود الإيرانية لتسهيل مهمة نقل السلاح لمساعدة ثورة الشوّاف. طلب مني التوقيع على الوثيقة المطبوعة سلفًا. رفضت. كيف يمكنني أن أوقّع على وثيقة كاذبة تتهمّني بالإجرام وتدينني؟ قلت له:

- ليس بمقدوري أن اوقع على هذه، لأنها غير صحيحة، ومفبركة.
- حسنًا، إنك لا تتعاون مع الثورة، كلّكم تتشابهون، أيها الخونة! سأجبرك على الاعتراف، أعطيتك جميع التسهيلات، وأنت لا تتعاون.

في نهاية الحديث، أشار إلى مساعديه بأن يرمونني على الأرض ويربطوا قدميَّ بقضيب الفلقة. كانت هذه بداية الحفلة الحقيقية؛ رفع إثنان منهم قدميَّ إلى الأعلى بينما بدأ الثالث بالضرب بشدة، وبدأ إثنان آخران بالركل على وجهي ورأسي وجسمي من دون تحديد. بدأ التعذيب بجدّية أكبر!



تعتبر الفلقة عقوبة عادية في الثقافتين العربية والتركية، وانضباطية معتادة للطلبة المشاكسين وغير التائبين عن أعمالهم تطبّق في المدارس الأناضولية ومنها الأرمنية، في القرن التاسع عشر. يحتوي الأدب الفولكلوري الأرمني على قصص كثيرة عن دير توتيك وأساليبه في تثقيف الطلبة. كنّا معتادين على قراءة تلك القصص المضحكة، فنضحك ونضحك، ونتخيّل حال الطلبة آنذاك. ولكن حالتي لم تكن مثارًا للضحك، ولم تكن قصتي مع الفلقة مضحكة أبدًا؛ وفيما كانت ضربات «دير توتيك» لا يتجاوز عددها الواحدة أو الإثنتين وخفيفة وغير مؤذية، كانت هذه الضربات تقع على قدميَّ من دون انقطاع وبكلّ ما أوتي الرجل من قوّة وسلطة، بنيَّة إحداث أكبر قدر من الضرر الجسدي والنفسي.

مع كلّ ضربة أحسست أن دماغي سيطير خارج جمجمتي. ركلات الجنديين الآخرين كانت بتناغم مع ضربات الفلقة. وأخذوا بضربي أكثر من قبل. خطفت نظرة إلى قطعة القصب التي كانوا يستخدمونها في ضرب قدميَّ، فرأيت أن لونها قد تغيّر إلى الأحمر وبدأت قطرات الدم تتساقط منها؛ أحسست ببلل الدم في أخمص قدميَّ. كان صراخي عاليًا إلى درجة أنني كنت أظن أن إيليا يسمعني في غرفة مطالعة جماعة Christian Science عبر الشارع. كنت أصرخ:

- كرمى لله يكفي، لا أستطيع أن أتحمّل بعد.

-أيها الخائن الوغد، أنت عدو الشعب، يا ابن العاهرة، هل تتعاون ضد الزعيم الأوحد؟ هل تعمل ضد ثورة الشعب؟ هنا تلقيت الضربات بتناغم مع السباب والشتائم.

-لا أعرف عن أي شيء تتكلّم، أقسم، لم أفعل أي شيء ضد القائد أو الثورة، أو ضد أي شخص. لقد قبضتم عليَّ بالخطأ، توقفوا رجاءً!

لم يتوقّف التعذيب أبدًا. كنتُ أشعر بالألم في بداية الضرب، ولكنني لم أحس به بعد ذلك لأن قدميَّ بدأت تتخدّر؛ ومع كلّ ضربة شعرتُ بضغط على قدميَّ. رغم ذلك، تسمّرت في مكاني بتحدٍّ وجرأة. لم يكن هذا العمل حكيمًا. يجب ألّا تتحدى

الذين يقومون بتعذيبك، لأن حياتك في أيديهم، ولكنني فعلتها بكلّ غباء! كلّما استمرّوا بالضرب، أكثرتُ من السباب والأهانة مما جعلهم يضربون بشدة أكثر. كنتُ أبكي ولكن بعد حين جفّت الدموع واختفت. توقّف عقلي عن التفكير، والشيء الوحيد الذي كان يراودني هو كيفية التخلّص من الموقف الذي أنا فيه. لم أتمكّن أن أعرف المدة التي استغرقتها هذه الملهاة المحزنة، ولكنها بدت لي طويلة.

قرروا أن ينتقلوا إلى الخطوة التالية. توقفوا عن الضرب وساعدوني لأجلس على كرسي وأعطوني قلمًا وطلبوا ان أوقع على «الاعتراف».

- كيف أوقع على اعتراف لم أُدليه؟
- يجب أن تثق بالثورة؛ يجب أن تثق بنا. وقِّع وإلّا ستستمر الحفلة!
- كيف أوقّع؟ كيف أوقّع؟ هذه ليست روايتي؛ لقد سبق وأخبرتكم القصة كما حدثت.
- طيب، لقد أعطيناك الفرصة لإنهاء الموضوع؛ ترفض أن توقّع بإرادتك؛ سنجعلك توقّع عليها!

بإشارة من يد العريف، عرف الحرس ما عليهم القيام به. علّقوني من أغلالي كجسد بقرة مذبوحة من خطّاف مثبت بجدار وفي موقع عالٍ عن الأرض. كان هذا قاتلًا! شعرت أن رسغيَّ وكتفيَّ قد خلعت من مكانها!

كأن تعليقي لم يكن كافيًا، وقف ثلاثة من العرفاء على مصاطب وبدأوا بضربي كأنني كيس ملاكمة. وقعت الضربات في كلّ مكان من جسمي. كلّما استدرت لتفادي واحدة من الضربات، تلقيت أخرى على وجهي من الجهة المعاكسة. كانت الضربات على المعدة أسوأها؛ شعرت بالإغماء مع كلّ ضربة. أتذكّر نفسي وأنا أصيح، «أيها الأوغاد، أيها الجبناء، إن كنتم رجالًا أنزلوني على الأرض وأتحداكم واحدًا واحدًا، يا أبناء العواهر، يا إخوان البغايا. ثلاثة رجال ضد واحد، أبصق عليكم، أيها الجبناء!»



كان ذلك غباءً مني. فقد هيَّجتهم أكثر وبدأوا يضربونني للانتقام فقط. أصابهم التعب بعد حين. لعلهم ظنّوا أنهم وصلوا إلى الحد الأقصى من الضرب، قبل أن يقتلونني، وبطبيعة الحال لم يكن هذا هدفهم، بل كشف الحقيقة عن المؤامرة المزعومة بدلًا من قتلي. إستمروا يقولون لي، «هيا، سنتوقّف عن الضرب إذا وافقت على توقيع الاعتراف.» رفضي التوقيع جعلهم يستنتجون أنهم فشلوا في تحطيم إرادتي، فلجأوا إلى أسلوبٍ آخر مع الاستمرار بالضرب. قالوا، «أنظر، نحن نعرف أن لك أختين. إنْ لم توقّع سنأتي بهما ويقضي الجنود وقتًا ممتعًا معهما أمامك».

التعذيب الأخير أسقط دفاعاتي كلّها. لم أتحمّل أكثر. لم أرغب أن أموت من دون جدوى. شعرت أنني برهنت إصراري ورجولتي. قلت لهم «حسنًا، سأوقع، أنزلوني!» أنزلوني بالفعل! عندما مسكت القلم، وقع من يدي؛ كانت أصابعي فاقدة الإحساس. ظنّوا أنني أخدعهم، فعاودوا ضربي.

قرأت ورقة الأعتراف ثانية وخمّنت أن أي محكمة سوف لن تأخذ بها لعدم وجود أي دليل أو مأخذ ضدي عن اشتراكي في ثورة الموصل. ولم يكن هناك أي دليل يثبت أنني ناصري أو عفلقي أو ما يثبت تهمة تهريب السلاح ضدي. السلاح الوحيد الذي ابتعتُه كان مسدس Parabellum، ولعلهم ظنّوا أنني متورط في تسليح جيش ما، ومن هنا جاءت الشبهة والتهمة. وفكّرت أيضًا أنهم إذا كانوا يريدون قتلي، فسيقتلونني بأية حال، مع وجود أم غياب الدليل ضدي. بهذا أقنعت نفسي ووقّعت على نسختهم المطبوعة من الوثيقة الزائفة.

إستخلصت بعد مدةٍ طويلة، أنه في حال غياب أي دليل ضد المتهم، فإن هذه «الحفلات» السادية كانت مصمّمة للانتقام من كلّ من اعتبروه من أعداء الثورة؛ من رجالات العهد القديم والأغنياء وعملاء الغرب أو حتى مجرد من كانوا ضد الشيوعيين.

كنت سمعت وقرأت عن هكذا فظاعات وبشاعات مارسها الشيوعيون في أرمينيا السوفياتية، هنغاريا، تشيكوسلوفاكيا، بلغاريا وسيبيريا على سبيل المثال،

وكذلك من خلال مؤلّفات الشيوعيين السابقين مثل آرثر كويستلر، وأما الآن فصرت أشعر بوقعها على جسدي.

بعد انتهاء الحفلة المخصصة لي، حملني جنديان من ذراعيَّ ونقلاني إلى زنزانتي. لم أكن أشعر بأي ألم، ولكن بدني بأكمله كان ينبض مع دقات قلبي. كلّ جزء من جسمي كان متورّمًا وتحوَّل لونه إلى الأحمر. كان الدم ينزف من فمي وكنت أهذي من دون القدرة على التفكير. كانت صور خيالية تلمح أمام عينَيّ ولم أستطع التعرّف عليها. صبغ الدم قدميَّ بالأحمر حتى تحت أظافر أصابع القدمين. كانت شفتاي متورّمتين، وأحسست بجرح نازف داخل خدي جعلني أبصق دمًا. كانت وضعيتا الجلوس أو النوم تقريبًا من المستحيلات.

شعرت بالكراهية تجاه الذين قاموا بتعذيبي. كرهت خاصة، ابن العاهرة، عدنان؛ ولكنني شعرت في قرارة نفسي أن الزمن وهذا التعذيب قد أثبتا صحة خياراتي. إذ كنت أخبرته قبل عقد من الزمن، في اجتماعات صيدلية «العراق» عن بشاعة الشيوعية وفظائع الاتّحاد السوفياتي. ذكرت له أعمال المجرم ستالين، ولكنه كان يقول إنها دعايات غربية. ماذا يمكن لابن العاهرة أن يقول الآن؟ كيف يمكن أن يبرر ما فعلوه بي؟ أين العقيدة الإنسانية في الفقه الشيوعي في ما جرى لي؟ الشيوعية، هه، في مؤخرتي، كلّهم مجرمون قتلة!

تذكرتُ أبي وأنا في وسط هذه الأحداث. أحسست إني مدين له بتحضيري لأواجه هذا النوع من الضرب. كان يستعمل عصاة صغيرة لتأديبي حين ارتكب تجاوزات صغيرة، وهو الأسلوب العثماني لتأديب طفلك.

في مناسبةٍ معينة ترك ثلاثة خطوط سوداء وزرقاء على ذراعي الأيسر، وبعد حين أخبرته: «لقد رقيّتني إلى رتبة عريف يا أبي». ضحكنا في حينه وانتهت المشكلة.

فهمت نفسية أبي وأسلوب عمله. تيتّم وهو شاب، ثم أخذ طريق الهجرة مع الأرمن أثناء المذابح التي ارتكبتها تركيا عام ١٩١٥، عابرًا الصحراء إلى حلب، وصولًا إلى الموصل ليلتقي أخاه، عمي كريكور.



كان أبي يطبّق معي مبدأ الجريمة والعقاب، فتعوَّدتُ عليه، ولكن ما كنت أعانيه هنا عقوبة من دون جريمة. لم يكن ذلك عادلًا! بإمكاني أن أسامح أبي، ولكن ليس عدنان، ابن العاهرة. كان باستطاعته إنقاذي، لكنه لم يفعل! كان له ثأر مخفي ضدي والظرف الراهن فرصة مناسبة لتلقيني درسًا كنت رفضتُ تعلّمه أثناء أحاديث ونقاشات الصيدلية قبل عقدٍ من الزمن.

لماذا كان عليه أن «يغسل» يديه؟ هل غسل يديه كبادرة صداقة، أم بسبب الذنب الذي أحسَّ به؟ آه من ذلك أخ العاهرة والوغد الشيوعي! أيا ابن العاهرة! يغسل يديه، هه يريد غسل يديه لأنهما تلطختا بالدم! ماذا كان سيفعل لو لم يعرفني حق المعرفة؟ هل كان تصرّفه كإنسان سوي؟ أيُّ إنسان هذا؟ فلتذهب الإنسانية إلى الجحيم! أبصق على الإنسانية إذا كانت بهذا الشكل. أكرهك أيها العالم، أكرهك!

كانوا يقولون لي إن العدالة مفقودة في هذا العالم. هذا ما كانت تردده عمتي فكتوريا دائمًا، ولكنني كنت مرتابًا في الأمر. ولكن أين العدالة الآن؟ هل العدالة موجودة في العالم؟

لا وجود لله أيضًا! عمتي فكتوريا كانت مصيبة في هذا الأمر! ألم تستنتج، بعد قراءة روايات الكاتب رافي وقصصًا أخرى عن جريمة الإبادة الجماعية التي ارتكبتها تركيا بحق الأرمن، لو كان الله موجودًا فلماذا سمح أن يصيب الظلم هذا الشعب المسيحي المحب لله؟ لا، لا توجد عدالة ولا وجود لله أيضًا، وتبًا للإنسانية. ولكن، ماذا عن أكرم؟ ألم يكن تصرّفه يماثل تصرّف إنسان نبيل؟ ألم يجدّد ثقتك بالإنسانية؟

بينما كنت أرغي وأزبد وأستعيد هذه التساؤلات، انتبهت إلى أنهم لم يربطوني بالباب. هنا قلت في نفسي إنهم بالتأكيد لا يريدون قتلي، ولو كانت هذه نيتهم لفعلوها عندما كنا في الطابق العلوي. يريدون كسر معنوياتي وإبقائي حيًا.

إستلقيت على سريري وشكرت الله الذي أبقاني حيًا، ولكن جسدي ووجهي كانا يؤلماني، تمزّقت شفتاي وخدّي والدم ينزف منها، وتراخى أحد أسناني الأمامية، وتجمّع الدم تحت أظافر أصابع قدمي، فانقلعت الأظافر بعد مدة.

أقنعت نفسي بقدرتي على تخطّي ما يجري. سوف أعيش. فجأة شعرت بالجوع. تمنّيت لو لم أُعِدْ أكلة الـ«سولي كفتة» التي أرسلتها عمتي زوفيك في ذلك اليوم. ولأنني أرجعت الأكل من دون أن أمسّه، فقد تكهّنت العمة زوفيك بأنني في مشكلة جدّية، «وإلّا لما أعاد أكلته المفضّلة كما هي».

ولكن كيف عرفت العمة زوفيك مكاني؟ كيف وجدني أهلي؟ يقضي الله أعماله بطرق غامضة. نعم، بالطبع، الله موجود! ظننتُ أن أكرم أخبر أبي عن مكاني. أسعدتني هذه الفكرة وأعطتني أملًا بخروجي قريبًا من هذا المكان.

لا بد أنني استغرقت في النوم. عندما استيقظتُ وجدت أنني لا أزال في الزنزانة نفسها؛ ولا يزال المكان مليئًا بروائح البول والبراز، من ضمنها ما أفرغته أنا. ذهبت روائح أزهار كردستان وضاعت مناظر كردستان الجميلة. إستعرضت أحداث الأيام الماضية أمام عينَي، فجأة فتحوا باب الزنزانة عصرًا:

- إرتدِ حذاءك، ولنذهب!
- إلى أين؟
- إلى بغداد! يجب أن نوصلك إلى محطة القطار.

صُدمتُ بالأمر، فقدت القدرة على التفكير. بدأت مأساتي في قلعة دزه، ثم تحوّلت إلى السليمانية ثم كركوك، والآن يأخذونني إلى بغداد. هل هذا أمر جيد أم سيئ؟ كيف يكون جيدًا؟

بدأت بطرح أسئلة على نفسي من غير أن أجد أجوبة عنها. لو كانت قضيتي غير جدية، فلماذا يرسلونني إلى بغداد؟

وضعوني في سيارة جيب برفقة الشرطة العسكرية، مكبّل اليدين ومن دون النجوم التي تدل على رتبتي العسكرية.

خرجت السيارة من الممر الممتد تحت القنطرة واستدارت يمينًا نحو شارع الأوقاف. إجتزنا المستشفى العسكري على جهة اليسار، وسينما «العلَمين» على



اليمين، وصيدلية «العراق» على اليسار، والبيت الذي ترعرعت فيه على اليمين. وكنا انتقلنا منه منذ مدة وبقيت فيه عيادة أبي لطب الأسنان. حاولت أن أنظر من خلال غطاء السيارة فلم أنجح. عندما استدرنا نحو اليسار، عرفت أننا نمرّ من أمام مقهى أحمد آغا باتّجاه طريق المحطة. كانت السيارة مسرعة، ودقات قلبي كذلك، عندما مررنا من أمام دار أبي الجديدة.

صرخت بأعلى ما يمكنني، «أبي، إنهم يأخذونني بعيدًا! أبي، أرجوك أن تفعل شيئًا، إنهم يأخذونني يا أبي، أرجوك أن تفعل شيئًا». لم يكن بِاستطاعة أحد أن يسمع صوتي، حتى الحراس أمامي لم يتحرّكوا. تردّد صدى صوتي المتضرّع في رأسي كما تردّد صدى الطلقة الأولى في حياتي من مسدسي في جبال كردستان. لم تعطني الأصداء هذه المرّة الشعور بالأمان كما في المرّة السابقة. تعال يا أبي!

عدتُ بالذاكرة إلى أيام الطفولة، إلى اللحظة التي وضعني فيها أحدهم في كيس واختطفني، فأنقذني صالح، الشاب اليهودي ماسح الأحذية. «يا صالح، إنهم يأخذوني بعيدًا، يا صالح، يأخذوني بعيدًا». سمع صالح صوتي، وأنقذني. أما اليوم فلا يسمع أحد نداءاتي وتوسّلاتي، ولم يكن صالح موجودًا لنجدتي.

كانت محطة القطار محتشدة بالجنود والمدنيين. كنت أعرفها جيدًا، فقد كنّا نجتازها لنصل إلى بيتنا الصيفي في تسعين. كنت أعرف الكثير من القرويين، ولكنني لم أر من يمكن أن أرسله إلى أبي لأعلمه بِاقتيادي إلى بغداد.

إجتزنا عربات الدرجتين الأولى والثانية، وبدأنا نبحث عن مقاعد شاغرة في الدرجة الثالثة. وأخيرًا وجدناها. كانت صفوف من المقاعد الثنائية مزدحمة بالناس وقد حشروا أنفسهم حشرًا في العربة الصغيرة المليئة أيضًا بالدخان ورائحة عرق الأبدان. كانت رائحة مثيرة للأنف بعد أن اختلطت برائحة حامض الفينيك، المادة المعقّمة في المرافق الصحية والمستشفيات، بعد أن رُشَّت بكرم زائد بموجب التعليمات الصحية.

ساعدني المرافقون من الشرطة العسكرية لأصعد إلى العربة المزدحمة بالمسافرين العاديين، وقد جلس بعضهم بهدوء، بينما كان آخرون يناقشون موضوعًا ما

بصوت عالٍ مسموع. تغيّر الموقف بعد أن رأوا ضابطًا مقيد اليدين وغير حليق الذقن، فأثارهم المنظر. بدأوا يهتفون ويصرخون، «ماكو زعيم إلّا كريم، كواويد بعثية». أصبح الموقف عدوانيًا في غضون لحظات. وقف حوالى العشرين منهم، يلوّحون بقبضات أيديهم ويبصقون علي وينادون بشنقي: «متآمر مع الشوّاف، عدو الثورة، خائن، بعثي، عفلقي، رجعي». كان بإمكانهم قتلي. وقف أحدهم وبدأ بإلقاء قصيدة مشحونة بالروح الثورية، فتهيّج الآخرون أكثر في صراخهم، وصفّقوا له بكلّ حماسة وبدأوا يهددونني بقبضاتهم. كانوا على بعد أربع أو خمس خطوات مني، عندما وقف أحد حرّاسي وسحب مسدسه وهدّد بقتل «كلّ من يتجرّأ على إلحاق الأذى بالموقوف».

كنت متيقّظًا، لا خائفًا، ليقيني أن حرّاسي سيدافعون عني بحياتهم. ليس لأنهم أناس طيبون يهتمون بالمحافظة على أرواح الناس، بل لأنهم كانوا مسؤولين على تسليم خائن كبير مثلي إلى السلطات العليا في بغداد.

وقف شخصٌ كبير في العمر من الغوغائيين وقال، «دعونا نتركه ليرجعوه إلى أعلى السلطات؛ سيستخلصون منه معلومات مهمة تساعد الجمهورية على التخلّص من بقايا النظام القديم الملعون، عملاء البريطانيين، وعملاء الخائن عبد الناصر والدمى البعثية». صفّق الجمع المحتشد وجلس الجميع على مقاعدهم. أومأ حارسي إليهم موافقًا وأرجع مسدسه إلى مكانه.

سرعان ما انخفضت أصواتهم، فارتفعت ضجة القطار، وخلتُها غناء هدّأ روحي التعبة. أصعدوني إلى الرف العلوي حيث توضع الحقائب وقيدوا يديَّ إلى أحد الأعمدة. إستخدمت حذاء أحدهم وحقيبة ملابس كوسادة، واستلقيت لأنام. وبالفعل، نمت طوال ليلة السفر إلى بغداد.

إستيقظت صباح اليوم التالي مع صوت القاطرة وهي تنفث بخارها بهدوء، بعد أن تجشّأت بقوّة ما فيها من بخار، وتوقّفت عن الحركة. كنّا في محطة القطار في بغداد التي بدت مزدحمة أكثر من ذي قبل.



جنودٌ ومسافرون يدخلون قطارات وآخرون يخرجون من أخرى في حركة دائمة بشكل بانوراما أشبه بمسرح أوبرا. كنت شخصًا إضافيًا فيها، ولحسن الحظ لم يلاحظني أحد.

كنت أعرف تلك المحطة من زيارات سابقة. كانت عبارة عن بناية حجرية مع بوابات ذات أقواس عالية، نصفها مصبوغ باللون الأبيض والنصف الآخر بالأخضر، في موضع ما، وفي موضع آخر، تناصف اللونان الأبيض والرمادي. كانت البناية من عهد الانتداب، بنتها الحملة العسكرية البريطانية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى.

كانت فيها مكتب مدير المحطة وغرفة مراقبة مع تلغراف مشترك موصول بمكتب الشرطة والأمن. فيها باعة «اللفات» التي تحوي البيض المسلوق والطماطم و«العمبة» الملفوفة في الخبز وباعة الشاي منتشرين خارجها.

شهدت المحطة على وصول ومغادرة أفراد من الجيش البريطاني، منهم ضباط بسراويل قصيرة باللون الكاكي من نوع برمودا، يحملون العصي من خشب الماهاكوني تحت آباطهم، يصعدون إلى القطار وينزلون منه. كنت أتخيّل إنكليزيًا يعضّ غليونه، يتوقّف ليتبادل كلمات مع آخر، يرفع طرف شاربيه المشذّبين بعناية من حين إلى آخر، ليكشف عن ابتسامة غير صادقة، أو يرفع أحد حاجبيه كمظهر من مظاهر الشك والريبة.

بإمكان الفرد أن يتخيّل شكل حمّال بائس يحمل حقائب الضابط ويركض بعجالة ليلحق بسيده. وها هو ناظر المحطة يحاول أن يجد حلًا لعقبة غير متوقعة.

وبالإمكان رؤية نسوة من مناطق الأهوار القريبة تحمل الواحدة منهن على رأسها بتوازن كامل ستة أو سبعة أوعية خشبية تحوي اللبن الخاثر المروّب من حليب الجاموسة. فيها أفراد من الشرطة، مسلّحون بالعصي، مستعدون للتدخل عند حدوث أي اضطراب.

أما خارج المحطة، فينتظر سائقو سيارات الأجرة الذين اختيروا بعناية لتبليغ الشرطة السرية بأي حادث، بكلّ صبر لحمل حقائب المسافرين ووضعها في صناديق سياراتهم لرحلة قصيرة إلى فندق سميراميس أو سندباد.

بينما عشرات العرب والهنود، العاملون في خدمة حكومة صاحب الجلالة، يصدحون بعبارات «نعم صاحب» و«كلا صاحب» للضباط والقوات العسكرية تسهيلًا لمرورها، الذي يعقبه قيام عمّال التنظيف بكنس الممرات وتلميعها ثم رشّها بالأسيد فنيك.

وصلت إلى المحطة نفسها وعلى مقاعد الدرجة الأولى، قبل سبع سنوات، لألتحق بالكلّية الطبية. كنت مفعمًا بالأمل والحماسة وأنا أتوقّع مستقبلًا جيدًا أمامي! ولكن، كلّ هذا أصبح من الماضي. وصلت إليها في هذه المرّة في عربة من الدرجة الثالثة والأغلال في يدَيّ. لمعت السنوات السبع من حياتي في بغداد أمام ناظرَي كلحظةٍ عابرة. هنا التقيت آن وتزوجتها. هنا ولد ابني فاتشي قبل سنة واحدة. هنا تعزّزت هويتي الأرمنية وتعلّمت الكثير عن لغتي الأم والثقافة والتاريخ والطموحات الوطنية.

هنا، في بغداد، حالفني الحظ بأن أتعرّف، وأن أوثّق المعرفة، بالثلاثي الثقافي الأرمني: الدكتور بابكين بابازيان، الوطني الكبير والمثقّف الجليل، ليفون (كارمين) إستيبانيان، الشاعر والمثقّف، هايغاز مراديان، الفيلسوف، وكذلك آرام دوزيان، مؤسّس فخر الأرمن في بغداد، جريدة كويامارد الأسبوعية باللغة الأرمنية. في هذا المكان صاغَ هؤلاء شخصيتي الاجتماعية؛ هنا أزهرتُ وتفتّحت على العالم.

«هيا قم، لنذهب!» أيقظني أحد الحراس من غفوتي. كانت سيارة نقل عسكرية تنتظرنا قرب القطار. لم أتمكّن من التسلّق إليها بمفردي؛ إذ لم تدخل قدماي في زوج الحذاء، ولم أستطع الدوس على باطن قدميّ، والوقوف باستقامة بسبب آلام الظهر والجسم. لم تتغيّر العلامات السوداء والزرقاء في جسمي إلى الأصفر والأخضر بعد، وجهي لا يزال متورّمًا...



على الرغم من حالتي البدنية المزرية أقنعت نفسي بأنني على ما يرام؛ وبأنني خرجت من التعذيب من دون أي إصابة في الدماغ ولا في العينين، أما ما تبقى من الآلام فأستطيع التعامل معها!

صعدت إلى السيارة بمساعدة الحراس، إذ وضعوني فيها مثل كيس البطاطس، وانطلقت الشاحنة إلى معسكر الرشيد في ضواحي بغداد.

الفصل التاسع عشر

# الغرفة رقم ١١

رجعتُ إلى نقطة البداية. هذا هو المعسكر الذي تلقيتُ فيه أولى التدريبات العسكرية: كيفية السير مع حفظ السلطة والنفوذ، أسلوب تأدية التحية للأعلى رتبة وتلقيها ممن هم أدنى، وإلخ. هذه المرّة كان الوضع مختلفًا كليًا، دخلنا المعسكر كأننا محجوزون خلف أسلاكٍ شائكة. كان الجنود في كلّ مكان مدججين بالسلاح وأحاطوا بنا من كلّ جانب. لم تكن هناك تحرّكات كثيرة في المعسكر، انخفض الضجيج كثيرًا كأننا في مقبرة. وكانت مقبرة بحق لأرواح المعتقلين الميتة.

أخذوني إلى إحدى القاعات وفتحوا باب الغرفة رقم ١١ ودفعوني إلى الداخل. كان فيها سجناء يجلسون على المقاعد والأرض وينظرون بفزع وخوف، بعيونهم الشاحبة، إلى الزائر الجديد.

من الظاهر أنهم كانوا ينتظرون شيئًا مخيفًا عند فتح الباب، ولكنهم ارتاحوا حين رميتُ إلى الداخل من غير أن يأخذوا أيًا منهم إلى الخارج. صرخ الجندي وهو يدفعني: «هذا خائن آخر أيها الأوغاد!»

عندما أغلق الباب خلفي وجدت نفسي في رفقة ثلاثة عشر رجلًا محشورين في غرفة أبعادها ٤×٥ أمتار. كان السكون يخيّم على الغرفة في البدء، ثم بدأ الهمس بعد انصراف الحارس. وجّهوني إلى حيث أجلس على أحد المقاعد ثم قدّموا لي سيجارة وحاولوا أن يجعلونني أشعر بالراحة قدر الإمكان. أشعلتُ واحدة ونظرتُ في أرجاء الغرفة. كانوا شبابًا ومتوسطي الأعمار يتكلّمون باللهجة الموصلية. رأيتُ في الزاوية

البعيدة رجلًا كبيرًا في العمر، تجاعيد وجهه تشير إلى الغضب والحنق، لم أتعرّف عليه في الوهلة الأولى. صاح متسائلًا: «أهذا أنت يا هنري؟» نظرت إليه وأنا غير مصدّق ما أراه، إنه عمي كريكور. كان يبدو ضعيفًا ومحبطًا أصابه الذل والإهانة.

جرّرت نفسي إلى زاويته، فتعانقنا. شعرت بالأمان والراحة بوجوده، على الرغم من أننا ضعيفون ومعرّضون للخطر في أي لحظة. كان حزينًا ويملؤه الغضب. «فاي، كوّاد أوغلي كوّاد، أنظر ماذا فعلوا بك. هؤلاء الشيوعيون الكواويد! تملؤهم النشوة الآن، لأنهم قبضوا على آل آستارجيان أخيرًا. تحقّقت أحلامهم؛ هل تعتقد أنهم سيدعوننا نفلت من أيديهم؟ يحلمون منذ سنين بالقبض علينا، ولكنهم لم يفلحوا في مسعاهم، والآن نحن في قبضتهم وبين مخالبهم، وهذه فرصتهم للتخلّص منا».

تنهّد ثم تكلّم ثانية: «نعرفهم من خلال تجاربنا في أرمينيا. لم تكن القصص التي سمعناها مبالَغ فيها أبدًا! كأننا سنة ١٩٢١ ثانية، ما عدا أننا في عهد الجمهورية العراقية الأولى، لا جمهورية أرمينيا الأولى». قال لي بفخر واضح، كأنه في موقف المنتصر: «دعني أقول لك، إن آثار الجروح على وجهك، ووجودنا في هذا المعتقل، لهي أوسمة شرف لنا. كلّ إنسان مصيره الموت، وليس هناك مفرّ منه، ولكن موتنا سيكون مختلفًا، إذ سنموت في سبيل معتقدنا؛ سيكون موتنا مشرِّفًا. ماذا يعرف هؤلاء العرب عنا؟ لا شيء! سبب وجودنا هنا هم الأرمن الأوغاد الخونة، وإلّا كيف عرف هؤلاء الناس موقفنا المناهض للشيوعية؟ العرب شعب نبيل كتبتُ عنهم مؤلّفات عديدة! إنهم الأوغاد من جنسنا الذين وشوا بنا»!

«لا نطالب نحن الأرمن بإنش واحد من أرض العرب؛ بل على العكس، نحن ممتنون لهم إلى الأبد لموقفهم النبيل في قبولهم الناجين من الإبادة الجماعية الأرمنية ومساعدتهم للعيش بسلام ورخاء؛ أطعمونا وآوونا ودافعوا عنا، ثم وافقوا على أن نكون مواطنين في بلدانهم. ماذا نريد أكثر من هذا؟ لماذا نفكّر بخيانتهم؟ ولكن الشيوعيين أوغاد، هم عرب وأرمن بالاسم فقط. هؤلاء يؤمنون بالدولية؛ هم يبيدون أي شخص يقف في طريقهم. إن إيديولوجيتهم مبنية على العنف والتعصّب،



وما هذا الاعتقال إلّا دليل على ما قلت؛ إنهم يتهموننا زورًا وكذبًا بالاشتراك في هذه الثورة التي لا نعلم عنها شيئًا، وهذا مبرر لقتلنا بصورة قانونية».

عندما جلست في نهاية حديثنا، رحَّبَ بي المعتقلون أكثر بعد أن عرفوا إنني ابن أخ الدكتور كريكور آستارجيان.

كان أكثرهم من الموصل وعلى معرفة بعمي، أو حتى سمعوا شيئًا عنه. مارس عمي مهنة الطب في تلك المدينة عدة عقود، وكتب كتبًا ومقالات عديدة عن الأدب الأرمني والعربي. ويعرفونه أيضًا بسبب داره اليابانية الطراز «قصر آستارجيان»، التي بناها في نهاية عام ١٩٣٠ على مشارف الموصل، وعاصمة الإمبراطورية الآشورية، نينوى.

كان للغرفة شباك يطل على الباحة الخارجية. مصباح وحيد يتدلى من السقف العالي، كعقدة حبل المشنقة، ولا يمكن الوصول إليه، وجدران عارية. لم يكن هناك مفتاح كهربائي للمصباح من الداخل. لعل الغرفة كانت مخزنًا قبل أن تكون معتقلًا.

كانت الفرش موزّعة حول الجدران الثلاثة، وأما الرابع فكان مخصصًا للدخول وحفظ ثلاثة عشر زوجًا من الأحذية. لم يكن لي مكان على الفرش؛ والموضع الوحيد المتبقي كانت الأرض العارية، مقابل الجدار العاري في المدخل. كانت الأرض فراشي وكومة الأحذية العسكرية وسادتي. أعطاني أحدهم قطعة من قماش وسخ، فطويتها وفرشتها على الأرض، كي أنام عليها! لم أحتج إلى غطاء، فحرارة أجسامنا مع دخان السجائر وكثرة الأدرينالين في الدم أبقتنا دافئين.

جاء رجلٌ في منتصف الثلاثينات من عمره وجلس إلى جانبي وعرَّفني بِاسمه، جميل صبري البياتي، مدير الأمن العام في بغداد، قبل اعتقاله. قلت في نفسي لعله كان أحد القائمين بانقلاب ١٤ تموز، أو على الأقل من المتعاونين الكبار مع القائمين بالانقلاب، وإلّا لما حاز على ثقتهم في منصبه الحسّاس. والآن هو من المتهمين بالتعاون مع الشوّاف، أو على الأقل من مناوئي قاسم، ولهذا اعتُقل. ويظهر عليه أنه

لم ينل نصيبه من التعذيب، ولم ينكسر بعد. في الواقع، لم يجر تعذيب أي من الموجودين في الغرفة، ولكن الكثيرين منهم كانوا منكسرين.

أولاني جميل عطفه وحاول مواساتي بمصابي. قال لي: «لا تأسف على ما فعلنا. ما فعلناه كان صحيحًا في سبيل البلد. كان البلد ينهار تحت حكم قاسم!» لا أعرف لماذا تكلّم بصيغة الجمع، فهل كان يعتبرني منهم؟ من المحتمل أنه حاول تثبيت علاقة حميمية على الرغم من أنني لم أشعر بانتمائي إلى الحركة. لم يكن لي أي دور بالأحداث، كنتُ ضحية ظروف آنية.

تحدث عن شجاعة الشوّاف وبطولة الموصل. أخبرني عن الطيارين الثلاثة الذين قصفوا عرين قاسم، ووزارة الدفاع. قال: «كانوا هنا في هذه الغرفة، أخذوهم إلى الخارج وأعدموهم بعد وقت وجيز». قلت لنفسي إن أولئك الطيارين لم يكونوا أبطالًا لأنهم لم يصيبوا هدفهم بدقة. لم يستطيعوا قصف محطة الإذاعة غير المحمية أصلًا!

بعد حديثه التمهيدي، عرّفني على الموجودين في الغرفة حتى من دون أن يستمع إلى قصتي:

- الزعيم عبد العزيز العقيلي، قائد الفرقة الثالثة، عسكري ذو سمعة عالية.
- العقيد عزيز أحمد شهاب، أحد الضباط الأحرار الأصيلين، وأحد الرجال الذين كانوا بمثابة الذراع الأيمن للشوّاف، وأحد معدّي الانقلاب.
- العقيد عبد الغني الراوي، أحد الضباط الأحرار الأصيلين، وقومي متحمس.

وأما الباقون فكانوا مجموعة من الطيارين المقاتلين الذين قصفوا وزارة دفاع قاسم، ومن المشتركين مع الشوّاف في ثورته الفاشلة.

كان هؤلاء من نجوم الجيش البارزة، والثوّار الذين أطاحوا بالمملكة الهاشمية وغيّروا واقع الشرق الأوسط السياسي. كانوا في القيادة يومًا ما، والآن نزلاء معي في المعتقل نفسه، يا له من موقف مضحك! ماذا فعلت لأستحق هكذا شرف؟ كرهتُ ما قاموا به. كرهتُ ناصرًا في موقفه ضد الغرب. وكرهت آيزنهاور لموقفه من حرب



السويس في ١٩٥٦، لأنه أوقف بريطانيا وفرنسا وإسرائيل قبل الإطاحة بناصر. كرهتُ أن أرى نهاية المملكة الهاشمية. كنت أضحك على هذه الكوميديا المأساوية التي أوقعتني في شركها كضحية. فوجودي هنا ليس له أي علاقة بالأحداث؛ وقعتُ في قلب الإعصار عن طريق الصدفة.

إستمع زملائي في الاعتقال إلى قصتي بذهول ودهشة، ولكن من دون أن تفاجئهم أحداثها. قالوا: «لقد سيّطر الشيوعيون على البلد وهذه فرصتهم للتخلّص من أعدائهم، والعناصر غير التقدمية، وأنت واحد منا». لقد وضعني هؤلاء في موقف غير مرغوب فيه من التكافل والمساواة مع أناس تآمروا وثاروا ضد قاسم، وهم يواجهون فرقة الإعدام. لم أكن منهم، ولم أتمكّن من معارضتهم.

أخبروني أنه قبل يوم من وصولي أعدموا أحد عشر طيارًا، ثلاثة منهم من غرفتنا. وعلمتُ أيضًا أن عبد السلام عارف نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية في العراق الجمهوري والمنظّم الرئيسي للانقلاب، كان محجوزًا في المعتقل نفسه. ثم اكتشفت أن عبد الرحمن البزّاز، الأستاذ في القانون (وبعدها أحد مؤسّسي أوبك، ثم رئيس وزراء العراق) محتجز في الغرفة رقم ١٠ جنب غرفتنا، ومعه عارف عبد الرزّاق، أحد الضباط الأحرار الذي قاتل في فلسطين كضابط طيار (شغل بعدها مناصب وزارية مهمة ثم منصب رئيس وزراء).

شعرت حقيقة بأنني صغير وسط كبار، إنه لأمر رائع! ثم فكّرت وقلت لا، لا أستحق هذا الشرف ولا أريده. ها أنذا، طبيب عسكري عادي، بريء كليًّا من التهمة المنسوبة إليّ بتهريب السلاح لمساعدة ثورة لم أكن أعرف عنها شيئًا، أو حتى آمنت بها، كان قائدها رجلًا لم أعرفه أبدًا، ولم أسمع بإسمه من قبل، وأمقت إلهه عبد الناصر. كنتُ أرمنيًا وطنيًا تربيتُ على الطريقة التقليدية البريطانية الاستعمارية، ونستون تشرتشل بطلي المحبوب. ماذا أفعل هنا؟ ظننت أن كلّ ما جرى لي كان نكتة سمجة!

كنت خائفًا: أولًا، لكوني معتقلًا في هذا المكان الخطر، وثانيًا، ملحَقًا بهذه المجموعة من الناس المشهورين الذين يعدمون كلّ يوم بالعشرات.

ولّدت هذه الأحداث مزيجًا من الغضب، الاستياء والامتعاض، التحدي، والتهكّم في داخلي. أصبحت متشائمًا! إعتبرت ما مرَّ بي كوميديا مأساوية، مثل الحياة نفسها، تجري وقائعها على مسرح كبير خارج تخيّلاتي، وفهمي، وإدراكي، أو حتى سيطرتي.

كنت أؤمن أن الشيوعية شرّ على الأرض وأن الشيوعيين مجموعة من الأوغاد، ولهذا رفضت أن أخضع لهم، كان كلام عمي صحيحًا، حين قال لي أن عليَّ أن أتحضّر للموت من أجل مبادئي! أحسستُ بدرجة من عدم المبالاة التي أبعدتني وحجزتني عن الحقائق الجدية لذلك اليوم.

جاء كلّ واحد من المعتقلين من خلفية حياتية مختلفة عن الآخر، ونظرة مختلفة للحياة، ولكلٍّ منهم تخيلات معينة خاصة به. رغم ذلك، كنا نشترك بأمر واحد: الخوف من التعذيب والخوف من القتل بوحشية، بكلمة واحدة «الخوف».

كان هذا الشعور يتضاعف كلّما فتح أحد الحراس باب الغرفة الحديدي في الليل أو بعد منتصفه. كنا نعلم أن «الحفلات» تُقام في الليل. فتح الباب في النهار يعني وصول الطعام إلينا، أو إخراجنا لنمشي مدة عشر دقائق، أو لنذهب إلى المرافق الصحية المزدحمة دائمًا بالمعتقلين: كانت هناك غرفتان في قاطعنا لخدمة أكثر من مائة معتقل. لم تكن لدينا مرافق للاستحمام.

كانوا يفتحون الباب ويقذفوننا بالشتائم والسباب ويهينوننا ويضربوننا عشوائيًا بعصًا يحملونها. وبما أنني كنت قريبًا من الباب، كان الضرب الأشد من نصيبي.

في أحد الأيام وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل، فتحوا الباب، فجلسنا جميعًا هلعين، موقنين أن أحدنا سيكون ضيف الشرف في حفلة تلك الليلة. أنا متأكد أن كلّ واحد منا تمنى أن يكون دور شخص غيره. نادوا اسم أحد الطيارين وأخذوه معهم. شعرنا بالأسف تجاهه، ولكن كلّ واحد منا شعر بالراحة لأنه لم يكن المدعو إلى الحفل. أرجعوه إلى الغرفة، في الساعة الخامسة صباحًا، على بطانية يحملها أربعة جنود. رموه بقسوة على الأرض كجثة كلب ميت؛ ظننا أنه ميت. لم يتمكّن من إصدار



أي صوت، جسمه متورّم وكذلك قدماه. لم ننم تلك الليلة خوفًا على سلامتنا؛ لم يتمكّن أي منا من النوم. بطريقة ما تعذّبنا تلك الليلة، ولو من دون «حفلة»!

تعاطفت مع الضحية. شعرت بألمه وتأسفت لحاله، ثم تأسفت لا شعوريًا لحالي، لأنني كنتُ ضحية لحفلة مشابهة.

عندما بدأ الضحية بالكلام، وصف مراحل التعذيب التي مرّ بها، فأخاف الموجودين؛ أما أنا فعرفت ما كان يعنيه بالتفصيل، وتمنيت أن أكون قد وفيت بما عليَّ من مستحقات، لئلا أدفعها ثانية في حفلة أخرى. حالفني الحظ في عدم تكرار الأمر في هذا المعتقل، لعلهم لم يجدوني شخصًا مهمًا يستحق أفضلية التعامل معه.

أما الذين حضروا «الحفلة» المقامة على شرفهم، فأخبرونا أنهم عُلِّقوا من أرجلهم بخطّاف مثبّت في السقف، مخصص لمروحة، بحيث يلامس الرأس الأرض. وبعد الجلد بالسوط، يسحبون الحبل لتلامس الأقدام السقف، ثم يدعوه يهبط على رأسه.

كنا نسمع الأصوات الصادرة من غرفة التعذيب عبر الباحة. كانت وجوهنا تصفر مع كلّ ضربة وصرخة تصدر من الضحية، كأنما الدم، أو الحياة، تقطر من أجسادنا. كنا ننتظر دورنا وترجف أبداننا مثل مرضى الباركنسون.

بدأتُ بالتوسّل إلى الله واستمرَّ دعائي: يا رب، أبعدني عن هذا الأمر فقد أخذت نصيبي منه، وبدأت جروحي تندم. أرجوك يا الله ألا تدعهم يأخذونني ثانية!

سمعنا قصصًا عن الطريقة الصينية في تعذيب «خائن»؛ يدعون الماء يتساقط قطرة بعد أخرى على رأس الضحية ومن دون انقطاع لمدة أربع وعشرين ساعة مستمرة، ثم يكسرون ذراعيه ورجليه. وقيل إن زميلًا جرّاحًا خريج كلّية الجرّاحين الملكية في لندن، زار الضحية من باب الاستعراض، ثم تركه من دون أن يعالجه.

كان هذا الطبيب شيوعيًا معروفًا من الجميع. سواء أكان زميلًا في كلّية رفيعة المستوى مثل الكلّية الملكية، أو طبيبًا عاديًا، أو فلاحًا، فالأمر سواء؛ فالشيوعي شيوعي، قاسٍ وغير إنساني!

تركت هذه الأحداث كافة تأثيرًا سلبيًا علينا جميعًا، خاصة زملائي في الحجرة نفسها الذين هبطت معنوياتهم بالكامل. كانوا يبكون في أغلب الأحيان عندما ينالهم الضرب عشوائيًا، ليس بسبب الألم، بل بسبب ما كانوا يتوقّعون أن يأتيهم في القريب العاجل. كانوا يعرفون أن مستقبلهم سيكون أمام فرقة إعدام. كانوا يعتبرون الإعدام شرفًا، ولكنهم لم يستطيعوا تحمُّل المذلة والهوان. لم يكن باستطاعتهم قبولهما إطلاقًا!

كنت مندهشًا! كيف يسمح هؤلاء الضباط ذوي الرتب العالية وقادة البلد لأنفسهم بالبكاء؟ أي نوع من الثوريين كانوا هؤلاء، أي نوع من الرجال كانوا؟ لا شائبة لو بكى الرجال العاديون، ولكن كيف الحال مع قادة الجيش؟ كان من المفترض أن يكونوا فوق التأثيرات العاطفية!

كانت الساعات تمرّ خلال النهار من دون أن تقطع سيرها حادثة تعكّر الجو. كنا نعرف أن «الحفلات» تبدأ في منتصف الليل، فكنا نستغل الأوقات الهادئة للنوم أو اجترار ذكريات الماضي؛ لا فرق، فكلاهما وسيلة للهرب من الواقع.

قال أحد كبار الضباط يومًا: «أوه، إذا خرجت من هذا المكان فلن أبقى دقيقة واحدة في هذا البلد اللعين. لا يستحق هذا الشعب الملعون أن يعيش مثل البشر، إنهم لا يستحقون تضحياتنا. أنظر إلى القرف الذي يجري في البلد. كان نوري السعيد مصيبًا حين قال، «العراق مثل البلوعة وأنا غطاؤه. إذا أزحتموني ستعمّ الرائحة الكريهة النتنة العالم». كان مصيبًا بحق، أنظر ماذا يجري في البلد الآن. ولكننا قتلناه؛ وأعدمنا الثورة».

- هل تذكر عندما كنا في ساندهرست؟
- أتمنى أن أكون في حي سوهو، هل تتذكر الشقراوات؟ يا إلهي، كم كن جميلات!
- سأستقر هناك بالتأكيد وأطلب أن يرسلوا إليّ راتب تقاعدي؛ سيوفر لي حياة محترمة في لندن؛ ولكن المعيشة غالية في لندن، ربما أستقر في ضواحيها؛ على الأقل سيحظى أطفالي بتعليمٍ محترم.



قال أحدهم والدموع تسيل على خدّيه «أوه، كم أشتاق إلى زوجتي».

تمنّوا جميعًا أن يكونوا في مقهى في حي سوهو يرشفون قهوة الأسبريسو ويتحدثون مع الأصدقاء بينما هم يرمقون المارة بنظراتهم، وخاصة الفتيات بالألبسة العصرية.

«من يعير هذا البلد الفاسد اهتمامه، ناهيك عن المخاطرة بحياته؟» تفوّه البعض بهذه العبارة، وشاركه آخرون، بحيث اضطررتُ إلى أن أفقد احترامي لهؤلاء الرجال، قادة العراق المحتملين مستقبلًا، هذا إذا ما خرجوا من هذه المصيدة أحياء. عندما خمّنتُ نسيج هؤلاء، تذكرتُ مثلًا عربيًا يقول: «إذا كان الغراب قائدًا لك، سيقودك حتمًا إلى كومة الزبالة».

كنا في كومة الزبالة بالفعل، وإذا جاء هؤلاء الناس إلى الحكم كانوا حتمًا سيديرون كومة الزبالة، ولهذا السبب، وصلت إلى قناعة بأنني لا أرغب أن أعيش في هذه الأكوام، أردتُ الخروج. بالإضافة إلى أن هؤلاء الذين يُدعون بـ«القادة» قد تكلّموا كثيرًا عن نيتهم في ترك البلد، وأثّر هذا الأمر على تفكيري أيضًا: قلت في نفسي لو أنني أيضًا خرجت من هذا المكان، فانني سألمّ حاجياتي وأذهب إلى شطآن الأمان في الغرب. نعم، كركوك هي مسقط رأسي، ولكن العراق في الواقع ليس موطن آبائي.

أنا مواطن مخلص لهذا البلد، ولكن العراق ليس موطني بحق، فموطني الأصلي هو أرمينيا الغربية. من هناك جاء أهلي، وجذور عائلتي كانت فيها لغاية جريمة الإبادة الجماعية التي ارتكبتها تركيا، وإلى هناك أنتمي، وليس إلى أرض العرب! في أية حال، العيش في موطن الآباء كان مستحيلًا في ذلك الوقت؛ فقد هجّر الأتراك أغلبية الشعب الأرمني من هناك، من ضمنهم أهلي، وأجبروا الآخرين إلى اعتناق الأسلام، لا يمكنني العيش هناك!

وضعي هذا مشابه لوضع اليهود الذين عاشوا في الشتات لقرون عديدة، وكانوا مواطنين مخلصين للبلدان التي عاشوا فيها، ولكنهم لم يفقدوا رؤيتهم تجاه أورشليم ولا أملهم بالعودة.

خلقت هذه الصراعات الداخلية وتنازع الهويات والولاءات داخلي، شعورًا بعدم الاستقرار في حالتي النفسية. كان من السخافة أن أفكر بكلّ هذا فيما مصيري على المحك، وحياتي يمكن أن تنتهي في غضون دقائق.

ما سمعته في تلك الغرفة لا يصدّق، كنت مندهشًا من أقوالهم. هؤلاء القادة القوميون و«الوطنيون» يستنكرون ويشجبون بلدهم. كانوا يحلمون ببريطانيا، بريطانيا نفسها التي كانوا يدينونها بشكل عنيف، ومع ذلك يحبونها بشدة. كانوا يريدون أن يعيشوا في مملكة وينعمون بالحياة الديمقراطية فيها، وهو النظام نفسه الذي رفضوه في بلدهم.

في هذه المعمعة أظهر عمي مرونة استثنائية. كان عذابه نفسيًا وليس جسديًا، إذ إنه لم يستطع أن يتقبّل حقيقة واحدة هي أن الشيوعيين نالوا منه أخيرًا، وقد بات سجينًا لديهم. كان جُرح في غروره بشدة.

كان القرآن الكريم مادة القراءة الوحيدة المسموحة لنا في السجن. كانت فرصة لقراءته، ولو أنه حسب العرف الإسلامي لا يسمح لغير المطهّرين أن يمسوه. إستثنوني من هذا الشرط وسمحوا لي أن اقرأه. فكرتُ أن هذه مادة تثقيفية جيدة لي واستكمال لما تعلمته أثناء الدراسة الثانوية. كان مدرّس الدين الإسلامي يسمح لي أن أبقى خلال الدرس، آملًا أن أعتنق الأسلام فيضمن دخوله الجنة لقاء الجهد الذي بذله من أجلي. كنت أؤمن أن ليس هناك فرقًا في إيصال كلام الله عن طريق المسيحية أو الإسلام.

ذات يوم، سمحت سلطات السجن للمعتقلين، وجلّهم من المسلمين، بأداء صلاة جماعية. وكانت تلك المرّة الوحيدة، إذ لم يسمحوا بتكرارها! لا أدري لأي سبب انضممت إلى المصلّين. هل بسبب الصداقة مع زملاء في الاعتقال، أم لرشوة الله، أم للحصول على السلوان والراحة. وجدت نفسي أصلّي خلف الإمام الذي لم يكن سوى عبد الرحمن البزّاز، أستاذ القانون الذي يحظى باحترام عظيم، وأحد مؤسّسي منظّمة أوبك، فيما بعد.



تأقلمت مع محيطي في خلال بضعة أيام. لم تقام «الحفلات» على شرفي بعد ذلك. بدأت جروحي بالاندمال: بدأت العلامات السوداء والزرقاء بالتحوّل تدريجيًا إلى الأصفر المخضّر، أما أظافر أصابع قدمي، فارتخت وتساقطت تباعًا.

في غسق إحدى الأمسيات، سمعنا صرير عجلات. رأينا دبابتين في الباحة الخارجية وقد وجّهتا مدفعيهما نحو غرفنا وأسرع الحرّاس لغلق أبوابها. أصابنا الهلع، إذ ظننا أن الدبابتين ستسحقاننا تحت عجلاتهما أو تقتلاننا بقذائفهما. صاح أحدهم: «يا الله، سيقتلوننا بالجملة!»

بدأ كلّ واحد منا يتمتم بصلاة يعرفها؛ أما أنا فردّدت الصلاة الوحيدة التي كنت أعرفها، الصلاة الربانية. لم أستطع التفكير فقد توقّف دماغي عن العمل. رأيت عمي متجمّدًا في مكانه وتعلو وجهه نظرات مضطربة، ولكنني أشك أنه تلا أي صلاة يعرفها، فقد كان غنوصيًا ذا إيمان مشكوك فيه، ولا أعتقد أن هذه الحالة الطارئة جعلته يسلِّم أمره لله.

مرّت الدقائق كالساعات، وكلّ واحدة تزن طنًا. ظننت أن نهايتنا أتت وبطريقة مأساوية! ولكن، لا. مرّت خمس دقائق، ثم نصف ساعة، فساعة، ولا زلنا أحياء. فجأة، سمعنا صوت عجلات الدبابتين وهما تنسحبان. تنفّسنا الصعداء، وخيَّم علينا سكون الموت. نظرنا إلى بعضنا البعض، ولم تنطق ألسنتنا ولو بكلمة؛ كأننا أصبنا بشلل كامل.

صباح اليوم التالي، تأكدت شكوكنا؛ أخبرنا الجنود أن الشيوعيين جلبوا الدبابتين من دون موافقة الجهات المختصة أو حتى بعلمها؛ بنية إطلاق القذائف على المعتقل وقتل من فيه، وفي اللحظة الأخيرة، عَلِمَ «الزعيم الأوحد» بالمؤامرة فأمر بوقف تلك «العملية اللاقانونية».

تفسيري الخاص في البداية هو أن «مؤامرة الدبابتين»، كانت تستهدفنا كمعتقلين، في إطار حرب نفسية ضدنا. غير أنني اقتنعت لاحقًا بالتفسير الأصلي، باعتبار أنه بسبب تصدّع العلاقة بين قاسم والحزب الشيوعي، حاول الشيوعيون تحقيق أمرين:

أ- التخلص من جميع أعدائهم المعتقلّين.

ب-تحدّي سلطة قاسم وتأمين مشاركة الحزب في اتّخاذ القرارات.

مرّت ستة أسابيع على اعتقالي، ولم يزرني أحد أسوةً بباقي المعتقلين. كنت متأكدًا أن عائلتي لا تعرف مكاني. ذات يوم، فتح الحارس الباب ونادى بإسمي وأمرني أن أرافقه إلى البناية الأمامية. قال لي «لديك زوار». كانت آن مع ابننا الطفل فاتشي في حضنها. كنت مندهشًا وسعيدًا برؤيتها؛ وبالإضافة إلى ذلك، استرجعت الزيارة هويتي.

حاولت آن أن تظهر شجاعة ومشَجِّعة، ولكنني كنت واثقًا من اضطرابها، وقد بان الخوف والفزع على محياها. لم تقل الكثير لأنها لم تستطع. قالت فقط إنهم قلبوا الدنيا حتى عرفوا مكاني، ولكنها لم تفصح كيف. من الممكن أن يكون أكرم الممرّض قد أعطاهم معلومات عن مكان اعتقالي. قالت لي: «لقد نقص وزنك!»

- لا بأس، سيكون وزني خفيفًا على الحبل!
- لا تتفوّه بكلمات سخيفة مثل هذه. سينتهي كلّ شيء سريعًا. أنا أعرف ذلك؛ سترجع إلى البيت، وسأطهو لك ثانية، وستتحسن حالتك.
- وكيف حالكِ أنتِ؟
- حالي جيدة، وكيف أنت؟
- جيد.
- كيف حال فاتشي؟
- إنه في أحسن حال. يأكل مثل الحصان، وينام جيدًا في الليل. يفتقد أباه. أليس كذلك يا فاتشي؟ هل تريد أن تحضنه؟ خذ!

أحسست بشعور غريب وأنا أحمل ابني. قبّلته وأرجعته لآن. لعلني لم أرد أن أشعر بحلاوة الأبوة لأخسرها بعد دقائق في قساوة الواقع الذي كنتُ فيه. كنتُ مثبط العزيمة والمعنويات، وأعلنت استقالتي من الحياة؛ فذلك النوع من الحب



الأبوي المتأجّج سيزيد من عذابي عند فقدانه ثانية، وسيسحبني خارج الواقع الذي أعيشه ويجبرني أن أتعلّق بقشة الحياة. لم يكن بإمكاني تحمُّل المزيد من العذاب.

- كيف حالك؟ سألتني آن ثانية وهي تبحث عن موضوع للمحادثة.
- أحوالي جيدة، كيف حالكِ أنتِ؟
- أوه، هذه صديقتي، الآنسة التكريتي!
- كيف حالك؟

كانت هذه الآنسة شقيقة حردان عبد الغفور التكريتي، قائد القوّات الجوية، وأحد المشاركين في انقلاب ١٤ تموز، وأحد المتعاونين مع الشوّاف. (تمّت تصفيته بعد سنوات على يد عملاء صدّام في الكويت). إنضم إلينا حردان بعد برهة من الزمن.

كانت له شخصية مهيبة تفرض احترامها، بشرته سمراء مع شفاه غليظة، صوته وسلوكه لطيفان، يحتفظ في داخله بغضب عميق. وعلى الرغم من وصوله إلى مراكز عالية، بقي شفافًا ولم يفقد ميزته العشائرية في البساطة وحسن السلوك.

كانت الزيارة قصيرة جدًا، ولكنها كافية ليسترجع الإنسان شريط حياته أمام عينيه، حاولت ألا أغرق في العاطفة، ولكن لقاءات من هذا النوع، وفي ظلّ الظروف القاسية، تسهم في زعزعة حال الفرد النفسية.

قال لي أحد نزلاء الغرفة بطريقة فلسفية: «الموت أسهل إذا لم ينظر المرء إلى الوراء».

إبتعدنا أنا وحردان من موضع الزيارة بعد انتهائها. رأينا في طريقنا شخصًا يفرض هيبته على الجميع واقفًا أمام نافذة مفتوحة تطل على الباحة الخارجية. كان يرد السلام العسكري للضباط الذين يحيّونه أثناء فرصة العشر دقائق الممنوحة لهم للمشي.

تعرّفت على الرجل عندما اقتربنا من النافذة، كان الزعيم الركن ناظم الطبقجلي الذي خدمت تحت قيادته في الفرقة الثانية في كركوك. لم يكن مسموحًا أن يخرج

من الغرفة إلى الهواء الطلق والمشي. وقد أخبرني حردان إنه إمعانًا في إهانته وإذلاله، أجبروه على مسح الأرض، وغسل الصحون، وجمع القاذورات.

أديت التحية العسكرية بدوري لرتبته ومكانته وتضامنًا معه في معتقله. ردّ التحية مع إيماءة برأسه وكلمات لم نسمعها، فقد تعرَّف عليّ على الرغم من التقائنا مرّة واحدة فقط.

قبل تسعة اشهر، رتَّبت إقامة قداس في كنيستنا في كركوك للاحتفال بـ«فجر عهد جديد» كما كانوا يسمّون انقلاب الرابع عشر من تموز. دعيتُ الطبقجلي، أحد مهندسي الانقلاب، للحضور. عند دخول الطبقجلي القاعة، عمَّ التصفيق المكان. كان منظر قدومه، محاطًا بحمايته الشخصية، مهيبًا ولائقًا، وقدَّرتُ عمره بأربعين سنة. كانت شخصيته تفرض نفسها على الجميع. أنيقٌ في ملبسه، شارباه مشذَّبان بعناية وباستقامة. بدت جبهته العريضة كتاج لمّاع. كانت عيناه وقورتَين تدلّان على عمق التفكير وتعكسان شعوره الداخلي. سلوكه كان سلوك عربي أرستقراطي مفعم بالدماثة واللطف، ويُشعِرُ مَن أمامه بأنه في حضرة شخص عظيم. في الوقت نفسه، يتساءل المرء: كيف يمكن لشخص مثله أن يغضب؟ ناهيك عن أن يصبح قائدًا ثوريًا، ويريق الدم؟ ولكنه كان كذلك!

بعد أن ألقيت كلمات الترحيب به في ذلك اللقاء، ألقى الطبقجلي خطابًا قصيرًا أوضح فيه أهداف الجمهورية الحديثة التكوين. تلقّى الحضور كلماته بالتصفيق بالتهذيب، وفي الغالب غير صادق. فالأرمن بعد المجازر التي تعرّضوا لها، لم يكونوا مرتاحين للتغييرات الجذرية الجارية بعد أحداث الرابع عشر من تموز. فقد كنا بأجمعنا مرتاحين في ظلّ النظام الملكي الذي أحسن استقبال فلول الناجين من المذابح التركية، ووفَّر لهم فرصًا جديدة للحياة الكريمة. أما الآن، فإن هذه الثورة قد زعزعت الاستقرار وأدت إلى قلق على المصير؛ لم تعجبنا هذه الثورة! ولكن ماذا بإمكاننا أن نفعل؟ علينا أن نظهر الدعم للجمهورية.



كان الطبقجلي يلفظ بوضوح، ويتحدّث بلطافة ومتألّقًا، وبالحقيقة سعيدًا لوجوده بيننا وقال لنا: «أنتم أبناء هذه الثورة»، غير أن أحدًا منا لم يشعر بذلك؛ فقد كانت قلوبنا وعقولنا مع النظام الملكي.

تحدّثت معه شخصيًا على انفراد. كانت لدي أفكار كثيرة أردت أن أنقلها إليه، ولكنني اخترت موضوع اختطاف الثورات. كان لذلك الموضوع أهمية كبيرة عندي لأنني كنتُ أرى ما يفعله الشيوعيون بالبلد. كنتُ أعرف كيف يعملون؛ كانت خبراتي التي اكتسبتها في صيدلية «العراق» قد علّمتني الكثير!

أخبرته عن تجربة أرمينيا مع الشيوعيين في العامين ١٩٢٠-١٩٢١ عندما زجّوا الوطنيين في السجون وقطعوا رقاب ١٥٠٠ منهم بالفؤوس. أنذرته من شرور الشيوعية؛ أخبرته عن تلك العقيدة الشريرة، والوحشية التي تعاملوا بها مع شعب أرمينيا. ذكّرته بأحداث ١٩٥٦ في هنغاريا. أخبرته كم هم غير جديري بالثقة، وكيف يعملون من دون كلل لاختطاف ثورته.

إستمع إلى كلامي بكلّ انتباه ثم قال: «يا دكتور، يخبرني الجميع أنهم يخافون من الشيوعية؛ من هم الشيوعيون؟ ما هي القوّة التي يملكونها في هذا البلد؟ ما هو عددهم؟ ما هي أهميتهم؟ إذا أصدرنا قانونًا للإصلاح الزراعي، إذا فكّكنا النظام العشائري، إذا وزّعنا الأراضي على الفلاحين، إذا وفَّرنا لهم المكننة الزراعية والحبوب، فمن منهم سيتجه نحو الشيوعية؟ هؤلاء أناس مسلمون وفقيرو الحال ومساكين ومتديّنون، لن يغامر أي منهم بالمنافع التي حصل عليها من الثورة ليصبح شيوعيًا! ليس لديهم ما يقدّمونه إلى الشعب!»

ذكرتُ له بكلّ أدبٍ وبثبات عدم اقتناعي برأيه، فتقبّل بلطافة، ثم قدَّم شكره للجالية لدعمهم الثورة. وقبل مغادرته، قلت له: «سيدي، لقد قمتُ بواجبي وأنذرتك».

حدث هذا قبل تسعة أشهر، وهو يقف الآن مطلًا من النافذة، هادئًا ورابط الجأش، كأنما لا زال في مركز القوّة، ولكنه فقد البريق في عينيه.

ردّ التحية العسكرية وأدار فورًا وجهه صوب رفاقي، وقال:

«يا جماعة. أعرف الدكتور وقابلته في كنيسته. أعطاني نصيحة مهمّة جدًا؛ أنذرني من الشيوعيين، ولكنني لم أستمع إليه. أنا آسف جدًا لتجاهلي الموضوع! أنظروا إلى حالنا، أين وصلنا الآن! لو استمعت إلى نصيحته، لما وصل أي منا اليوم إلى هذا المكان. ومن هذه اللحظة، إذا بقينا أحياء، أريدكم أن تستمعوا إليه وإلى الأرمن الذين عانوا قبلنا. لديهم تاريخ من المعاناة وهم يعرفون الشيوعيين جيدًا».

قلت: «ليس الوقت متأخرًا سيدي، لا زال هناك أمل!» فأجابني: «لا أعتقد يا دكتور، لعل الجيل القادم لديه أمل، ولكن لا أمل لنا، فلن يدعونا نفلت من أيديهم».

لم نتمكّن من التحدّث طويلًا؛ كان علينا أن ننسحب. كنت مندهشًا أنه تذكّر ما قلته وليس فقط أنه تذكرني في الاحتفاء بـ«فجر عهد جديد» في صالة كنيستنا. أدّينا التحية العسكرية وأكملنا طريقنا.

كانت تلك المرّة الأخيرة التي ألتقيته. ففي العشرين من أيلول سنة ١٩٥٩، أُعدِم رميًا بالرصاص في أم الطبول مع رفعت الحاج سري، المؤسّس الأصيل لحركة الضباط الأحرار في فلسطين، وعزيز أحمد شهاب، من الضباط الأحرار أيضًا ومن المعتقلين في غرفتي. أصبحت ساحة أم الطبول ضريحًا ومزارًا ومكانًا للإلهام للقوى المناوئة لقاسم والمعادية للشيوعيين، وبعد عقدٍ من الزمن بنى صدّام جامعًا في الموقع.

بالتخلص منهم، انتهى فصلٌ آخر من الصراع حول بابا كركر لمصلحة أولئك الذين عارضوا الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة: قاسم والأكراد والغرب والشيوعيون.

إنتهت نزهتنا بسرعة. عندما وصلت إلى الغرفة، دعاني عمي إلى أن أذهب إلى زاويته التي يجلس فيها، إذ كان قد استيقظ من نومه. قال لي: «لن تصدّق هذا يا هنري. حلمتُ حلمًا مخيفًا الآن! كنتُ أمشي في مجاري مياه مظلمة، مظلمة، تحت



الأرض. كانت المياه القذرة تصل إلى ركبتي، وفجأة رأيت نورًا واتّجهت نحوه، ثم خرجت إلى حيث الشمس الساطعة».

- هل تؤمن بالأحلام؟ في بعض الأحيان تكون صادقة وتتحقق!

- لا تكلّمني عن الاحلام، فأنا بصعوبة أؤمن بالله، فكيف بالأحلام. من السهولة أن تؤمن بالمسيح على الأقل إنه شخصية تاريخية، وكان بإمكان الناس ملامسته والتحدّث إليه! أما الأحلام؟

- كلا، كلا! الأحلام، علميًا، انعكاس الأحاسيس المكبوتة عند الفرد، ولكن الإنسان فسَّرها للتنبؤ بالمستقبل. تعطي الأحلام الشعور بالسيطرة على القدر، أو مجرد إشباع لفضوله.

- هذا كلام تافه، تفسير الأحلام للمهتمين بالخرافات، وأنا لست واحدًا منهم!

- حسنًا، دعني أُخبرك. أنا أيضًا لا أؤمن بالخرافات، ولكن هناك أشياء لا يمكن تفسيرها في هذا الكون. أستطيع أن أفهم أن حلمك يقول لي إنك ستخرج من هنا عن قريب!

- أتمنى ذلك، ولكن دعك من أحلام اليقظة. لقد مسكونا من خُصياتنا، فهل تعتقد أنهم سيطلقون سراحنا؟ ليسوا أغبياء لهذه الدرجة!

- إن حلمك يقول لي ذلك! لا يمكن لكلّ هؤلاء المؤمنين أن يكونوا على خطأ؛ يجب أن يكون هناك بعض الحقيقة، انظر! كما تعلم في الكتاب المقدّس الكثير من هذه الأمثلة.

- لا تكلّمني عن هذا السجل الزمني للأحداث الخلاعية!

في تلك الليلة، فُتح الباب ثم نادوا أسماءنا. ها إننا نبدأ من جديد، كم كنت مخطئًا عندما ظننتُ أن تلك «الحفلات» قد انتهت، بالنسبة إليّ، من دون رجعة! ها أنا مدعو ثانية، ولكن هذه المرة لتعليقي من حلقة مروحة السقف. يا إلهي، ماذا فعلت لأستحق كلّ هذا؟ كنت مرتعبًا لحد الموت.

لقد طلبوا عمي أيضًا. كان علينا الذهاب للاستنطاق. تعجّبنا عندما وضعوا القيود في أيدينا وأصعدونا في سيارة نقل وانطلقت بنا. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل لمّا وصلنا إلى وزارة الدفاع.

وزارة الدفاع؟ ظننت أن هذه هي النهاية، لقد جاء دورنا، وانتهى وقت الانتظار؛ سوف ينظرون في قضيتنا ويحاكموننا محاكمة صورية مثل الآخرين، ثم أواجه فرقة الإعدام؛ وعمي يعلّق على المشنقة.

جلسنا في الصالة وانتظرنا. كانت هناك حفلة تقام في الداخل! كان أحدهم يصرخ ويبكي ويطلق أصواتًا غريبة. سمعنا صراخًا ينم عن الغضب وأوامر ملقاة، ولكن لم نتمكّن من معرفتها ولم نفهم شيئًا من خلال الباب الضخم من خشب الماهوكاني الصلب؛ كنا متأكدين أن الأصوات لم تكن محادثة عادية، كانت أصوات ضرب وتعذيب، وكنا هنا لنستمع إليها!

عندما انخفضت الأصوات، كان قد مرّ على انتظارنا حوالى الساعتين. إنفتحت الأبواب الضخمة التي كانت ترتفع من الأرض إلى السقف، وخرج أربعة جنود يمسك كلّ واحد منهم طرف بطانية تحمل الضحية. كان شبه فاقد للوعي. والآن جاء دورنا. نادوا اسم عمي ليدخل أولًا. رمقني بنظرة استسلام، ثم اتّجه نحو صالة الاستنطاق بخطوات وئيدة. كنت أعرف أن هذا الرجل الشيخ لن يخرج حيًا إذا تعرّض إلى تعذيب جسدي؛ فهو لا زال تحت تأثير التعذيب النفسي. أتذكّر أنه تلقى مرّة ضربة بالعصا على كتفه عندما كان في السجن. إختفى ألم الكتف بعد سنوات من المعاناة، ولكن الجرح في كبريائه دام. كانت سعادته بذلك، أشبه بفكاهة على منصة المشنقة.

رمقته بنظرة تشجيعية وتمنيت له الحظ الحسن قبل أن يختفي في الغرفة.

بقيت في صالة الانتظار وحيدًا من دون حراسة، بعد أن أزالوا القيود من يدي. كان الطابق الثاني يبدو خاليًا، ما عدا غرفة التحقيق والاستنطاق، التي كانت هادئة بشكل مذهل.



خطرتْ في بالي فكرة الهروب. أهرب؟ ولكن إلى أين؟ كيف أستطيع الخروج من هذه البناية؟ ماذا سأقول للحرّاس إذا رأوني؟ هل أقول إنني كنت ضابط الخدمة، أم تفاهة مثلها؟ شعري الشعث وغضن ملابسي كافيان لكشف حقيقتي. نعم، كان الهروب مغريًا، ولكن ليس عمليًا، بل فكرة عابرة ومجنونة وانعكاس لرغبة الإنسان الداخلية في الحرية. بأية حال، فكرت أنه من الأفضل الانتظار ومواجهة التبعات على أن يعاد القبض علي ويجري تعذيبي من جديد.

نبذتُ فكرة الهروب!

دخل عمي كريكور الغرفة وأغلقوا الباب خلفه. كنت أسمع أصوات محادثة غير مفهومة، ولكن لا شيء يشي بتعذيب جسدي؛ لم تكن هناك أصوات ضرب بالسوط والعصا كما في الحالة السابقة.

إستمر التحقيق معه ساعة واحدة خلتها أطول من صوم الخمسين. وعندما فتحوا الأبواب وخرج سالمًا من دون أذى جسدي، بل بمشية المنتصر، استنتجت أنه لم يتعرّض للتعذيب.

جلس إلى جانبي وقال: «لديهم نسخة من كتابي «تاريخ الأمة الأرمنية» (باللغة العربية) على الطاولة، مع ابن العاهرة العقيد جلال بلاطة! لم أصدّق ما رأته عيناي! ذلك الكردي يجلس خلف المنضدة ويستنطقني! لقد عالجت جميع أفراد عائلته، والديه وأقرباءه لسنوات طويلة ونادرًا ما حاسبتهم على خدماتي. أعرفه منذ أن كان طفلًا صغيرًا في زاخو. هم أكراد طيبون، ولكنني لم أعرف أنه كان شيوعيًا. جلس يستجوبني حول محتويات كتابي. قال لي: «دكتور آستارجيان، إنك تنتمي إلى العهد الملكي البائد؛ كلّ شيء هنا، لا تستطيع إنكاره؛ لقد مدحت العائلة الهاشمية في كتابك؛ ها هنا، أسود على أبيض. ثم استدار وقال، «أنت رئيس حزب الطاشناق، ما هو هذا الحزب؟»

«أعطيتهم محاضرة عن مُثُل وأهداف الحزب، أخبرتهم أنه حزب وطني، ولد من رحم الضرورة، لقتال الاضطهاد التركي العثماني، والسلطان عبد الحميد،

السلطان الأحمر، مثلما قاتلتم ظلم النظام الملكي. إن حزب الطاشناق، والأرمن عمومًا، مواطنون مخلصون لهذا البلد، وليست لديهم أي مطالب أرضية فيه أو في عموم البلاد العربية. لستُ رئيس حزب الطاشناق، وحسب علمي لا توجد منظّمة بهذا الاسم في العراق، ولكن إيديولوجية الحزب تعيش في قلوب الأرمن كافة».

أضاف عمي: «ذكر العقيد بلاطة للآخرين بأنني كنت طبيبًا تجاه أهل الموصل؛ وإنني كنت أعالجهم وأُحسن إلى فقرائهم، وكلام من هذا النوع! أستطيع أن أُخبرك أنهم لم يضربوني أبدًا. كان التحقيق عبارة عن محاضرة تثقيفية لهم، وهذا سبب سروري. يجب أن يتعلّم هؤلاء الناس من نكون وماذا نريد».

كنت أرى ارتياحه ورضاه. كان يبدو عليه أنه ناقش القضية الأرمنية في محكمة لاهاي، وانتصر. لعل مستمعيه من المحققين كانوا من اليساريين الذين يكرهون تركيا لعضويتها في حلف السنتو المعادي للاتّحاد السوفياتي.

لم أتمكّن من الحديث معه، فقد نادوا اسمي للدخول إلى الغرفة. كنت أتمنى مصيرًا مشابهًا لي. تمنّى لي حسن الحظ وتمتم بكلمات تشجيعية عندما قادني الحراس إلى الداخل.

كانت الصالة بشكل كهف كبير، فيها منضدة طولها خمسة أمتار مواجهة للمدخل. جلس خلفها ضابطان برتبتَين عاليتَين ومدني واحد. كانت تبدو على وجوههم ملامح العزم والغضب. كان عمي أخبرني عن العقيد بلاطة. تعرّفت عليه بسبب الشبه بينه وبين أخيه الذي كان طالبًا معي في الكلّية الطبّية، بينما الإثنان الآخران كانا غريبين. عرفت بعدئذ من كانا! كان أحدهم هاشم عبد الجبّار، شيوعي سيء السمعة وعلى الطراز الستاليني، أقسمَ على تنظيف العراق من القوى الرجعية، والآخر داوود خمّاس، محامي شيوعي، سيء السمعة أيضًا. كانت هيئة المحكمة كابوسًا للجميع.

جلست على كرسي مواجهًا داوود خمّاس. في اللحظة التي جلست ضربني أحدهم بالسوط على كتفي، متجاوزًا أذني: ووش! وكانت تلك النغمة السائدة خلال الاستجواب.



بدأت الحفلة بشكل جدي عندما انطلقت أصوات الموسيقى. كانوا يديرون إحدى اسطوانات روك أند رول لألفيس بريسلي. كنت أكره موسيقى وأغاني الروك آنذاك لأنني كنت أعتبرها موسيقى الساعين وراء المتعة؛ من نوع هووبلا-هوو، والسيرك والشباب العراقي المقلّدين للعادات الغربية والمعروفون بـ«أميركانو»، والذين يحاكون أسلوب حياة هوليوود؛ يلبسون السراويل الضيقة فوق الكاحل والقمصان ذات الأكمام القصيرة، والجوارب البيضاء اللون، والمتسكّعون بأحذية من دون كعب وأصحاب الشعر المدهون. كنت أكره تلك العادات وأسلوب الحياة ذاك. في كلّ حال، كانوا يعتقدون أنهم سيضعفون قوّة تحمّلي ويدفعونني إلى الخضوع بأغاني الروك أند رول وتسميتي بأميركانو.

أمروني بأن أقف على رجلَي، ففعلت! ثم ساقني العريف إلى مدفأة ضخمة، مزخرفة ومنمّقة، في الجدار، حيث كدّسوا حزمًا من القصب الثخين والرشيق أمامها. سألني أحدهم: «هل تعرف ما هذه؟» فلم أرد عليه. فأردف: «هذه صواريخي من V1 إلى V8؛ سأكسرها كلّها على ظهرك إن لم تخبرنا الحقيقة. هل تفهم ما أقول؟» لم أردّ عليه ثانية.

أرجعني إلى الكرسي. والآن بعد أن رسموا الخطوط والإحداثيات، بدأ الاستجواب. سألني خمّاس:

- لمن كنتَ تهرّب الأسلحة؟

- سيدي، لم أكن أهرّب أسلحة.

- كنتَ ذاهبًا إلى إيران لتهريب الأسلحة إلى الشوّاف، ألم تكن أنت؟ هل تنكر ذلك؟

- لا أعرف عمّا تتكلم، سيدي! لست متورطًا في تهريب أسلحة. لا أعرف من هو الشوّاف؛ إضافة إلى هذا، لماذا يرسل الشواف شخصا مثلي لتهريب أسلحة؟ هذا جنون!

ووش-ووش، اجتازت أعواد الخيزران أذني واستقرت على كتفي. بدأت أشعر بالألم في رقبتي مع كلّ ضربة! واستمر الضرب خلال الاستجواب الذي دام نصف ساعة على الرغم من أجوبتي.

مع موسيقى الروك أند رول، استمر الجنود بضربي وأنا جالس وهم يدعونني «أميركانو».

- ماذا كنت تفعل عند الحدود الإيرانية؟

- سيدي، ذهبتُ لإجراء الكشوفات الطبية في القرى الحدودية التي تفشّى فيها الوباء، كما أمرتني وزارة الدفاع ووزارة الصحة؛ كان آمر وحدتي على علم بذلك، ووفّر لي حرسًا من الشرطة، لديك نسخ من البرقيات التي استلمتُها، تجدها في حقيبتي هناك!

من حسن الحظ كانت حقيبة الطبيب العائدة لي معهم، إذ كانت «المستند رقم واحد». فتح خمّاس الحقيبة وأخرج البرقيتين الرسميتين. قرأهما وأعطاهما إلى الآخرين. كلّما مرّ وقتٌ أطول في الاطّلاع على البرقيتين، شعرت بأمل أكبر في إيجاد حل لهذه الملهاة أو المسرحية الهزلية. كنت أعتقد أن أي شخص ذا تفكير حصيف ومدرك سوف يستنتج عدم وجود أي قضية أو مؤامرة أو مكيدة. سألني أحدهم:

- هل أنت عضو في حزب الطاشناق؟

- لا يوجد حزب في العراق لأنضمّ إليه، ولكن نعم، عقائديًا أنا من الطاشناق؛ كلّ أرمني يؤمن بالقضية الأرمنية، يناضل لاستعادة أرض آبائنا من تركيا، ويتّهم تركيا بارتكاب جريمة الإبادة الجماعية التي ارتكبتها ضد الأرمن، هو من الطاشناق.

لم أكن متاكدًا إنْ اقتنعوا بما قلت. لم يكن لديهم ما يسألوني عنه بعد. فكّرت أنهم لم يربحوا أو يخسروا الجلسة. فإذا لم يقتنع العسكريان، على الأقل على المحامي المدني أن يقتنع بعدم وجود قضية. لم يكن عندي أي أمل بإطلاق سراحنا، إذ لا زالت



كلمات عمّي ترن في أذني: «بعد كلّ هذه السنين أوقعنا الشيوعيون في فخهم، فهل تعتقد أنهم سيدعوننا في حالنا؟»

وفيما لم يتوقّف الضرب، لم يجلدوني بالسوط ولا ضربوني بقسوة كما في الحفلات السابقة.

إنتهت المقابلة بهذه الأسئلة السخيفة، ثم سلّمونا إلى الحراس لإرجاعنا إلى معسكر الاعتقال.

إعتقدت أنه، على الرغم من الضرب، خرجت من التحقيق بسهولة. كانت كتفاي متورمتين وتؤلمانني، ولكنني كنت آمل بالخروج من الاعتقال. كنت راضيًا أن أحدهم أخيرًا اطّلع على البرقيتين وفهم محتواهما. كانتا دليلين على براءتي، وتبريرًا مسوغًا لعدم إحالتي إلى محكمة الكانغرو، العقيد المهداوي، المسماة محكمة الشعب.

في طريق عودتنا كنت وعمي راضيين بأننا على الأقل حصلنا على فرصتنا للمرافعة عن قضيتنا. إنبلج الفجر عندما نمنا في غرفتنا في المعتقل.

بعد عدة أيام على جلسة الاستجواب الأخيرة، أطلقوا سراح عمي ونقلوني إلى غرفة أخرى. كنت سعيدًا عندما رأيته يخرج طليقًا؛ اعتبرت إطلاق سراحه فألًا حسنًا. قلت إن هؤلاء الناس قرّروا أخيرًا أننا لسنا مهمّين ولا توجد قاعدة قانونية لإدانتنا واعتقالنا. شعرت في داخلي بأن حلم عمي جاء لمصلحة «المؤمنين بالأحلام»، وسلّمت بمبدأ أن هناك طاقات وقوى خفية في الكون، لم نتمكن كبشر من فهمها ولا السيطرة عليها، بعد.

مقارنةً بغرفتي السابقة، كانت الحالية نوعًا من البذخ؛ كانت لدي فرشة ومخدّة، على الرغم من كونهما قذرتَين. كان جاري على الأرض الزعيم عبد العزيز العقيلي، الذي نُقِل بدوره مؤخّرًا من غرفتي السابقة. حتى حين اعتقاله كان قائدًا للفرقة الأولى ومن الضباط الأحرار الأصلاء الذين تشكّلت حركتهم بعد هزيمة الجيوش العربية في فلسطين سنة ١٩٤٨، وأحد المشاركين الفعّالين في ثورة ١٤ تموز. نُقل إلى

وزارة الخارجية بدرجة سفير قبل اندلاع ثورة الشوّاف، وكان ينتظر مهمته الجديدة عندما اعتقل كمتآمر معه.

كان هذا الرجل مسلمًا ملتزمًا يتّبع مذهب الخليفة عمر بن الخطاب، ثاني الخلفاء الراشدين. تلقّى تعليمه في بريطانيا واعتبر من أكفأ الضباط في العراق. كان من القوميين المتحمّسين للقضايا العربية، ولم أنتبه إلى أي بادرة تدل على أن الرجل كان بعثيًا أو ناصريًا. غير أنه لم يكن شيوعيًا البتة.

كان الحديث بيننا يدور حول أمور عامة؛ كنا حذرين ألّا نذكر كلامًا يديننا في آخر المطاف، إذ لم يثق أحدنا بالآخر. وبما أن نزلاء الغرفة كانوا جميعًا من المعادين للشيوعية، خلق هذا الوضع نوعًا من التآلف بيننا، على الرغم من أن الحديث المتداول كان عن الدين. كان مرتبطًا عن قناعة وإيمان بإسلام الخليفة عمر العادل؛ واستمر يحاضر لي عن إنصاف الخليفة عمر وعدله.

قال لي: «عند وصول عمر إلى القدس، أخذوه إلى كنيسة مسيحية ليصلّي فيها. فرفض وقال، إذا صليتُ فيها سيبني المسلمون جامعًا في ذلك المكان، وهذا غير صحيح لأنه سينتج عنه حيفًا وغبنًا بالمسيحيين. هذه الكنيسة ملك للمسيحيين! ثم اختار مكانًا بعيدًا عن الكنيسة وصلّى هناك، وبُني مسجد قبة الصخرة في ذلك الموضع».

وإلى جانبي الآخر، كان مكان العقيد عبد الغني الراوي، أحد الثوار والقومي المتحمّس، ولم أعرف عنه إن كان بعثيًا أو ناصريًا. كان لطيفًا، طيب القلب، على الرغم من كونه عاطفيًا، سريع التأثر ومتقلّبًا.

مرَّ يومٌ أو إثنان على انتقالي إلى هذه الغرفة الباذخة. كنا مرتاحين جدًا ولم تُقام الحفلات ولا أعمال الترهيب ضدنا. ولتكملة حديث غير مثير للجدل، سألت الزعيم العقيلي إن كان يؤمن بالأحلام. فأجاب:

- طبعًا أؤمن بها. ففي القرآن تفسيرات كثيرة للأحلام، وحتى في الكتاب المقدس هل تذكر حلم يعقوب؟



- طيب، في هذه الحال، دعني أُخبرك عن حلم لي! كنا ثلاثة في الوحل، وخرجنا منه في يوم مشمس. كانت تنتظرنا خيول ثلاثة، كان أحدهم أبيض اللون والإثنان الآخران بُنّيان. قفزتُ على الحصان الأبيض وانطلق بي. وركب الرجل الثاني حصانًا آخر، ولكنه سقط على ظهره حينما انطلق الحصان وبقيت رجلاه معلّقتان بركاب السرج. نجح أن يستعيد وضعه على السرج ولحق بي. أما الثالث، فسقط عن الحصان ولم يتمكّن من اللحاق بنا. حسنًا! ماذا تستنتج من هذا الحلم؟

- سيُطلق سراحك عن قريب! إحفظ كلماتي جيدًا!

أخبرته عن حلم عمي وكيف تحقق خلال بضعة أيام، فأجابني: «أرأيت؟ أنا محق.» أعطاني كلامه جرعة من الأمل.

فتح الحرس الباب في اليوم الثاني، ودعا اسمي واسم نزيل آخر معي في الغرفة. قيل لنا أن نتحضّر للذهاب إلى وزارة الدفاع لمزيد من الاستجواب. وجدنا أنفسنا على ناقلة وأيدينا مقيّدة. كان هناك «متآمر» ثالث معنا من غرفة أخرى. بعد برهة قصيرة، كنا في الطابق الثاني في الوزارة، وجلسنا في غرفة الانتظار نفسها والمجاورة للصالة التي أُقيمت حفلة على شرفي فيها قبل عدة أيام. أدخلوني فيها أولًا.

وجدتُ نفسي مواجهًا داوود خمّاس الجالس وحده خلف المنضدة الكبيرة. كنت ألبس الزيّ العسكري من دون القبعة أو علامة تدلّ على رتبتي العسكرية. أدّيت التحية الملائمة، فلم ينتبه.

- هل أنت هنري آستارجيان؟

- نعم سيدي، أنا هو.

- ما هي رتبتك؟

- ملازم ثانٍ، سيدي!

- أين نجماتك؟

- لا أدري سيدي، فقد نزعوها عن كتفَيّ.

أمر الحارس: «عريف، أعطه نجمتين! والآن إذهب فأنت طليق. إتصل بإدارة الضباط في الوزارة لمزيد من التعليمات والأوامر».

- نعم، سيدي!

أديت التحية للمدني الذي يجلس خلف المنضدة الكبيرة، ولكن هذه المرّة والنجمات على كتفي. كان قلبي يطير من الفرح!

خرجتُ واتّجهتُ إلى غرفة الانتظار إلى أن ينهي الآخرون محنهم ومصائبهم مع خمّاس قبل الرجوع إلى المعسكر. لم يستغرقوا وقتًا طويلًا معه؛ أُطلق سراح أحدهم مقابل كفالة مالية بمقدار ١٠٫٠٠٠ دينار، وأرسل الثاني إلى محكمة الشعب للمحاكمة من قبل الوحش المشهور العقيد المهداوي أمام كاميرات التلفزيون ليرى العالم كلّه مهازله.

أخبرت صديقي الزعيم العقيلي أن حلمي قد تحقق، فأبدى ارتياحه وشعوره بالسعادة، واستمر يقول لي إن هناك حقائق موضوعية في الأحلام تتحقّق دومًا. ثم قال لي: «هكذا يتصرف الله أحيانًا مع خلقه، وحلمك هو الدليل على ذلك».

لم يكن لدي الوقت ولا الرغبة في النقاش، ولماذا؟ فقد تحقّق حلمي وحلم عمي، وها أنا ذاهب إلى بيتي. لماذا أناقش؟ حصلت على وسيلةٍ للنقل إلى بغداد لأجتمع مجددًا بزوجتي وابني.

كان إطلاق سراحي لغزًا لم أجد له الحل. لم أعرف من تآمر ضدنا وأودعنا الاعتقال، ولِمَ أُطلق سراحنا. لم أصدق سهولة إقفال القضية وإطلاقي. «أين نجماتك؟ خذَ هذه واذهب!» إنتهت ثلاثة أشهر ونصف من التعذيب والكرب هكذا، كأنها هو الفصل الثالث من ملهاة مأساوية!



على الرغم من كلّ هذا، كنت سعيدًا بذهابي إلى البيت. فقد بدأت جروح جسمي بالشفاء، وبدأت أضافر أصابع قدمَيّ بالنمو ثانية، بخلاف التأثيرات النفسية، وخاصة الخوف، التي بقيت تسيطر على مشاعري.

بعد شهرٍ من نيلي حريتي، تسرّحت من الخدمة العسكرية. أنا الآن طبيب مدني وبحاجة إلى عمل.

الفصل العشرون

# المحاكم والأكراد والشيوعيون

كنا في نهاية تموز ١٩٥٩ عندما أطلقوا سراحي من الاعتقال. كان الجو السياسي بأكمله في البلد غير مستقر خاصة بسبب «محكمة الشعب» المعروفة برئاسة ابن عمة قاسم، العقيد فاضل عبّاس المهداوي. كانت الغاية من تأسيس المحكمة محاكمة «النظام السابق وخونة الجمهورية،» ولكن بعد ثورة الشوّاف رُكِنت محاكمات النظام السابق جانبًا وبدأت محاكمات «الخونة الجدد.» كانت المسألة تشبه مشاهدة مسلسل جديد يعرض من الراديو والتلفزيون بعد انتهاء المسلسل القديم. كان المدّعي العام في تلك المحكمة العقيد ماجد أمين الذي كوَّن مع المهداوي ثنائيًا يديران سيركًا لم يوجد مثيلًا له في جميع أنحاء العالم.

كانت المحكمة تشبه أي شيء ما عدا منتدى قانوني؛ فقد استخدم هذان المهرّجان المحكمة بصورة رئيسية لإذلال وسخرية ومهاجمة عبد الناصر وكلّ أولئك الذين ساروا على خطاه واعتنقوا فكره لتوحيد أرض العرب تحت راية واحدة. سخروا من سوريا لأن حزب البعث المناوئ للشيوعية كان يحكمها.

من ضمن العديد الذين حاكمتهم المحكمة، اللواء غازي الداغستاني، سعيد قزّاز، بهجة العطية، الطبقجلي، رفعت الحاج سري، وغيرهم من الأسماء اللامعة في الحكومة العراقية السابقة والجيش. أهانوهم وسخروا منهم أمام عدسات التلفزيون، وتعدَّت الإهانات أشخاصهم إلى عوائلهم وأقربائهم.

أدانوا حلف بغداد وأهانوا بريطانيا وأنثوني ناتينك (Nutting)، عضو وزارة بريطانية سابق الذي تحوّل إلى مراسل صحفي، وكان في زيارة إلى القاهرة. أطلقوا عليه اسم انثوني ناثينك (Nothing). لم يحتقروه ويزدروه كثيرًا لأنه إنكليزي، بل لأنه صديق لناصر. كان ناتينك يتكلّم العربية بطلاقة ولعب دورًا مهمًّا أثناء حملة السويس مما فتح المجال لإطلاق صفة الجاسوس عليه.

كانت جلسات المحكمة تبدأ قبل ساعة أو اثنتين بالسباب والشتائم والإهانات الموجّهة إلى أعداء الجمهورية. كانوا يهينون ويستخفون بمبدأ الوحدة العربية لمرّات متتالية وعلى مدى الأيام. أما مفهوم التعاون مع الاتّحاد السوفياتي «المقاتل ضد الإمبريالية ومحرر الشعوب المقهورة»، فكان موضع مديح واستعلاء. ثم تلي موجة الشتائم، محاضرات طويلة في الوطنية، وهجوم معاكس ضد أحمد سعيد، المذيع المصري الطليق اللسان، الذي كانت كلماته تنفث السموم بحق قاسم ونظامه وبحق المهداوي ومحكمته.

أما الحضور في المحكمة، فكأنهم جالسون حول خشبة مسرح، يصفقون ويهتفون ويتلون الأشعار في مدح الزعيم عبد الكريم قاسم وذم وإهانة ناصر والشوّاف و»جميع القوى الرجعية».

كان صوت المهداوي يلعلع من منصته وهو يصيح: «هذه المحكمة هي مُلك الشعب!»، فيستجيب الجمهور صائحًا: «إشنقهم! إشنقهم! إشنقهم! ماكو زعيم إلا كريم».

ثم يقحم ماجد أمين، المدّعي العام، نفسه في خضم الصياح والعويل وهو يزعق مهددًا: «لقد تعلّم شعب العراق أسلوبًا جديدًا للعقاب يسمى 'السحل'، وهي طريقة عراقية مبتكرة!» فيجن جنون الحضور ويهتفون، «إقتلهم، إقتلهم، يستحقون السحل، سلّموهم إلينا، الحبال معنا! ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة».

ويستمر المهداوي بدوره: «على الرغم من المؤامرات ضده وضد البلد، فقد حرّر الزعيم الأوحد البلد من المستعمرين، الرجعيين، الإقطاع، الرأسمالية الأميركية،



أعداء العراق، عملاء ناصر، ومن هؤلاء الخونة المجتمعين هنا أمامي. مصالح مَن يخدم هؤلاء؟ يركضون خلف نفطنا وثرواتنا، ولن نسمح لهم بذلك، سندافع عن بلدنا وعن الثورة، سنقطع أيديهم!»

ويأتي دور ماجد أمين ثانية: «لن يستطيع ناصر أن يحشر أنفه الطويل والقبيح في أمور دولتنا البطلة. خلق الجمهورية العربية وحوَّل سوريا الحبيبة إلى دولة تابعة له تحت اسم «الإقليم الشمالي». لن نسمح له أن يحوّل العراق إلى دولة تابعة له فيخلق «الإقليم الشمالي الشرقي» يود أن يمدَّ دكتاتوريته إلى العراق ويقضي على الحريات التي كسبناها بدمائنا كما فعل في مصر وسوريا؛ في الوقت الذي يحارب الوطنيين الشيوعيين فيهما!» ثم يبدأ بإهانة وذم ناصر لكونه ابن ساعي بريد، فيبدأ الجمهور بالغناء بسخرية أغنية معروفة، «البوسطجية اشتكوا من كثر مراسيلي» ويسخر أيضًا من فكرة الوحدة العربية ويحرّض السوريين على فسخ الوحدة مع مصر. كان ماجد أمين ينشر الغسيل الوسخ على الحبال، ويتفوّه بالشتائم والسباب ضد أعداء الجمهورية.

كانت محاكمات «محكمة الشعب» تجري بشكل مسرحي وتحوي على الفنون المسرحية كافة من دراما وكوميديا وموسيقى وغناء، إضافة إلى كلمات سوقية وقمامة أدبية، كلّ ذلك في الوقت نفسه.

كان الشعب العراقي بعمومه يتسمّر أمام شاشات التلفزيون كلّ مساء لمشاهدة هذا المسلسل اليومي.

- هل رأيت ماذا فعل المهداوي ليلة أمس؟
- لم أصدّق عيناي وأذناي؛ لقد تحوّل هذا الزعيم إلى جرذ أمامه، ولم يتمكّن حتى من أن ينطق بكلمة، فقد تجمّد في مكانه.
- نعم، ولكن أرأيت سعيد قزاز؟ رجل حقيقي؛ لم يدع المهداوي يهينه!
- إنه كردي! رجل شجاع وفخور بنفسه، لم يقبل أي بذاءة من أحد، ناهيك عن المهداوي. أرجع إليهم كلّ الإهانات ودافع عن سجله كوزيرٍ للداخلية. هل سمعت ما قاله للمهداوي؟ رجل شجاع!

عندما حكم المهداوي على سعيد قزاز بالموت شنقًا، أجابه: «عندما أصعد إلى المشنقة وأنظر إلى الأسفل، سوف أرى تحت قدمي أناسًا لا يستحقون الحياة».

عرَّفت خطب قاسم وتصريحات المهداوي هُوية العراق الجديد بجلاء وموقفه من الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة، وجلب هذا الأمر السرور إلى الغرب؛ فقد بقي العراق بعيدًا عن متناول عبد الناصر وحلمه بالسيطرة على نفط بابا كركر. كان النفط يتدفّق باستمرار وبقيت الأسعار نفسها من دون زيادة. ولم يتمنَّ الغرب أكثر من هذا.

جاءت هذه المستجدات على الساحة العراقية بتقوية نظرية المؤامرة التي تقول إن بريطانيا غيَّرت النظام الملكي بصورة وقائية، وإن قاسم، المعروف في السنوات السابقة للانقلاب، بأنه مؤيد للسياسة البريطانية، كان فعلًا رجل بريطانيا في الموضع المناسب.

وفسَّر هؤلاء أيضًا سياسات قاسم الداخلية حسب نظرية المؤامرة نفسها؛ أي مؤامرة بقيادة بريطانية! سواء أكان هؤلاء من العارفين ببواطن الأمور للإتيان بهذه الفرضيات والنظريات أم لا، فقد أيّدت الأوضاع السياسية على أرض الواقع نظرياتهم. لعب قاسم دورًا رئيسيًا في مسألة مهمّة جدًا، عندما فشلت الحكومات السابقة في التعامل معها. إعترف قاسم بحقوق الشعب في السيادة وسمح لهم بحريات لم تكن معروفة سابقًا، أي حرية الكلام والتعبير عن الرأي وحرية التجمّع، بشرط ألّا تتعارض هذه الحريات مع سياساته.

أعطت هذه السياسة الشيوعيين إحساسًا كاذبًا بالأمان فخرجت جموعهم من مخابئها وكشفت عن نفسها، فأصبح الحزب الشيوعي، قيادة وكوادر، معروفًا لعموم الشعب وللحكومة، وجاهزًا للقضاء عليه في الفرصة المناسبة. ولكنها لم تحن بعد! كان البريطانيون والأميركيون في غاية السرور بهذه المستجدات: أنجز قاسم ما لم تتمكّن الحكومات السابقة من القيام به!

إستثمر الشيوعيون حرياتهم الجديدة على أكمل وجه، إذ استخدموا قوّتهم في الوصول إلى علاقة تعايش مع قاسم. عند هذه النقطة تآلف الأكراد مع



الشيوعيين وكوّنوا القاعدة السياسية لقاسم. لهذا السبب انقسم البلد إلى عدة أقسام: قاسم والشيوعيين والأكراد من ناحية، والقوميون العرب والبعثيون والناصريون على الجهة المضادة. كانت الجهة الأكثر وحشية في التعامل والأكثر نفوذًا الشيوعيين الذين كانوا يبذلون جهودهم للمحافظة على مكتسباتهم الجديدة. وذلك بالسيطرة على الأحداث ليس فقط من خلال إضعاف فرص نجاح المعارضة، بل اضطهادها بِاسم الزعيم الأوحد. وهكذا، نجحوا في السيطرة على البلد؛ إلى درجة ظن الجميع أن قاسمًا كان شيوعيًا! وكان سائدًا بين الناس: «لو لم يكن شيوعيًا لما تغاضى عن تجاوزاتهم!»

كانت المليشيا الشيوعية المعروفة بـالمقاومة الشعبية تُرهب العراق من شماله إلى جنوبه، تُرعب الناس وتعتقلهم وتعذّبهم بطرق تعسفية، وتقتلهم. وبرزت في خضم الأحداث منظمة شيوعية أخرى تحت اسم أنصار السلام، وكانت الغاية من إنشائها تنظيم الجموع وتعبئتها لدعم قاسم، ولكن في الواقع كان هدفها تدمير المعارضة وتأمين سيطرة الحزب على أمور البلد. تحوّل لون البلد إلى الأحمر من دون شك!

إستثمر الأكراد وضعهم الجديد ليس للانتقام وحده، بل لتجديد الأمل بنيل حياة أفضل تحت نظام الحكم الجديد لقاسم. ولهذا كانت للأكراد المبررات كافة لمد يد العون لقاسم، والعمل مع أنصار السلام والمقاومة الشعبية لإلحاق الهزيمة بأعدائهم بكلّ السبل المتاحة. كانت مصالحهم تستوجب هذا النوع من الاستعداد للعمل حسب خططهم. دعموا قاسم آملين أنه سيزيل الحيف والغبن اللذين عانوا منهما تحت النظام الملكي وكذلك على أيدي الأتراك العثمانيين قبله. لم يبقَ للأكراد أي خيار غير الكفاح المسلّح في أي مكان ممكن العمل فيه.

أصابت انتفاضات الأكراد المسلّحة الحكومة العراقية بفقر دم اقتصادي، وعجز عسكري عن مجابهة إسرائيل. ألقى الوطنيون العرب اللائمة على الغرب الذي يمتلك مفاتيح القوة في الشرق الأوسط. وعلى الرغم من رغبة واستعداد الجيش العراقي لمجابهة إسرائيل، إلا أنه انشغل بهذه الحروب الجانبية التي أنهكت قواه.

لم يكن الغرب وحده متورطًا في هذه اللعبة، فقد تدخل السوفيات والإيرانيون والإسرائيليون والسوريون، وحتى الأتراك؛ ناوروا جميعهم ضد مصلحة الأكراد عامة والبارزانيين خاصة خلال القرن العشرين لتحقيق مصالحهم الخاصة فقط. على سبيل المثال، وفي أوقات مختلفة، تحالف أكراد العراق مع الحكومة العراقية لخلق تمرّد في إيران، وتلاعبت إيران بهم للضغط على العراق. وفي ١٩٧٥، ناقش هنري كسينجر اتفاقية سلام في الجزائر بين شاه إيران وصدّام حسين، فوجّها ضربة قاتلة للأكراد الذين وجدوا أنفسهم بين نارَين.

كان البارزانيون وطنيين وشجعان ومقاتلين أكفاء. على عكس حالهم اليوم، كانوا يفتقدون النضج السياسي وبعد النظر. وبسبب انعزالهم في منطقة محاطة بالجبال، تطورت لديهم خصائص ينفرد بها سكان المرتفعات: الاحترام والبساطة والفروسية والنبل والثقة والفخر. وبسبب هذا التركيب النفسي، دفعوا ثمنًا غاليًا. فقد تحدّوا الموت، ولكنهم خافوا من الإهانة. حملوا في أنفسهم روح نسيم الجبال الذي يهب من واد إلى واد حاملًا التوق إلى الحرية .

وكما ذكرنا سابقًا، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة، أعلن الأكراد عن تشكيل جمهورية مهاباد في إيران، وتبوّأ الملا مصطفى بارزاني منصب وزير الدفاع. إستمرت الجمهورية مدة سنة قبل زوالها سنة ١٩٤٦ ونجح بارزاني في الهروب إلى جباله في بارزان، شمال العراق.

عند رجوعه ازدادت العمليات العسكرية ضد الجيش العراقي والتي كانت له اليد الطولى فيها. في الوقت نفسه، احتوته إيران وتركيا والغرب سياسيًا وعسكريًا. في هذه الأثناء، لم تعد جبال بارزان القاسية والصلدة حصنًا منيعًا له ولشعبه؛ ولم يبقَ له خيار إلا إيجاد ملاذ آمن في منطقة غير معادية، فهاجر مع كوادره إلى الاتّحاد السوفياتي عبر تركيا وأرمينيا. في يريفان العاصمة، منحهم السوفيات اللجوء والأمان، ثم فرّقوهم في داخل الجمهوريات السوفياتية الأخرى. جرت هذه الأحداث بين ١٩٤٨-١٩٤٩.



كان لأرمينيا نصيبها من هؤلاء الهاربين، فاستقبلتهم على الرحب والسعة. دمجوا اللاجئين بالمجتمع الكردي المتميّز في أرمينيا الذين كانوا قد استقروا في البلد، وملكوا مسرحًا خاصًا بهم، وصحفًا تصدر باللغة الكردية وأكاديمية للدراسات الكردية. وعلينا ألا نتعجّب من كون الأكراد موالين للسوفيات، وهو موقف تُرجم بطريقة خاطئة باتّهام الأكراد عمومًا بالشيوعية.

جلبت أحداث ١٤ تموز ١٩٥٨ أملًا جديدًا للأكراد. فقد أكدت الثورة على «الأخوة الكردية والعربية» تحت راية واحدة بقيادة بطل الثورة قاسم الذي دعمه الأكراد بإخلاص. وبكلّ عزم، وبالالتحام مع الشيوعيين، بذلوا جهدهم لصيانة المكاسب التي جاءت بها الثورة، وكان القضاء على المعارضة جزءًا من سعيهم إلى امتلاك مكتسبات جديدة؛ وهذا ما حصل على أرض الواقع.

وبعدما أُعفي عارف في الحادي عشر من أيلول ١٩٥٨، من منصب نائب القائد العام للقوّات المسلحة، واعتقل بقيت السلطات في أيدي قاسم وحده، ولكنه خسر دعم جزء كبير من الشعب ممّن كانوا يسمّون، مجتمعين وفرادى، بالبعثيين أو العفلقيين. بقي له الشيوعيون والأكراد الذين مثّلوا قاعدة لسلطته، ولم يكن له أن يحيا من دونهما. لائمت تطورات الأحداث هذه الشيوعيين أكثر من غيرهم، فجنّدوا قواهم بمتانة أكثر. قامت كوادرهم بتنظيم الفلاحين والعمّال والطلّاب والنساء وغيرهم تحت غطاء اتحادات العمّال وغيرها من المنظمات السائرة في فلكهم. جاءت تنظيمات «أنصار السلام» و«المقاومة الشعبية» نتيجة لكلّ اجتهاداتهم التنظيمية.

ولأجل الحفاظ على الثورة من الشرّ المحيط بها، نصبوا مراكز تفتيش للسيطرة واعتقال المعارضين وبقايا النظام القديم، أي خونة الثورة، وعلى رأسهم العفلقيين؛ وبمعنى آخر، العناصر غير الشيوعية كافة. وطبّقوا مقولة «أنت إمّا معنا أو ضدنا».

أسعدت الهيمنة الشيوعية الجديدة على الوضع العراقي الاتّحاد السوفياتي لعدة أسباب، أقلها تبديل الخبراء الغربيين بآخرين منهم، مما أتاح الفرصة للسوفيات لتشكيل سياسات العراق وفق مصالحهم.

أغضب الوضع الجديد عبد الناصر وزاد من قلق الغرب؛ وبشكل غريب، وجد هؤلاء أنهم على الجانب نفسه من الصراع. وعلى الرغم من اختلافاتهما، وجدا أنفسهما متحدّين لمجابهة الشيوعيين؛ بريطانيا، لخسارتها النفوذ وإمكانية ضياع سيطرتها على نفط بابا كركر، وعبد الناصر، لخسارته فرصة السيطرة على بابا كركر.

كانت جماعة أنصار السلام تتكون من داعمي قاسم والمغامرين والمشاغبين كافة الذين اجتمعوا تحت راية الحزب الشيوعي. إستغل الحزب، الذي كان نفوذه ينمو في كلّ يوم، هؤلاء لمحاربة أعدائه ممن اعتبرهم العناصر الرجعية. ولأن الموصل كانت معقلًا للقومية العربية، قرر الشيوعيون عرض عضلاتهم وتقزيم العفلقيين فيها. نظّموا ما كان يدعى بـ«مهرجان السلام» في تلك المدينة. في الواقع، كان المهرجان غطاء لهدفهم الحقيقي للسيطرة على المدينة وتدمير البُنية التحتية للقومية العربية بضربة واحدة.

في نهاية شباط ١٩٥٩، جاءت التحضيرات لإقامة الاحتفالات ومهرجان السلام في ٨ آذار المقبل. إحتج أهل الموصل وتظاهروا مسبقًا معارضين برنامج الشيوعيين، ولكن من دون جدوى. وفي اليوم المحدد، خرجت القطارات من بغداد تحمل مجانًا مدنيين مسلّحين وبموافقة قاسم، متّجهة إلى الموصل. ملأت التظاهرات والتظاهرات المضادة الشوارع على الفور. بعد المشادات الكلامية والصدامات، بدأ القتال المسلّح في الشوارع. وكما خُطِّط له سابقًا، تحوّلت الموصل إلى ساحة قتال بين الشيوعيين (من ضمنهم الأكراد الذين نزلوا من قراهم إلى المدينة) من جهة، وبين القوميين والبعثيين من جهة أخرى.

كان ضروريًا على الجيش أن يتدخّل. وبالفعل دخلت الوحدات العسكرية في القتال إلى جانب القوميين والبعثيين. كان العقيد الركن عبد الوهّاب الشوّاف، قائد اللواء الخامس، وحدويًا، وعضوًا في حركة «الضباط الأحرار» التي لعبت دورًا رئيسيًا في الثورة. ذهب إلى بغداد وطلب من قاسم ألّا يسمح بإقامة تلك التظاهرات في الموصل. رجاه، ثم هدَّده وعمل ما في وسعه لمنع سفر «أنصار السلام» إلى الموصل. رفض قاسم طلبه قائلًا: «للشعب الحرية الكاملة للتعبير عن آرائه، هذا نظام جمهوري».



كان الشوّاف عصبي المزاج ووعد قائلًا: «يجب القيام بانقلاب عسكري لتصحيح مسار الثورة الأصلي إذا لم يمنع قاسم «أنصار السلام» من الذهاب إلى الموصل». ولم يمنعهم قاسم!

بعد ساعاتٍ من وصول جماعة «أنصار السلام»، حافظ الشوّاف على قسمه وثار ضد قاسم. أقلع عددٌ من الطيارين من أتباعه من الموصل وقصفوا هوائيات الإذاعة في بغداد، وأبنية وزارة الدفاع. أخطأ الطيارون جميع أهدافهم؛ ما عدا بعض المواقع متسببة بأضرار بسيطة.

ظهر أن الشوّاف كان قد اتفق مع جماعة عبد الناصر في سوريا لتنفيذ مشاريعه، ولكن في يوم ثورته المتهورة لم يجد أيًا من جماعة ناصر ولم تصله المساعدات الموعودة، ما عدا جهاز إرسال متنّقل، كان يبث على موجة خاطئة باستقبال ضعيف جدًا. ثم تبيَّن لاحقًا أن حركة الشوّاف كانت نتيجة لانفعالٍ آني من دون تخطيط، ولهذا السبب لم يسانده السوريون. على الأقل، كان هذا تبرير عبد الناصر وسوريا للابتعاد عنه.

في أية حال، كان واضحًا من اللحظة الأولى أن هذه الثورة لم ولن يكتب لها النجاح بسبب التوقيت السيء، والتخطيط الضعيف، والدعم غير المناسب.

المتعاونون مع الشوّاف، أمثال رفعت الحاج سري (مؤسّس حركة الضباط الأحرار ومدير الاستخبارات العسكرية في بغداد) وناظم الطبقجلي، قائد الفرقة الثانية في كركوك، نصحاه بألّا يقوم بثورته لأنهم «...لم يكونوا جاهزين بعد»، ولكن الشوّاف الذي كان ملتزمًا بكلمته لم يأخذ بنصيحتهما.

وفي غاراتٍ معاكسة، قصف طيارو قاسم موقع الثوّار وقتلوا الشوّاف. إنتهت ثورته بعد ساعات من قيامها، ودخل البلد في دوامة جديدة من العنف والفوضى والاضطراب.

بعد انتهاء الأحداث، بدأت مشاكل جديدة للمشتركين في الثورة، وحتى البعيدين عنها الذين ظلوا على قيد الحياة. وقامت الجماعات المخلصة لقاسم، وخاصة من الشيوعيين والأكراد، بإلقاء القبض على عددٍ كبير من الضباط الذين

نجوا من العمليات العسكرية وأرسلوهم إلى بغداد لمواجهة محكمة الشعب برئاسة العقيد المهداوي في بغداد.

أما في الموصل، فقامت قوّات المليشيا الشيوعية من جماعة المقاومة الشعبية بعمليات تمشيط واسعة؛ هاجموا المحلات والبيوت وغيرها من المرافق، قتلوا المدنيين من دون استثناء، والعفلقيين بشكل انتقائي، وشنقوهم على أعمدة الكهرباء، ومن ضمنهم نساء من العوائل السنية المعروفة في الموصل، مثل آل العمري. شارك الأكراد في هذه الفظاعات أيضًا. فقد نزلوا من الجبال المحيطة بالموصل، مثل «عقرة،» وساعدوا على إنهاء المهمّة. وفي خلال يومين، قُتل ٥٠٠٠ من المواطنين في الموصل، وواجه المئات «المحاكم الشعبية» لثوانٍ معدودة وأعدموا. وعندما انتشرت أخبار المجازر، عمّت غمامة من الخوف والرهبة على العراق. لم يرَ البلد قتلًا جماعيًا مثلما حدث في الموصل منذ أيام هولاكو.

نما الانقسام العنصري والسياسي لتنتج عنهما الكراهية المطلقة. أصبح الانتقام القوة المسيطرة والدافعة في العلاقات بين الناس. وضع الجميع الملامة على قاسم الذي بدأ دعم الناس له يتآكل تدريجيًا، حتى في صفوف الشيوعيين، الذين شجعتهم أعمالهم على مطالبة قاسم مشاركتهم في السلطة.

خلال الأشهر الأربعة التالية لحركة الشوّاف، استمرت عمليات التمشيط ليلًا نهارًا. سيّطر الشيوعيون «المفوّضون» على العمليات اليومية للحكومة. بدأت السلطة تنسحب من أيدي قاسم؛ فأصبح منعزلًا يومًا بعد يوم. كان يجري اعتقال كثير من الناس في كلّ يوم بمجرد الشك في أنهم سيكونون خطرين على النظام.

أما الأكراد الذين كانوا يلبسون قبعتين، إحداهما من اللباس التقليدي الكردي والأخرى القبعة الشيوعية، فخططوا في ١٤ تموز ١٩٥٩ للقيام بمذبحة منظّمة ضد التركمان في كركوك للاستحواذ على المدينة لأن «كركوك هي كردستان». نجحوا في قتل مجموعة من التركمان ودفنوا العشرات منهم أحياء في حفرة. كان من ضمن الضحايا إثنان من أصدقائي، محمد آوجي وجاهد فخري. وفي الوقت



نفسه، قتلوا أخوين معروفين في البلد، الدكتور إحسان خير الله والعقيد عطا خير الله، وهما من الطورانيين.

تدخّلت حكومة قاسم بعد مقتلهما وقُبِض على متّهمَين بالجريمة، وحُكم عليهما بالإعدام. لم ينفِّذ قاسم حكم الإعدام، ربما بسبب الضغوط التي تعرَّض لها من الحزب الشيوعي. من الممكن جدًا أن قاسمًا لم يكن على علم بهذا الفعل الشنيع؛ في أية حال، أصبح متأكدًا من حقيقة فقدانه السلطة، ومن قيام الشيوعيين بتدمير البلد على حسابه.

أصبح معروفًا لدى الفرد العادي أن هذه المذبحة، وتأجيل تنفيذ الإعدام، قد أكدا الشكوك من كون قاسم شيوعيًا، وإلّا لماذا لم ينفّذ أحكام الإعدام بحق القتلة؟ إستمر المجتمع التركماني يعيش بحال رعب وغضب، مطالبًا بالعدل، الذي لم يأتِ أبدًا! ولا حاجة للقول إن العداء بين التركمان والأكراد تضاعف ألف مرّة نتيجة المذبحة.

# الفصل الحادي والعشرون

# إنتصاراتٌ وهزائم

كشفت ثورة الشوّاف الوضع السياسي في البلد وفي المنطقة. لم يكن هناك أي التباس حول موقف كلّ فرد ومصير البلد واتجاه منحى الأحداث! والأمر الوحيد الذي كان جليًا جدًا هو أن مشروع الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة برئاسة عبد الناصر قد انتهى إلى غير رجعة. كان الوحدويون والبعثيون والقوميون العرب المساندون لعارف الخاسرين الوحيدين. والفائزون كانوا الشيوعيين والأكراد والمسيحيون الذين ساندوا قاسم. وتجدر الملاحظة هنا أن المسيحيين الذين عارضوا الوحدة كانوا خائفين من سيطرة الإسلاميين المتعصّبين إذا ما تحققت تلك الوحدة. وفي يومنا هذا تسيطر الفكرة نفسها في الحسابات الجيوسياسية للولايات المتحدة وأوروبا.

كان قاسمٌ ينعم بدعم خفي وقوي من بريطانيا والولايات المتحدة بسبب المخاوف نفسها، وتعهده ببقاء السياسة النفطية من دون تغيير: تدفّق حرّ ومستمرّ مع أسعار رخيصة للنفط. حافظ قاسم على وعوده التي قطعها للسفيرين البريطاني والأميركي.

ففي الساعة الحادية عشر من يوم الثورة وصل قاسم إلى مبنى وزارة الدفاع وتسلَّم سلطاته. وفي ظهر اليوم نفسه تلقى طلبًا من السفير البريطاني، مايكل رايت، لمقابلة «قائد الثورة.» وافق قاسم على طلبه. سأل السفير الذين حملوا موافقة قاسم على اللقاء: «بماذا أناديه؟ هل أقول له يا صاحب الجلالة؟» قيل له:» الزعيم» يكون جيد جدًا.

في الثالثة من بعد الظهر التقى الإثنان لمدة عشر دقائق، ثم ظهرا معًا على الدرجات المؤدية إلى الوزارة وتعلو وجهيهما ابتسامة عريضة. يكتب العقيد خليل إبراهيم حسين الذي كان حاضرًا في ذلك اللقاء لتدوين الملاحظات:

كان السؤال الأول الذي وجّهه السفير حول الوحدة مع عبد الناصر، إذ قال: «تعارض بريطانيا وحدة العراق مع الجمهورية العربية المتحدة، وإذا وصلت أيدي ناصر إلى آبار النفط فسيكون لبريطانيا موقفًا مختلفًا، فالقوات البريطانية تتواجد في الأردن، والأميركية في لبنان. يجب أن يستمر تدفق النفط.» ثم عاد إلى الفندق الذي كان نزل فيه موقتًا بسبب حريق شبَّ في بناية الوزارة بصورة غير متعمّدة نتيجة حرق وثائق مهمّة.

أعلن قاسم للسفير الواقف بقربه على الدرجات المؤدية إلى وزارة الدفاع: «سيُنتج النفط ويصدّر كالسابق، وتبقى الأسعار على حالها». منظّمة الأوبك لم تكن موجودة بعد. وفاز الغرب في معركةٍ أخرى حول نفط بابا كركر!

إعترفت بريطانيا حالًا بالنظام العراقي.

وفي اليوم التالي من الثورة قابل السفير الأميركي قاسمًا على الدرجات نفسها. عند انتهاء المقابلة كانت ابتسامة كبيرة أيضًا تعلو وجهه عند مغادرته. وفي اليوم نفسه صرّح متحدثٌ حكومي رسمي: «يؤكد العراق التزامه بكلّ المعاهدات الدولية والقرارات الصادرة عن الأمم المتحدة. وينطبق ذلك على عضوية العراق في حلف بغداد».

جاء هذا التصريح كصفعةٍ على وجه ناصر والوحدويين والاتّحاد السوفياتي الذين عارضوا بشدة الحلف العسكري الذي ضم العراق وتركيا وإيران وباكستان، إضافة إلى بريطانيا وأميركا بصفة مراقب. وكان الهدف من إنشائه احتواء الاتحاد السوفياتي من الجنوب.

إعترفت الولايات المتحدة بالنظام العراقي الجديد بعد التصريح الحكومي مباشرة، ثم تلتها دول أخرى. وأثبتت القرارات التي جاءت لمصلحة الغرب



لتؤكد للعراقيين أن قاسم رجل بريطانيا في البلد. أعطى الاعتراف البريطاني والأميركي دفعة قوية له، وأصبح قائد مجموعته. ومالت كفة صراع القوّة بينه وبين نائبه عارف لمصلحته.

عملت بريطانيا حسب مبدأ «فرِّق تسد» التقليدي وساعدت على توسيع الفجوة بين التيارين في البلد. فعلى سبيل المثال، اعترضت بريطانيا في عمليةٍ جريئة برقية مُرسلة إلى عبد الناصر عن طريق سفيره في العراق وفكّت رموزها، بعد أن اجتمع عارف بالسفير المصري في ١٧ تموز، أي ثلاثة أيام بعد الثورة. وينقل السفير في البرقية الحماسة البالغة الذي أظهرها عارف للانضمام الفوري إلى الجمهورية العربية المتحدة، وتسليم الثورة إلى ناصر من دون قيد أو شرط.

أضافت السفارة البريطانية في برقية السفير مقطعًا كاذبًا منسوبًا إلى عارف يقول: «ربما قد يضطر عارف في أي وقت إلى التخلّص من قاسم.» سلّمت السفارة البريطانية البرقية إلى قاسم، وحسب عدد من المصادر، كان الأخير قد بدأ يعاني من أعراض جنون الارتياب (البارانويا)، فازدادت آثاره عليه، وحصل أخيرًا على وثيقة تدين أعمال عارف. ويظهر أنه في تلك اللحظة أخذ قراره النهائي بالتخلّص من عارف. وبعد الحادثة، أقسم السفير المصري أنه لم يكتب تلك العبارة في البرقية، وأن عارفًا لم يقلها له أبدًا!

## الفصل الثاني والعشرون

# بغداد

على الرغم من كلّ الاضطرابات في العراق، عمل البغداديون ما بوسعهم لاستعادة الهيكلية القديمة لمدينتهم ونكهتها المميّزة. إعتبروا الأحداث التي عصفت بالبلاد انقلابًا عسكريًا وليست ثورة شعبية. لم تتغيّر بغداد وبقيت كما هي عدا زوال النظام الملكي وتمثال الملك فيصل الأول منها.

كانت بغداد، على غرار مدينة نيويورك، تتكوّن من موزاييك لـ«قرى» مختلفة منتشرة على ضفتَي دجلة، الذي يحدد الجناح الشرقي لبلاد ما بين النهرين القديمة. تكوّنت الحضارات واندثرت بعد أن تركت آثارها وبصماتها على الجانبَين، ولكن نال الجانب الشرقي، الرصافة، حصة أكبر من التطور من الجانب الآخر. لعل السبب في هذا أن الدولة العبّاسية استقرت على هذا الجانب وبنت عماراتها من جوامع ومراكز علم عليه، وليس في الكرخ. وما آثار الجامعة المستنصرية والمخلّفات العمرانية الأخرى إلّا شواهد على مجد تلك الجامعة قبل غزو هولاكو والسلاجقة الذين خرّبوها في القرن الثالث عشر ميلادي.

تذكر كتب التاريخ أن: «هؤلاء الهمج دمّروا الجامعة ومكتبتها الضخمة ورموا مئات الآلاف من المخطوطات في نهر دجلة الذي تغيَّر لون مائه إلى سواد الحبر عند جريانه ولمدة ثلاثة أيام». أصابت الجروح العميقة بغداد خاصة، والعراق عمومًا، لم تشفَ منها إلى اليوم؛ ولم يعد العراق كما كان أبدًا!

تشبه القرى التي تتكوّن منها بغداد قطعًا صغيرة تركّب مع بعضها لإكمال الصورة النهائية: الأعظمية والكاظمية والوزيرية وكوك نزر وعقد النصارى وغيرها، تحمل كلّ واحدة منها نكهة معينة وتقاليد حضارية خاصة بها، من موزاييك بغداد، المرصوص بشكل معقّد وبصورة قطعة فنية فريدة من نوعها كقطع القاشان الأزرق التي تغطي قبب جوامعها!

يعود نمط الحياة في الوسط الاجتماعي في هذه القرى إلى قرون مضت، ويستمرّ إلى اليوم، له حساسياته الخاصة ومعتقداته الفريدة التي تشدّد على الروابط العائلية والقرابة والتزام الشرف والجود والسلوك المسؤول والمودة والحميمية.

كان كبار السنّ وحكماء القرية وشبابها يرون أن أحياءهم التي يعيشون فيها يجب أن تبقى ساكنة وهادئة. وأن عليهم حمايتها من الدخلاء والمتطفّلين الذين يأتون إليها لأغراضٍ شريرة، كملاحقة بنت من بنات الحي، التي يعتبر شرفها شرف الساكنين في الحي جميعًا. كان لزامًا عليهم أن يساعدوا الفقير والمسكين والمريض من الجيران، وأن يتشارك الجميع في أفراح وأتراح أهل الحي، كما لو أنهم يمشون يدًا بيد في مسيرة الحياة. كانوا يحضرون حفلات الزواج من دون دعوة، حيث يذهب الجميع إليها ويأكلون ويفرحون. ويحزن الجميع في المآتم ويذكرون فضائل المتوفى، حتى لو كانت قليلة، ويبكونه، إذ لا تسمح التقاليد بذكر الإساءات تجاه المتوفى الذي ذهب للقاء وجه ربّه، أكان مسيحيًا أو مسلمًا، سُنّيًا أو شيعيًا، مكتفين بالقول: «ليرحمه الله ويغفر له».

عندما قُتِل أخي على أيدي الميليشيا البعثية في حادثةٍ غير مقصودة وهو في عمر الثالثة والعشرين، حضر أهل الحي تقريبًا بأجمعهم، وجلّهم من المسلمين، للمواساة والتعزية، ورتّلوا آيات من القرآن فيها الحكمة والتعزية وشاركونا آلامنا. شارك الكثير منهم في الجنازة العسكرية التي أُقيمت له وهم يرددون «البقاء لله، قضى أمر الله.» لم يبخلوا علينا بمشاعر الدعم والأسى، لأننا مسيحيون.

إلى جانب العادات والتقاليد، كانت بغداد مدينة عصرية أثّرت عليها الثقافة الغربية، وأغلبها بريطانية، وآلت إلى التغيير قبل الثورة. يعتبر شارع الرشيد أقدم



شوارع بغداد، ويمتد موازيًا لنهر دجلة ويعطي قرى وضواحي بغداد نافذة لتعرض أنماط عيشها المتنوعة ولكن الزاهية أمام العالم الخارجي. لا أعرف طول الشارع بدقة، فهو يمتد على الأغلب من خمسة إلى سبعة أميال، ولكن ما يهم هو أنها مسافة كافية لتختزن قرونًا من التاريخ وأعباء الحياة العصرية.

تقع الكلية الطبية الملكية على الطرف الغربي للشارع وتعتبر دُرّة تاج النظام التعليمي في العراق. كانت الحافلة تقف في ساحة من أكثر الساحات ازدحامًا في بغداد، ثم تنطلق إلى الكلّيات الأخرى مثل كلّية القانون والتجارة ودار المعلّمين.

معهد الفنون الجميلة كان المدرسة الأكثر حداثة وإثارة حيث كانت تُدرَّس الفنون المختلفة، كالرسم والنحت والموسيقى والمسرح. أصبحت أعمال الفنانين مثل جواد سليم، الذي تخرّج منها ثم درّس فيها، شهيرة وذات قيمة حتى منعت الحكومة إخراجها خارج البلد، باعتبارها كنوزًا وطنية لا يمكن التفريط بها. ويعتبر النصب الضخم لجواد في «الباب الشرقي» معلمًا من معالم المدينة إلى يومنا هذا.

كان المعهد يُعطي فصولًا دراسية حتى في أوقات المساء في الموسيقى العربية الكلاسيكية والموسيقى الأوروبية الكلاسيكية. درّس الموسيقيون تلاميذهم آلة العود والقانون والطبلة والكمان وغيرها من الآلات، وتعلّم المغنّون فن المقام العراقي على يد أساتذة هذا الفن مثل القبانجي والغزالي وغيرهما.

كانت للموسيقى الكلاسيكية الأوروبية مكانة عالية عند العراقيين، وتخرّج جيلٌ كامل من الموسيقيين العراقيين على البروفيسور Sando Albo والبروفيسور Julian Herts، مدرّسي البيانو والكمان في المعهد. وكان تعليم وتدريس الغيتار وآلات أخرى من ضمن المناهج الدراسية في المعهد. وقد شهدت قاعة الملك فيصل الثاني للموسيقى حفلات موسيقية لمؤلّفين عالميين مثل باخ وبرامز وبيتهوفن، إضافة إلى المسرحيات والعروض المختلفة.

كان غارو (كرابيت) كشمشيان أحد الطلّاب الذين ارتادوا الدراسات المسائية في المعهد، وهو مهندس مدني وصديق عزيز، درس آلة الكمان بإشراف البروفيسور

الإيطالي. لم يتنبأ غارو ولا ساندو آلبو بما يخبّئه المستقبل لهما. كان هدف غارو الأساسي دراسة آلة الكمان كهواية لا غير. تغيّرت الأمور كلّما تقدّم في دراسته: إستجاب غارو لإصرار وتوجيه الدكتور بابكين بابازيان، الذي كان شخصًا ذا عقلية نهضوية في مجال النشاط الفني، وكوّن فرقة غنائية أرمنية سماها كوميداس. فقد كان من أعظم المؤلّفين الموسيقيين الأرمن في مجال اختصاصه، وساعده ساندو آلبو في هذا الشأن.

ففي اليوم الذي كانت فيه فرقة كوميداس الغنائية تقيم أعمالها على مسرح قاعة جمعية الشبيبة الأرمنية في بغداد، كانت القاعة تمتلئ بأبناء المجتمع الأرمني والدبلوماسيين الأجانب ونخبة المجتمع العربي في بغداد للتمتّع بالغناء والموسيقى الأرمنيين. مضت خمسون سنة على عمر الفرقة التي لا زالت تقيم أعمالها وتقودها عصا الموسيقار غارو كشمشيان لإغناء الحياة الثقافية للمجتمع الأرمني في بغداد والعراق.

تخرّجت من المعهد أيضًا الآنسة غلاديس بوغوصيان، ذات الموهبة المتألّقة في العزف على البيانو والتي قادها عملها الفني الدؤوب إلى تكريم الدولة لها بوسامٍ رفيع عام ١٩٨١.

تخرّج من المعهد نفسه السيد لوريس جوبانيان، الذي كان بمرتبة Andre Sagovia عازف الغيتار العالمي، واختص في العزف على هذه الآلة، ويعمل الآن مدرّسًا بدرجة بروفيسور في ولاية أوهايو الأميركية. وتخرّج منها أيضًا السيد فارتان مانوكيان ذو الموهبة الفذة في العزف على الكمان، وهو أخ رئيس الأساقفة الأب توركوم مانوكيان، بطريك الأرمن في القدس.

وكان من ذلك الجيل عازف الكمان المشهور هايك باليان الذي هاجر إلى الولايات المتحدة وأصبح عازفًا في الأوركسترا السيمفونية لمدينة لوس أنجليس إلى أن توفاه الله قبل عدة سنوات. وفي الموسيقى الفولكلورية برز عازف الكلارينيت آرتين الذي كان بمرتبة Benny Goodman، وكان عشاق الموسيقى ينتظرون عزفه كلّ أسبوع من إذاعة بغداد.



قبل الهجرة اليهودية، كانت فرقة «الجالغي البغدادي» تتألّف من اليهود الذين يعزفون مباشرة وبنقل حي من إذاعة بغداد، وأطربوا أجيالًا من العراقيين بذلك اللون الموسيقي الفريد، وافتقد العراقيون عزفهم عندما انتقل هؤلاء إلى إسرائيل، ولكنهم استمروا بالعزف عبر إذاعة تل أبيب.

ظهرت مجموعة أخرى من الفنانين العرب الذين أسروا قلوب محبي الموسيقى والغناء العراقيين ومنهم قارئ المقام الفذ محمد القبانجي وناظم الغزالي وصديقة الملاية وعفيفة إسكندر وسليمة باشا مراد ومنير بشير والكثيرون من محبّي هذا الفن. هكذا كانت الحياة في بغداد، فاتنة وبهيجة ومثيرة وهادئة مغلّفة بإطار ملون.

يصل شارع الرشيد منطقة باب المعظّم بالباب الشرقي حيث كانت حافلات نقل الركاب العامة وسيارات الأجرة تحمل الناس، صعودًا ونزولًا، بين نهايتَي الشارع. كانت الشوارع تلتقي عند هذه الساحة التي لا تنام في الليل. كان تقاطعًا حضاريًا من كلّ لون وشكل، حيث ترى القديم والحديث والعصري والبدوي والبنات بالملابس العصرية؛ ثقافات متداخلة مع بعض. مثلها مثل بغداد، كانت الساحة تكشف عن موزاييك ملوّن لثقافات مختلفة.

من أجمل مشاهد الساحة كانت سينما الملك غازي المزيّنة بالزخارف الكلاسيكية، إذ كانت أشبه بدار أوبرا بمقاعدها المخملية والستارة المزدوجة من المخمل التي تُرفع بحبال مذهّبة وثخينة لتكشف عن الشاشة قبل عزف النشيد الوطني. يقف الجمهور في أثنائه تحية لصورة جلالة الملك، أو يتظاهر البعض بذلك، ثم يجلس كلّ على كرسيه لمشاهدة عرض الفيلم السينمائي. أتذكّر أني شاهدت فيلم Limelite لشارلي شابلين في تلك الدار وأعجبت به. ولا زلت أصفّر بتلك النغمة المشهورة في الفيلم، كما فعلت عند نزولي من درجات السلالم الملكية بعد مشاهدتي له.

غير بعيد عن سينما الملك غازي، كانت تقع دارا سينما ريكس وروكسي حيث شاهدت فيها فيلم Spellbound.

كانت تقع سينما الحمراء على بعد عدة شوارع وكانت تعرض أفلام دوريس داي، جون آليسون، جين راسل، جينجر روجرز، فريد أستير، أستير ويليامز وغيرهم من الممثّلين والممثّلات المتعاقدين في هوليوود.

كان الغزو الثقافي الأميركي قد بدأ، إذ امتلأت المكتبات ومحلات بيع المجلات حول الساحة بأنواع الإصدارات الدورية والمجلات الخاصة للنساء والرجال. إضافة إلى مجلات التايم ونيوزويك ولووك ولايف وكوليير وريدرز دايجست وآركوسي التي كانت الرفوف تزدحم بها، كانت هناك المجلات المختصة بالأزياء مثل فوك وبوردا الألمانية وتلك المختصة بملابس العرائس. كان استيراد المجلات الإباحية ممنوعًا ولكنني متأكد من وجود الكثير منها مهرّبة من الجوار.

إسطوانات المونو والستيريو والهاي-فاي كانت مرغوبة عند الشباب، وكان ألفيس بريسلي يتربّع على قائمة الأفضلية عند «الأميركانو»: وهم تلك الطائفة من الشباب الذين كانوا يلبسون سراويل الجينز الضيقة والقصيرة بحيث تكشف عن الجوارب البيضاء والأحذية الخفيفة التي ينتعلونها، وقد غطوا شعر رؤوسهم بطبقة ثخينة من بريل كريم ليظهر المنظر الدهني للشعر، تشبّهًا بألفيس بريسلي. وكانوا يحملون مشطًا في الجيب الخلفي وعلبة من سجائر تشيسترفيلد أو كاميل في داخل جيب القميص. كانوا يعتبرون أن التشبُّه بالأميركيين من علامات التطوّر والثقافة والعصرنة، وفي الوقت نفسه رفضًا لأسلوب الحياة الكلاسيكي على النمطَين العربي والإنكليزي.

كنت أزدري وأستخف بمنظرهم وعقليتهم، لأن أسلوبهم كان مختلفًا عن الثقافة الأنكليزية التي انتهجتها، وأعتبرهم «طائفة» لفكر معين، ولم يكونوا كذلك. أنا الذي كنت أرفض الجديد؛ ولكن الشعور كان متبادلًا، وهم أيضًا ميّزونا عن باقي الناس.

على الرغم من وجود حرية في انتقال الأخبار في البلد، ولكننا كنا نشعر أحيانًا بأن الحرية ليست كاملة؛ بين الحين والآخر كانت تنقص صفحة من مجلة تايم أو



نيوزويك مثل مقال ضد العرب أو لمصلحة إسرائيل، كنّا نعلم حينها أن الرقيب كان حاضرًا.

صورةٌ أخرى «للغزو» الأميركي طغت على الثقافة العربية في بغداد: وهي المطاعم العصرية. فتحت Cafeterias ala Horn and Hardart من نيويورك أبوابها للعمل. لم تكن مطاعم الوجبات السريعة مثل مكدونالدز وبرغر كينغ قد وصلت إلينا بعد، ولكن الهمبرغر الأميركي كان موجودًا. في الوقت نفسه، فتحت مطاعم على طراز كافيتيريا لرجال الأعمال والشركات باسم A la Americaine وقريبًا منها Mexicana، وهي مطاعم راقية وتقليدية. كان الأغنياء يأخذون رفيقاتهم إليها للتباهي.

كانت أكشاك المأكولات الشعبية المواجهة للأرصفة تجاور هذه المطاعم الراقية وتقدّم للمارة أصنافًا متنوّعة مثل الكباب والكبد المشوي ولسان العجل المسلوق ولحم البقر وشطائر لحم الدجاج، والبيض المسلوق مع البندورة والبصل والبقدونس والعمبة في داخل الصمون البغدادي المشهور. كنّا نصاب بحرقةِ المعدة من هذه الوجبات، ولكن آلكا-سيلزر كان لها بالمرصاد. كانت الأدوية الحديثة متوفرة في الأسواق، وتعمل الشركات الأميركية مثل بفايزر وأيلي ليلي وغيرها على توفيرها في الصيدليات.

لم يكن هناك وجود لملاهٍ ليلية أو كباريهات في منطقة الساحة؛ ولكنها كانت متراصة جنبًا إلى جنب مع بارات الخمور والكازينوهات وأعشاش الحُب السرّية بإدارة القوادات على شارع أبو نوّاس القريب، وهو الكورنيش على نهر دجلة. كانت صفوفٌ من القصور والوحدات السكنية الغالية تطل على النهر وعلى امتداد الشارع المظلل بأشجار النخيل.

كانت محلات بيع الأسماك وشيّ الشبوط المتميّز من دجلة على النار تنتشر على حافة النهر. هذا النوع من السمك يفضّله البغداديون والأجانب على السواء، ولن تكتمل موائد الحفلات المقامة من قبل الهيئات الدبلوماسية إذا لم يزينها سمك الشبوط المسقوف.

قبل الذهاب إلى الحانة لاحتساء الكحول، كان الفرد يختار سمك الشبوط الحي ليشويه على أوتاد مواجهًا النار، ثم يجلس مع أصحابه مواجهًا نهر دجلة ويمتّع نظره بخيال القوارب النهرية التي تلمع على سطح الماء من انعكاس أضواء الكرخ. تهبّ نسمةٌ خفيفة، وهو يستمع إلى أم كلثوم، لتضفي برودة إلى الجو حول نيران المواقد الخشبية في مساء رطب.

بعد اكتمال الشيّ يؤخذ السمك إلى البار الذي يجلس فيه الزبون ليحتسي العرق وليأكل بأطراف أصابعه، وهو يستمع إلى أغنيةٍ أو لحنٍ، وفصل من الرقص الشرقي إلى ساعات الصباح الأولى. تعوَّد الناس على المرح! وكان بعضهم يُكثر منه فيضطر أصحابه لحمله إلى فراشه.

كما في شارع أبي نواس، كانت كلّ ليلة في بغداد، ليلة أم كلثوم، ولكن ليلة خميس واحدة في الشهر كانت خاصة جدًا، إذ كانت تغني أم كلثوم أغنية جديدة تُنقل بشكلٍ مباشر من إذاعة القاهرة إلى العالم العربي. كلّ أجهزة الراديو كانت تُضبط على موجةِ القاهرة، في المقاهي والبيوت، لسماع السيدة تغني بثًا حيًا، إذ يعيش المستمعون مع كلّ بيت من القصيدة الشعرية ما خبروه شخصيًا في الحب وما ينتج عنه من آلام القلب المحب، في الخيبات والآمال المعقودة في الحب.

كانت بغداد الشعر تعيش في رحاب «ألف ليلة وليلة،» وأم كلثوم هي المحاورة والمشتركة في الحديث؛ والملكة المتوّجة على القلب العربي من غير منازع! فقد تجعل أغانيها مثل «أنت عمري،» و«الحب كده» و«يا ظالمني» الناس تصل إلى أعماق أحاسيسها وانفعالاتها وهي تستجيب إلى الجموع التي تردد «الله، الله...» من الإعجاب والنشوة. يقال إن عدد المستمعين إلى أغانيها تجاوز المائة مليون. وعندما توفاها الله في السبعينات كان العالم العربي بأجمعه في حداد. والآن، وبعد عقود من رحيلها، لا تزال تتربّع على عرش الغناء العربي، وهي سيدته.

كان شارع أبو نواس أيضًا كورنيشًا للمتعة البريئة حيث كان المحبّون يمشون في الغسق وعند حلول الظلام ممسكين أيدي بعضهم البعض الآخر في الهواء الطلق،



ويمتّعون أبصارهم بمنظر الغروب وهم يأكلون الآيس كريم. كان شارع أبو نواس، كالشاعر الذي يحمل اسمه، طريق العشّاق وشارع الحب!

في الاتجاه المعاكس من شارع أبي نواس نصل إلى شارع الرشيد الذي يعتبر واجهة عرض بغداد! وهو يصل الباب الشرقي بباب المعظّم. تقع في مدخل الشارع محلات حسو إخوان الذي كان يعرض الألبسة الإنكليزية للرجال. وفي الجهة المقابلة، محلات Les Arcades للملابس النسائية الغالية التي تملكها شركة أرمنية. وعلى مسافة منها كانت محلات Vogue للألبسة النسائية لمالكتها عائلة فيسجيان الأرمنية. وصعودًا في الشارع كان ستوديو تصوير Photo Antran، أخ رئيس الأساقفة توركوم مانوكيان، بطريرك الأرمن على القدس؛ اختص أنتران بتصوير الآثار القديمة والمتاحف. ويقع محل نيشان كومريكيان على مقربة منها وهو يعرض الأدوات الاحتياطية للسيارات الأميركية. محل حلويات ساموئيل الأرمني المشهور باسم (كيكجي ساموئيل) لم يكن بعيدًا عن هؤلاء. يقع عبر الشارع محل غرابيت قبطانيان لتحميص القهوة وبيعها، ولم يبع غير القهوة البرازيلية والكولومبية واليمنية، وكان ابنه أوهانيس صديقي. وكانت مدرسة Dr. Stout's School for Boys تقع خلف محل القهوة على مسافة عدة شوارع منه. لم تتحقق رغبتي في ارتيادها بسبب رفض والدي. وكان معرض سيارات أوبل يقع على اليسار ولم أتمكّن من شراء واحدة منها على الرغم من إعجابي بها.

في ساحة الملك فيصل، كان يقع ستوديو HAAS الذي شكّل نقطة التقاء بعض الأرمن، لصاحبه صديقي سولاك هوفسبيان. كنّا نتجمّع لتبادل الآراء ووجهات النظر في السياسة والأدب ونناقش في أحداث الساعة مع الشاعر ليفون (كارمين) إستيبانيان والصديق هايكاز (إيهاسدون-الحكيم) مراديان؛ وكان الإثنان من مثقّفي المجتمع الأرمني. وأما نحن، فكنّا نشترك في الحديث ونبدي آراءنا، ونخطئ أحيانًا بنقاشاتنا السخيفة والمضحكة، ولكننا كنّا نتعلّم في النهاية من هذين الرجلين. وسمعت لأول مرّة في هذا المكان عن الفيلسوف الهندي السير رابندرانات طاغور والذي كان هايكاز خبيرًا في فلسفته ومتابعًا لها.

وفي هذا المكان أيضًا تحدّثوا عن رائعة فرانسواز ساكان Bonjour Tristesse، وسمعت بـ Robin Wright وكذلك André Gide و Arthur Koestler. وكانت تختمر هنا الآراء حول العدد المقبل من الجريدة الأسبوعية الأرمنية كويامارد (معركة البقاء).

كان آرام دوزيان صاحب الامتياز ورئيس تحرير جريدة كويامارد، و«المثقفان التوأمان» ليفون كارمين والدكتور بابكين بابازيان يرفدانها بالمواضيع. بينما كان الأول كاتبًا وشاعرًا، كان الثاني ناقدًا ومؤلّفًا وخطيبًا له مكانته ومن الفاعلين في المجتمع، حملا عبء الحياة الثقافية للمجتمع الأرمني على أكتافهما.

في نهاية الخمسينات أُعطيتُ مسؤولية مراقبة ومتابعة إصدار الجريدة. كنت أذهب مرّة في الأسبوع إلى مطابع جريدة Iraq Times ، الجريدة العراقية الوحيدة الناطقة بالإنكليزية، لطباعة النسخ الـ ٧٠٠ من الجريدة. كانت تفوح رائحة الحبر من النسخة الأولى عند خروجها من آلة الطباعة فتأخذني النشوة في لحظتها، وتجعلني أدندن مقطعًا من أوبرا احتفالًا بالمولود الجديد من نسخة الجريدة. ولحسن حظي كانت ضوضاء الآلات تخفي صوتي فأتجنّب الإحراج.

بعد عدة عقود، وعندما كنت أعمل في قسم التوليد في إنغلوود في ولاية نيوجيرسي، وحين يولد الطفل على يدي، كنت أدندن النغم نفسه بعد أن أسمع أول صوت يصدر من المولود الجديد. كنت مقتنعًا أن ولادة طفل جديد تشبه ولادة النسخة الأولى من جريدة كويامارد: مثيرة، حيوية، وملهمة. الإثنان أعطياني، كما للعالم، انطلاقة جديدة مفعمة بالعِبَر مقدّر لها أن تضع علامتها الإنسانية التي لا يمكن التنبؤ بها.

لم تفهم الممرضات تصرّفي هذا على الرغم من أنهن كنّ معجبات بالغناء الثنائي مع المولود ويفضّلنه على سكوتي، إلّا في حالةٍ واحدة عندما تُستبدل الدندنة بالهمسات عندما يكون الجنين ميتًا، فتنتج أوبرا مختلفة!

من المعالم المبهرة والشهيرة في شارع الرشيد كانت القهوة البرازيلية والقهوة السويسرية المتجاورتان، بحيث صُممتا وتم تأثيثهما على الطراز الأوروبي ليجلس



الزبون لساعات ويرتشف الكابوتشينو والإسبريسو، يدخّن غليونه ويتصفّح جريدته، أو يحادث صديقه في موضوع هام، أو يشعر بأنه أوروبي في داخله وبهدوء.

وفي المحلّة نفسها، كان يوجد إثنان من الفنادق التقليدية في بغداد: فندق السندباد (على اسم الرحّالة الأسطوري)، وفندق سميراميس (على اسم الملكة الآشورية القديمة)، وقد بُنيا على الطراز الإنكليزي الاستعماري القديم: صالونات غائرة في العمق، مؤثّثة بمقاعد جلدية وسجادة إيرانية كبيرة ومراوح متدلية من السقف وثريات جميلة معلّقة من السقف، ويقدّم رجال من الآشوريين والكلدان خدمة ممتازة وفائقة الجودة تدرّبوا على أدائها عندما كانوا في قوّات الليفي التابعة لبريطانيا. كانوا خبراء في خدمة ضباط صاحب الجلالة في حينها. أما الآن، فيقدمون الخدمة لكلّ من يتمكّن من الدفع من الزبائن، وخاصة الذين يدفعون البقشيش العالي. كان بعضٌ الأرمن من النخبة ومن خريجي كلّية بغداد اليسوعية، يجتمعون هناك ظهرًا، يشربون البيرة ويأكلون الفستق ويثرثرون بالشائعات والقيل والقال. كانوا من المغرورين والمتكبّرين ويعتبرون أنفسهم أعلى منّا، لأنهم كانوا يصادقون أبناء العائلات العراقية المتنفذة، أو لأنهم ينتمون إلى ثقافة عليا، أميركية. وكنت أنا على الطرف الإنكليزي من ذلك الشقاق الثقافي.

كان فندق سميراميس ذا ماضٍ مجيد؛ ينزل فيه ضباط الجيش البريطاني، والسياسيون العراقيون والوجهاء ويقيمون حفلات الكوكتيل. أما الآن، لم يبقَ غير أشباحهم تجوب الممرات والغرف الفارغة. ولو حصل أن نطقت الجدران، لكشفت عن قصص الخداع والمؤامرات التي حاكها البريطانيون لإبقاء العراق تحت سيطرتهم.

كان الفندق مليئًا بالسحر والفتنة والألغاز، كالملكة التي يحمل اسمها، ونهر دجلة الذي يجري خلفه، وخاصة في بداية ساعات الصباح وأول العصر عندما تتراجع الحركة وتسكُن ممرات الفندق وتهدأ. يشعر المرء خلال فترة السكون باهتزاز الجدران من جرّاء تردد الأصوات المرحة للضباط الإنكليز مع ضحكات الحسناوات اللواتي كن يشعرن أنهن وصلن إلى القمة معهم، وهن يقلّدن الملكة سميراميس نفسها. وكأن الملكة الآشورية تصفّق استحسانًا لانتصارهن، وهي تتذكّر نصرها،

عندما قبضت في المعركة على الرجل الذي أحبّته، الملك الأرمني آرا الجميل الذي رفض حبها له.

الآن، وبعد رحيل الضباط الإنكليز، تبدّدت أصوات الضحكات والحركة من الغرف. أضحت الممرات هادئة وخالية إلّا من عدد من الناس منتشرين هنا وهناك، والذين يطلبون من الـ «بوي» طلباتهم بالهمس ولا يرفعون عيونهم من جريدة الغارديان أو ديلي تيليغراف. تفتقد صوتًا لطالما أخرج طالبَ طبٍ من نشوته الحالمة: «هل ترغب بمزيد من القهوة، سيدي؟»

شهد الفندق مؤامرة مشهورة ذهب الأكراد ضحية لها. بعد أن أطاح الانقلاب البعثي في ٨ شباط ١٩٦٣ حكومة الزعيم قاسم، حاكت حكومة البعث برئاسة أحمد حسن البكر تلك المؤامرة: كان ممثلو الأكراد نزلاء في فندق سميراميس ينتظرون نقلهم إلى معسكر الرشيد للطيران في كردستان. كانوا قد فرغوا لتوّهم من المباحثات مع الحكومة حول حقوق الأكراد، وينتظرون الوصول إلى كردستان لحمل نتائجها إلى الملا مصطفى بارزاني للمصادقة عليها.

كانوا منتشين من الإنجازات الطيّبة وغير المتوقّعة التي حصلوا عليها. خرج الأكراد بأعداد غفيرة من مخابئهم في بغداد للاحتفال بالاتفاقية. وصلت حافلة عسكرية إلى مدخل الفندق، فاستقلها قادة الأكراد مع مظاهر الاحترام والتقدير لنقلهم إلى المطار العسكري بغية إيصالهم إلى بارزان. عند وصولهم إلى المعسكر، قُبِض عليهم واحتُجِزوا بأمر الحكومة، فوقع فريق المفاوضات من الأكراد الذين ظهروا في بغداد، في الفخ!

لم تكن هذه الخدعة جديدة في العراق ومنطقة آسيا الصغرى، فقد سبق أن مارسها الخلفاء في بغداد ودمشق وسلاطين بني عثمان للتخلّص من أعدائهم. خُدعَ الأكراد مرّة أخرى، واستمرّت المفاوضات بين بارزاني والحكومات العراقية المتعاقبة، بطريقة أو بأخرى.



في الواقع، لجأ رجال مكافحة المخدرات في الولايات المتحدة إلى مؤامرة شبيهة في فلوريدا، عندما دعوا كبار تجار المخدرات إلى حفلة وقبضوا عليهم.

كانت بغداد تتغيّر في سنوات الخمسينات! فالغزو الثقافي الأميركي في البلد كان ينتصر على الثقافة البريطانية. ظهرت فجأة نوادي الليونز والروتاري، وانتمى إليها الأثرياء وأصحاب العلاقات الخاصة والمتميزة الذين بحكم علاقاتهم علموا بها وتعرّفوا إليها. أصبح امتلاك لباس التوكسيدو من الضروريات المهمّة وأضحى رمزًا للطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها. صار لبسه وحضور الحفلات الخاصة يعني رُقيًّا في المستوى الاجتماعي، وإنجازًا لا بد من تحقيقه، ومَن تكيّفوا مع القالب الجديد قُبِلوا في هذين الناديين الجديدين. وصار قبول العضوية في أحد الناديَين إنجازًا لا مثيل له، مثلما كان الانتماء إلى الماسونية في المرحلة السابقة؛ إنه تحوّل واضح وجلي للمشاعر والتوجهات نحو طريقة الحياة الأميركية.

كان العراقيون، والعالم العربي، يعتبرون الماسونيين كفّارًا، والماسونية شبكة تجسس لمصلحة حكومة صاحبة الجلالة، ومعادية للإسلام والقومية العربية، وبالتالي عملاء إسرائيل. سمّاهم العراقيون بـ«فرمصون».

عندما فتحت الأندية الأميركية أبوابها، استقبلها الناس بطريقة مختلفة، ربما بسبب التكوين السكاني لأميركا الذي يتضمن عربًا ومسلمين، ولأنه لم يكن لأميركا ماضٍ استعماري، بالمعنى التقليدي للكلمة، كما لبريطانيا.

كانوا على حق! أميركا كانت دولة مختلفة آنذاك؛ تعرّفنا عليها من خلال United States Information Service (USIS) ومن أفلام هوليوود: كانت المسيحية الصفة الغالبة فيها، وناسها يرتادون الكنائس والمعايير الدينية هي المسيطرة على التعامل الاجتماعي. كان اسم الله موجودًا في كلّ مكان، في المدارس، في الكونغرس، والمؤسّسات الأخرى. كان عيد الميلاد حدثًا دينيًا يحتفل الجميع به. تعرّفنا على الدستور، وخاصة، وثيقة الحقوق المدنية Bill of Rights. كانت هوليوود ترينا المدارس الجميلة والطلاب يرتدون ملابس أنيقة، والمدرّسون محترمون

وموقرون بكلّ إجلال. كانت ترينا أفلامًا عن الـ FBI (مكتب التحقيقات الفدرالي)، وكيف كان الناس الطيبون ينتصرون في النهاية.

كان العالم بأجمعه يحب أميركا لمُثلها العليا: الحرية، العدالة، الإنصاف، الأعمال الخيرية وسيادة القانون، ولأنها نقيض أوروبا الاستعمارية التي مصَّت دماء مستعمراتها؛ كان العالم يعرف الاختلاف جيدًا، ولهذا عشقوا أميركا. كانت أميركا جيدة. كانت أميركا عظيمة، وكان الأميركيون يتباهون بجوازات سفرهم أينما حلّوا. حلم العالم بأجمعه بأميركا، ورغبوا في العيش فيها.

كان الرؤوساء الأميركيين يعتبرون أناسًا أكبر من الحياة نفسها. تربَّع رئيسٌ واحد على عرش الاحترام أكثر من غيره بالنسبة إلى الأرمن والأكراد، الرئيس السابع والعشرون، وودرو ويلسون. كان لموقفه الفلسفي الفذ وخلفيته الأكاديمية دورًا مهمًّا في إنشاء عصبة الأمم، التي جاءت بمعاهدة سيفر، وانتدبته لتوزيع الأراضي للأرمن والأكراد بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية.

بعد عملٍ دقيق وجاد لمدة ثلاثة أشهر، أنتج ما يسمّى Wilsonian Map حدَّد فيها حدود أرمينيا الغربية وكردستان التركية، فأعطى ما للأرمن، للأرمن، وما للأكراد، للأكراد.

على عكس مشروع سايكس-بيكو، لم يرَ مشروع ويلسون النور، ولكن تعتبر تلك الخريطة إلى يومنا هذا الترتيب (modus vivendi) المناسب للأرمن على وجه عام! نعم، هكذا كان الشباب في العراق ينظرون إلى أميركا في ذلك الوقت!

كان طلبة الجامعات الذين يرتادون مقر USIS معجبين بالمعاملة الطبيعية التي يلقونها بعيدًا عن الجو الرسمي مقارنة بالمعهد البريطاني، حيث ساد التعامل الإنكليزي الرتيب، من الكراسي الجلدية ذات الذراعين، إلى شاي الساعة الرابعة وفق الطريقة الإنكليزية؛ بدا كلّ شيء بمنتهى الصرامة والرسمية. أنا شخصيًا أعجبني ذلك!



بعد عقدٍ من الزمن، في الجمعية الطبية البريطانية British Medical Association (BMA) في أدنبره كنت أشعر كأنني في بيتي أو في المعهد البريطاني في بغداد. ففي المبنى، كان الناس يتكلّمون بالهمس؛ وتجري المناقشات على النمط نفسه من دون رفع الصوت، لم يكن هناك اضطراب أو ما يصرف الانتباه غير الثلج المتساقط برفق، والذي كنّا نراه من خلال النوافذ العالية، من الأرض إلى السقف. كان تقديم الشاي حسب وقته وبالأسلوب التقليدي. كنت أقول في نفسي، كم هم متمدّنون!

لماذا ليس بإمكان العراق أن يكون كذلك؟ هل ثمة ما يستحق حقًا العودة إلى العراق؟ هل بإمكاني الرجوع؟ هل لدي قواسم مشتركة مع الثقافة العراقية؟ أسئلة عذّبت تفكيري وتفكير غيري من العراقيين في الخارج الذين كانوا يتابعون دراساتهم العليا في اسكتلندا. وبدا جليًا، في الحرب الثقافية الأنغلو-أميركية، أن أميركا هي الفائزة، وأن العراق في طريقه إلى تبديل توجّهاته.

بعد انقلاب ١٩٥٨، أغلقت الحكومات المتعاقبة هذه الأندية ولاحقت الماسونيين الأحرار، دون غيرهم، كخونة. بعد سنوات عُثر على قائمة أسماء تابعة لمحفلٍ ماسوني في صندوق إيداع مهمل في أحد البنوك، فقُبض على من وردت أسماؤهم في القائمة وحكم عليهم بالسجن مدة طويلة بتهمة العمالة لبريطانيا. كان اسم البروفيسور الدكتور هاغوب جوبانيان من ضمنهم، فقُبض عليه وهو في الثمانين من عمره، وحُكم بعشر سنوات سجن، ولكن أُطلق سراحه بعد مدة، ربما بسبب كبر سنه. بعد سنوات، قلّده صدّام حسين، بعد تسلّمه الحكم، «وسام الرافدين» وهو أعلى وسام يمنح للمدنيين، لكونه أحد مؤسّسي الكلية الطبية الملكية في بغداد.

كانت الكلّية الطبّية أحد إنجازات النظام الملكي، أسّسها البروفيسور صائب شوكة والبروفيسور هاشم الوتري اللذين كانا من ضمن طاقم أطباء الملك فيصل الأول عند مجيئه العراق، بالاشتراك مع الدكتور سندرسون والبروفيسور جوبانيان. جاء تأسيسها من ضمن الأعمال الإيجابية لبريطانيا الاستعمارية في العراق. وخلال عقدٍ من الزمن، نافست تلك الكلّية الجامعة الأميركية في بيروت American University of Beirut (AUB)، ولكن جامعة

بغداد لم تتوسع بمقدارها، مكتفية بكلّية القانون، دار المعلمين العالية، كلّية الهندسة، كلّية الصيدلة وكلّية التجارة.

توسّعت جامعة بغداد في سنوات الخمسينات لتنضم إليها كلياتٍ ومعاهدَ أخرى، وتوسّعت أيضًا كلّ كلّية لتقبل أعدادًا إضافية من الطلبة الذين كانوا يأتون إليها أفواجًا مضاعفة من جميع أنحاء البلاد، ومن مختلف طبقات المجتمع، لتلقّي العلم. ولعل التقدّم الأهم، ارتياد النساء لكلّيات الجامعة المختلفة من جميع طبقات المجتمع ومن دون قيود. وبخلاف اعتقاد الرأي العام الأميركي، كانت العراقيات يتمتعن بحرّية وافرة؛ وأعرف شخصيًا سيدة عراقية حازت إجازة سوق في العشرينات!

شكّلت بيئة الجامعة أرضًا خصبة لاختمار وتبلوّر العقائد الإيديولوجية السياسية والتي بدورها أعطت دفعًا لتشكيل قوى معارِضة مستعدة للنزول إلى الشارع. لذلك صبّ البعثيون، وغيرهم من المنظّمات القومية، والشيوعيون تنافسوا على كسب عقول الطلبة. وفي بعض الأحيان، اتّحدت هذه الفئات المعارضة للقيام بتظاهرات في الشوارع ضد عدوهم الأوحد، النظام الملكي.

برزت القيادات التي لعبت أدوارًا فعّالة ومؤثّرة في تغيير مسار الأحداث السياسية في العراق ومستقبله. فما فعله عدنان عزّاوي وغيره في صيدلية «العراق» في نهاية الأربعينات، أعطى ثماره في الخمسينات؛ كانت الكوادر شيوعية فعّالة وتتنافس مع البعثيين والقوميين والتيارات المعارضة الأخرى من أجل المركز والنفوذ.

كان عزيز الحاج، على سبيل المثال، واحدًا من أكثر المتحمّسين والبارزين من قادة الشيوعيين، الخارجين من صفوف دار المعلمين. ومَن لم يكن يشارك من الطلاب في الحراك السياسي، كان يشعر بأنه منبوذ. وكنّا بالفعل منبوذين! على الأقل أنا شخصيًا، فبما أنني كنت أكره ناصرًا والشيوعية، لم يكن لدي سبب للاحتجاج والتظاهر ضد الدولة. إذ كان النظام عادلًا معي، وقبلني في الكلّية الطبّية على الرغم من قوميتي المختلفة وديني المغاير لدين الدولة؛ كنت عراقيًا، وكفى!



تأسّست الجامعة وفق النظام البريطاني والمناهج التدريسية في بريطانيا، ولكن المنافسة الأميركية لم تكن بعيدة عنها. كان الآباء اليسوعيون من بوسطن أسّسوا قبل عقود كلّية بغداد لاستقطاب النخبة العربية وترويج المُثُل اليسوعية، ثم اتسع نطاق عملهم وأنشأوا جامعة الحكمة التي قامت بتدريس كوادر أميركية الهوى تؤمن بطريقة الحياة الأميركية. ولا زال خريجوها يجتمعون في بوسطن وغيرها من المدن الأميركية مرة كلّ سنتين لاستذكار الماضي وأيام الدراسة، وقد حالف النجاح غالبيتهم. لم تكن لبريطانيا معاهد شبيهة.

هكذا، بزغ فجر جديد للتربية في العراق الذي باتت لديه، للمرة الأولى منذ الجامعة المستنصرية في القرن الثاني عشر الميلادي، جامعتان ثقّفتا وعلّمتا وأنتجتا العديد من العلماء والمدرّسين والمثقّفين الذين أضحوا موضع حسد العالم العربي. كان البلد في أمسّ الحاجة إليهم لتعليم أفراد الشعب الذي بلغت نسبة الأمية فيه ٩٠٪.

كان التقدّم واضحًا في مجالاتٍ أخرى غير التعليم. ففي بداية الخمسينات بدأ العمل في مشاريع المياه الضخمة، إذ انتهى بناء سدَّي دوكان ودربندخان على نهرَي الزاب الأعلى والأسفل في كردستان العراق. بينما كان مشروع ري الحويجة في كركوك في تقدم مستمر وشارف على الانتهاء. كانت هذه المشاريع العملاقة قد خُصِّصت لريّ ملايين الدونمات الخصبة المعتمدة على المطر، لتثبيت العشائر الرحّل.

كان الحديث جارٍ لتوسيع بحيرة الحبانية وقاعدة الحبانية الجوية حيث تتمركز القوّة الجوية الملكية البريطانية، لفرض السيطرة الجوية على بغداد، خاصة أثناء حركة رشيد علي الموالية لألمانيا النازية سنة ١٩٤١. كانت لقاعدة الحبانية الجوية أهمية استراتيجية كبيرة للعراق وبريطانيا؛ فخلال المباحثات مع البريطانيين لإنهاء الانتداب على العراق، تنازعت الدولتان بشدة للاحتفاظ بها. كانت بريطانيا مصرّة على استمرار سيطرتها عليها، بينما طلب العراقيون إزالة آخر مظاهر الدور البريطاني على أرضهم. وحتى أثناء مباحثات معاهدة بورتسموث سنة ١٩٤٨، كانت الحبانية أصل الصراع والثمرة التي يجب القتال من أجلها. وتنبع أهميتها الاستراتيجية من

كونها ضرورية للسيطرة ليس على سماء العراق فحسب، بل سماء المنطقة، وخاصة آبار النفط في عبادان، التي كانت بمثابة بابا كركر إيران.

كانت الحبانية مستعمرة بريطانية فعلية داخل العراق المستقل. كان هناك عدد من الأرمن يعملون في مجال الخدمات المدنية ويعيشون في أحياء بُنيت للعائلات، ولكن أغلبية السكان كانوا من الآشوريين من قبيلتَي تياري وجيلو. كانوا يعملون كمرتزقة في جيش الليفي، وهي قوّة عسكرية أنشأها البريطانيون لتنفيذ سياساتهم، وفرض رأيهم على العراق. في الواقع، استخدمت بريطانيا قوّات الليفي في العشرينات لقمع انتفاضة العشائر العربية في منطقة الفرات ضدها. وسنة ١٩٢٤، أرسلتها إلى كركوك بنية استعمالهم في السليمانية لقمع حركة الاستقلال الكردية بقيادة الشيخ محمود البرزنجي. ولكن، أثناء وجودهم في كركوك، عاثوا في المدينة خرابًا وارتكبوا عددًا من الاغتيالات بحق تركمان المدينة، بعدما أشعل شجار مع قصاب في سوق القورية نزاعًا مع بعض العشائر. وكانوا قاموا بالأمر نفسه في الموصل في ١٥ آب ١٩٢٣، أثناء الاستفتاء العام الذي قامت به عصبة الأمم. وكان الآشوريون التياريون عام ١٩١٤، أعلنوا الحرب ضد العثمانيين وحاربوا إلى جانب بريطانيا، ما أدى في نهاية الأمر إلى نظرة سلبية حيالهم:

- كرههم العرب لوقوفهم إلى جانب بريطانيا في قمع الانتفاضات العربية، واعتبروهم طابورًا خامسًا في وسطهم، على الرغم من كونهم عراقيين.
- كرههم التركمان لقتالهم ضد العثمانيين ولارتكابهم الفظائع في كركوك.
- كرههم الأكراد لمعاونتهم البريطانيين في سحق حركتهم الاستقلالية.

لم تتخلَّ بريطانيا عن الآشوريين أبدًا. فبعد تسريح مرتزقة الليفي من الجيش، وفَّرت لهم الوظائف في الـ IPC. أثناء عملي هناك كنت سعيد الحظ بوجود لازار الآشوري في خدمتي. كانت له خبرة ممتازة في خدمة الضباط البريطانيين في الحبانية، وفق شهادة خبرة تحمل توقيع ضابط إنكليزي يدعى العقيد جونسون، توصي بتوظيفه من غير تردد. تمسَّك لازار بقطعة الورقة تلك، كالمسافر الذي يتمسّك



بجواز سفره، بكلّ فخر وعناية. كان العقيد جونسون نزيهًا في توصياته؛ أدّى لازار مهمات وظيفته، كأنه لا زال يخدم ضابطًا بريطانيًا يتمتع بامتيازات الاستعمار.

لم تترك هذه المشاريع والتقدّم الجاري في البلد تأثيرًا مباشرًا على حياة الفرد العراقي العادي. ترك الاقتصاد البطيء وراءه جموعًا من الفقراء. تكوّنت نواة طبقة وسطى في البلد، ولكنها بقيت صغيرة. بقي الفقير فقيرًا، وازدادت ثروة الغني. لم تتناقض تلك الفروقات مع الفهم الاجتماعي للإسلام: بما أن الله هو المُعطي وموزع الثروات، فقد أعطى بعض الناس أكثر من غيرهم؛ هي مشيئة الله الذي جعل قسمًا من الناس أغنياء بينما أبقى الآخرين في فقرهم. فكلّ امرئ يملك حسب قسمته ونصيبه، وهذا هو قرار الله! كلّ شيء مُلك الله، وليس الغني إلّا حافظًا لهذه الثروة. وقد أمر الله الأغنياء بالعناية بالفقراء والمحتاجين، نيابة عنه. وقد فعلوا ذلك أحيانًا! كان هذا اقتناع وإيمان الفرد المسلم الذي تشكّل منه الوسط الاجتماعي العراقي.

رفض الشيوعيون الملحدون المفهوم الإسلامي الذي يتوّغل قرونًا في التاريخ ولاموا الأغنياء الفاسدين على تفشي حالة الفقر بين الشعب، واحتكار سبل الثراء وإهمال الفقراء والمحتاجين. كانوا يقولون: «إستولى هؤلاء الناس على خزائن الله، ليس لهم ضمير ولا أخلاق، سرقوا واختلسوا أموال الناس بإسم الله.» قدَّموا إلى الناس الشيوعية على أنها النظام الاجتماعي البديل حيث تعم العدالة، ويتقاسم الجميع الثروة بالتساوي، وتوجد طبقة اجتماعية واحدة. بذلوا جلَّ جهدهم لزعزعة النظام القائم بتحريض الفقير ضد الثري.

## الفصل الثالث والعشرون

# رياح التغيير

كنّا في منتصف الخمسينات. العراق يغلي بالمشاكل السياسية: لا زال «عار» الهزائم أمام إسرائيل مغلّفًا الجو، وتداعيات القضية الفلسطينية تؤرق الفكر العربي. كانت المعارضة ضد بريطانيا والغرب تشتد يومًا بعد يوم؛ لاعتبارهما استعماريين ومسؤولَين عن زرع «السرطان في الجسد العربي»، أي يهود أوروبا.

كان الحزب الشيوعي يستغل الأوضاع ويستثمرها لمصلحته ويقود المعارضة على الرغم من إعدام فهد وعدد من القيادات الشيوعية قبل عقدٍ من الزمن، إذ كان لا يزال ناشطًا وجريدته، «القاعدة»، تُطبع وتوزَّع.

رفعت أحداث إيران من الروح المعنوية للحزب الشيوعي العراقي: فقد أمَّم محمد مصدّق، رئيس وزراء إيران، شركة النفط الأنغلو-إيرانية في عبادان (١٩٥٢-١٩٥٣)، وقاد انقلابًا ضد الشاه الذي هرب من البلاد مع زوجته الإمبراطورة ثريا. من دون أي إشعار، حطت طائرتها في بغداد وهي في طريقها إلى إيطاليا. إستدعت الحكومة صديقي تسولاك هوفسيبيان، صاحب ستوديو هاس، إلى المطار لتوثيق الحادث.

كان انقلاب مصدّق مكسبًا كبيرًا للاتّحاد السوفياتي، وخسارة كبيرة جدًا لبريطانيا والولايات المتحدة، إذ كانتا قلقتين من أن تأميم مصدّق لشركة النفط الأنغلو-بريطانية في عبادان سيؤثّر على النفط في بابا كركر. وبالفعل، أمّم مصدق شركة النفط، وتأثّر واقع النفط في بابا كركر، ولو ليس مباشرة ولا بصورة آنية.

هزّ انقلاب مصدّق العالم أجمع، ليس فقط بسبب نفط عبادان، ولكن أيضًا بسبب رغبة الحكومة الإيرانية المعادية للغرب في إفساح المجال لوصول روسيا إلى المياه الدافئة في الخليج الفارسي والمحيط؛ إنجاز لأحلام روسيا التاريخية.

كان مصدّق أرستقراطيًا ولم يكن شيوعيًا أو متعاطفًا مع الشيوعيين، على رغم أن حزب توده (الحزب الشيوعي الإيراني) تبنّى إطاحة الشاه. أمّم مصدّق الشركة الأنغلو-إيرانية وأعادها إلى «مالكيها الشرعيين، شعب إيران.»

لم يكن الوضع الجديد مقبولًا لدى الغرب، خاصة الولايات المتحدة، بعدما بلغ حزب توده من القوة ما جعل حكومة مصدق غير مستقرة. وقعت إيران بالفعل في قبضة الشيوعيين، وقد هدّد الوضع الجديد الدول المجاورة الغنية بالنفط، وخاصة بابا كركر.

بالنسبة إلى الولايات المتحدة، كان انقلاب مصدّق هزيمة في الحرب الباردة، والأهم منها خسارة موقع استراتيجي مهم. كان على الرئيس آيزنهاور أن يتفاعل مع الحدث بسرعة، وهذا بالضبط ما فعله! قامت السي. آي. أي، وبالتعاون مع الجنرال زاهدي، أحد المخلصين للشاه، بانقلاب مضاد خطط له الجنرال شوارتزكوف (والد الجنرال نورمان شوارتزكوف)، واستعيد عرش الطاووس. واسترجع الانقلاب المضاد أيضًا، ولو بصورة معدّلة، السلطة الغربية على الصناعة النفطية في عبادان، وبابا كركر في العراق.

لم تمر الأحداث الإيرانية مرور الكرام على العائلة المالكة في العراق، فدقّت جرس الإنذار واتخذت جميع الاحتياطات اللازمة. كانت بريطانيا تعلّمت درسًا قاسيًا من أحداث إيران، ومن المستحيل أن تسمح بتكراره في بابا كركر. وساهم حدثان إضافيان في استمرارية الوضع غير المستقر في العراق في منتصف الخمسينات وتنامي قوة المعارضة بالتالي:

أ- حملة السويس في ١٩٥٦ التي هاجمت فيها بريطانيا وفرنسا وإسرائيل مصر.

ب- قرار الولايات المتحدة عدم تمويل مشروع بناء سد أسوان.



أثبت هذان الحدثان للشارع العربي أن الغرب يتابع تطبيق نياته الشريرة ضده، ما أفاد حجة المعارضة في العراق، في المقابل، اعتبر الموالون لبريطانيا، أو المعادون لنظام ناصر، أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة عن الاحتراف؛ فهم لم يفهموا لماذا أميركا:

آ- أنذرت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل وأجهضت حملة السويس فور البدء بها، والتي كان هدفها إخراج عبد الناصر. «كان على آيك أن يدع آنثوني إيدن يوجّه ضربة لذاك الشيوعي».

ب- لم تموّل سد أسوان وأضاعت فرصة ذهبية لكسب ود المصريين، والعرب على العموم. كانوا يعتقدون أن بسماحهم للاتحاد السوفياتي ببناء السد سيزيدون من مكانتهم في الشرق الأوسط. غير أن موقف البعض كان «الأميركيون سُذّج ولا يفهمون في السياسة الخارجية؛ الشرق الأوسط يتحوّل نحو الشيوعية.» بعبارة أخرى، إن تحرّك أميركا في النقطة الأولى، وعدم تحرّكها في النقطة الثانية، أضعفا موقف العرب الميّالين للغرب، وهذا ما زاد من عدم الاستقرار في الشرق الأوسط.

ومن باب التناقض والمفارقة، أن القوميين الذين لاموا أميركا لعدم تمويلها مشروع السد العالي، امتدحوها عندما أوقفت العدوان الثلاثي.

فبعد يوم من إصدار الرئيس الأميركي إنذاره لوقف العدوان الثلاثي على مصر، أصدر الاتحاد السوفياتي إنذارًا مشابهًا. وبسبب التدخّل السوفياتي، حصل الشيوعيون على ذخيرة لماكينتهم الإعلامية، استخدموها إلى أقصى حد: فقد أشارت الدعاية الشيوعية إلى الموقف الإمبريالي الغربي، وأثنت على دور الاتّحاد السوفياتي في وقف عدوانٍ على دولة عربية بريئة، وصوّرتهم كأنهم أبطال السلام، ونجحوا في حجب حقيقة أن آيزنهاور هو الذي أوقف العدوان الثلاثي وليس الاتّحاد السوفياتي.

كان فجر تقدّم اقتصادي وازدهار ورفاهية ينبلج على العراق على رغم الاضطراب الإقليمي، ولكن التقدّم استثنى الإصلاح السياسي. فبالرغم من

وجود برلمان بمجلسين، النواب والأعيان، فإن أعضاءه كسبوا مقاعدهم عن طريق الاحتيال والخداع والتضليل وتزوير الانتخابات. كان برلمان «موافج»، أي الجميع يوافقون على القرارات بـ «نعم». لم تكن توجد معارضة فعّالة، ولم ينحرف الموجود، إنْ وجد، عن خط الحكومة. وبكلمة واحدة، لم يكن في العراق ما يمثّل الديمقراطية.

ولكن العراق لم يملك أي ديمقراطية في ماضيه الزاخر. نعم، قبل آلاف السنين كانت تحكم المجتمع شريعة حمورابي البابلية، ولكنها لم تنصّ على وجود أغلبية. وحتى في العصر العباسي المجيد بوجود الخلفاء، وعلماء الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء والشعراء والقادة العسكريين، لم تكن هناك ديمقراطية أو حكم أغلبية.

كان نظام تبعية المواطن للحاكم هو النظام الحكومي السائد في العراق، وفي كلّ العالم العربي والإسلامي. كان الحكّام دائمًا يأملون أن يكون المواطن مطيعًا لهم، وكان المواطنون يأملون أن يكون الحاكم عادلًا، وفشل الإثنان في أملهما.

لم يكن عراق الخمسينات مختلفًا؛ لم يكن هناك أي خطط لإجراء إصلاحات سياسية. كان العراق مشغولًا بمشاريعه العمرانية والإنشائية العملاقة وخلق بُنى تحتية معاصرة للبلاد، عوض المضي وراء ما كان يسمى القضية العربية؛ أي توحيد الدول العربية والتخلّص من إسرائيل ومن المستعمرين الجدد.

لم يكن تضامن العراق مع الدول العربية قويًا، إذ لم يتعدَّ العبارات المستخدمة في الخطابات الرسمية حول القضية العربية. كانت جامعة الدول العربية، والذي كان العراق أحد مؤسّسيها، مجرد مزحة، وناديًا يلتقي فيه وزراء الخارجية العرب أو من يمثّلهم لمناقشة القضايا العالقة التي تواجه العالم العربي، ثم يصدرون بيانًا روتينيًا تُلقِّنه لهم الدول الغربية التي يتبعونها. ومن المنصف القول إن الجامعة، ومنذ تأسيسها عام ١٩٤٥، لم تتابع أمورًا حيوية ذات فائدة للأمة العربية ترضي الرأي العام العربي، ولا أصدرت قراراتٍ جاءت بنتائج إيجابية.



وكلّما أصبح الفرد العربي متعلّمًا ومثقّفًا، وتراكمت عنده الخبرة، فقدَ الثقة بحكامه وأنظمة حكمهم. طالبت الشعوب بالحرية السياسية، وبالرخاء والرفاهية، وبِاحترام حقوق الإنسان؛ لم يحصلوا على أي منها. طالبوا باستبدال سليم وعادل للنظام العثماني القديم والفاسد الذي كان لا يزال مهيمنًا على الدستور.

هذا النوع من الوضع الشاذ أغضب الطبقة المثقفة العراقية التي كان أفرادها يتزايدون باستمرار، وأغاظ المواطن العادي في الوقت نفسه. وعلى الرغم من الركود السياسي، كان التطوّر الاقتصادي يتقدّم في العراق الغني بالنفط. أنشأت الحكومة «مجلس الإعمار» المؤلّف من التكنوقراط ومن ذوي الكفاءة العالية وكلّفتهم بإدارة تحويل العراق إلى دولة عصرية. كان في حوزتهم موردان ضخمان لتحقيق هدفهم: النفط والماء.

فبالإضافة إلى حقول بابا كركر المتطورة أصلًا، كانت هناك أراضٍ عذراء تنتظر الاستكشاف. بدأت عمليات حفر آبار النفط من قبل شركات غربية، في عين زالة قرب الموصل (كردستان العراق حاليًا) والبصرة في الجنوب.

إزداد الطلب العالمي على النفط وكان على بابا كركر أن تواجه هذا التحدي. ومن الطبيعي أن زيادة الإنتاج تتطلّب أنابيب نفط أكبر حجمًا لإيصاله إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط. وبعد قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، أغلق العراق خط أنابيب «H» الذي كان يبدأ من بابا كركر ويعبر الأردن نحو حيفا. وبقي الخط «K» الذي يبدأ من بابا كركر، وينضم إلى خط الأنابيب «T» عند الحدود العراقية-السورية، بعد أن يعبر محطات الضخ K-2، K-1 و K-3، وتنتهي في طرابلس على البحر الأبيض المتوسط.

بدأت شركة Turrif-Burden الأنغلو-الأميركية بمد خط الأنابيب الجديد بقطر ٣٢ إنش تحت الرمال لاستبدال الخط القديم بقطر ١٢ إنش. ويبدأ خط الأنابيب الجديد في بابا كركر لينتهي في طرابلس وبانياس. كنت أرى الخبراء الأميركيين أثناء مدّ الخط الجديد وكنت أعجب من قدرتهم على العمل المضني واستهلاكهم الكميات

الكبيرة من البيرة ولحم الستيك؛ كنت أعمل آنذاك طبيبًا في الـ IPC في محطتَي الضخ K-2 ثم في K-1.

كانت مسألة المياه على قائمة جدول الأعمال وبصورة دائمة. جاء مجلس الإعمار بمشاريع للسيطرة على مياه نهري الزاب الكبير والزاب الصغير، وهما الرافدان الرئيسان لنهر دجلة واللذان ينبعان من جبال كردستان وفي قلعه دزه حيث رأينا عمالًا يقيسون عمق الثلوج لتقدير كميات المياه التي ستجري في الربيع إلى هذين الرافدين. أعتقد أن أحد أسباب محاولة الحكومة السيطرة على المياه الجارية إلى نهر دجلة هشاشة وضع بغداد في كلّ ربيع عند ذوبان الثلوج وارتفاع معدل المياه في النهر.

وهكذا، وضِعَت الخطط وطُبّقت لبناء سدي دوكان ودربنديخان على هذين النهرين في شمال شرقي العراق. وبسبب هذه المشاريع، تمّت إزالة عشرات القرى الكردية وإعادة توطين سكانها، فأضافت إلى امتعاضات الأكراد الكثير منها، فاضطروا إلى النزوح.

يجري نهر دجلة من كردستان التركية نحو الموصل وبغداد من دون إعاقات رئيسية. لم تكن تركيا قد بدأت ببناء السدود عليه بعد، ولم تتمكّن من السيطرة على حصة العراق. كانت تجري الاستشارات والمداولات بصورة ثابتة بين العراق وتركيا حول مياه دجلة، ولهذا، فإن النزاع الحالي بين البلدين حول حصص المياه، بسبب بناء المشاريع الحديثة لسد أتاتورك، بدأ قبل أكثر من خمسين سنة. وعلى رغم كلّ شيء، المياه والنفط متوفّران في عراق ما بين النهرين: القطب الشرقي لـ»الهلال الخصيب».

لم تعِق هذه المشاريع العملاقة عزم الشيوعيين والناصريين والقوميين والأكراد على السعي خلف مخططاتهم السياسية والتخلّص من النظام الملكي. ساهم عدم الاستقرار الداخلي في إضعاف العراق أمام القوى الخارجية التي كانت تحاول السيطرة على بابا كركر.



وعلى الرغم من محاربتها المنشقين والعناصر الهدّامة، استمر النظام الملكي في وضعه غير المستقر والضعيف. كان على بريطانيا حتماً أن تفعل شيئًا مختلفًا ووقائيًا، لتأخذ المبادرة من الآخرين: إنقلاب مثلًا؟ نعم!

إذا كان هذا التفكير عقلانيًا، فمن المنطقي أن نقول أن عسكريًا برتبة زعيم، مثل عبد الكريم قاسم، المعروف بميوله البريطانية وتمتعه بثقة رئيس الوزراء، قد أؤتمن على قيادة انقلاب ١٩٥٨ لمصلحة الحكومة البريطانية. ونستنتج من المداولات المنطقية، أنه، لعدم تكرار الكارثة الإيرانية، خططت بريطانيا ونفّذت الضربة الوقائية.

لتعزيز هذه الفرضية، يستشهد المراقبون آنذاك بمقابلة السفير البريطاني لقاسم بعد ساعات قليلة من الانقلاب وتصريح الأخير: «سيتدفّق النفط كالسابق، وستبقى الأسعار على حالها،» كدليل على رأيهم. وبعد سنة تقريبًا من الثورة، تغيّرت الديناميكية السياسية في البلد بشكل ملحوظ: تمّ تحجيم القوميين والبعثيين والناصريين كقوى مؤثّرة، بينما زاد نفوذ الشيوعيين، وزادت مطالبتهم في المشاركة في الحكم بمقدار ما زادت قوتهم، بحيث أربكوا قاسمًا وتجاوزوه وشكّلوا تحديًا لسلطاته.

في ١ أيار ١٩٥٩، وضمن احتفالات يوم العمّال العالمي، شارك نصف مليون متظاهر في شوارع بغداد، مطالبين قاسم بتعيين إثنين على الأقل من الشيوعيين في الوزارة. كانوا يرفعون لافتاتٍ تحمل الشعارات الشيوعية التقليدية مثل السلام والصداقة والاشتراكية، إضافة إلى شعار: «عاش زعيمي، عبد الكريم، الحزب الشيوعي بالحكم، مطلب عظيمي». إعتبر «الزعيم الأوحد» هذا الأمر موجّها لشخصه وتهديدا لسلطته.

بعد تموز ١٩٥٩، كانت مجازر الموصل ومجازر التركمان في كركوك ومطالبات الشيوعيين في تقاسم السلطة مع قاسم تُقلق بال المواطنين، وزادت «محكمة الشعب»، من حال القلق والفوضى وعدم الاستقرار.

كان واضحًا للعيان أن الشيوعيين سيطروا على البلد، وأن ميليشياتهم، المقاومة الشعبية، جلبت الجحيم إلى العراق، من شماله إلى جنوبه، عن طريق الاعتقالات

العشوائية والتعذيب والقتل والإرهاب. وعلى الرغم من أن قاسم لم يكن شيوعيًا، ولكن البلد اصطبغ باللون الأحمر. وتوترت أوضاع العراق بسبب ارتكاب الشيوعيين جرائم القتل الجماعي في كركوك في ١٤ تموز ١٩٥٩، بحق التركمان، بعلم حكومة قاسم التي تدخَّلت بعد حدوثها وقبضت على الذين ارتكبوها، وأدانتهم وحكمت عليهم بالموت من دون تنفيذ الأحكام.

لم تنتهِ مشاكل العراق بزوال النظام الملكي. نعم، أُسِّسَت الجمهورية، ولكن بعد ساعات من ولادتها المستهجنة أصابها المرض الذي دلَّ على طفولة عليلة ومراهقة أكثر مرضًا. تبدّدت الاتفاقات والتفاهمات السابقة للثورة بين قادتها، وتناسوها أجمعين. تفاقم النزاع بين قاسم وعارف، وأصبح لكلّ منهما دافعه الإيديولوجي الخاص الواجب تحقيقه. كانت عقيدة عارف تحقيق الوحدة مع ناصر، وعقيدة قاسم منع حدوث الوحدة. لم يجدا نقطة التقاء مشتركة للحوار، وسرعان ما حلّت الكراهية بينهما. أصبح رفاق سلاح الأمس أعداء لدودين.

وصل النزاع بينهما إلى نهاية جُرمية فعلًا عندما سحب عارف سلاحه ووجَّهه إلى قاسم، ولكن لم يتمكّن من إطلاق النار عليه، ثم ندم وبكى بكاءً مرًا. عندما جرَّده الحضور من سلاحه، سأله قاسم لماذا أراد قتله؟ أجابه عارف: «لم أعنِ قتلك ولكنني كنت أريد الانتحار،» أجابه قاسم، «لماذا لا تذهب إلى دارك وتنتحر؟»

جلبت الإيديولوجيات التي دعمت قاسم وعارف النزاع إلى الواجهة عن طريق الصحف المحلية والتظاهرات والتصفيات والعنف، ونتج عن النزاع تعارض في وجهات النظر والعداوة التي سرعان ما انتشرتا بين العراقيين.



## الفصل الرابع والعشرون

# الاستدارة نحو الخلف

أثّرت هذه الأحداث على قاسم الذي شعر أنه منبوذ، وتفاقم ضعفه. تمكّن مرّات عدة من البقاء بعيدًا من طلبات رفاقه في تكوين مجلس لقيادة الثورة، ونجح في عزل عارف وفكرة اللحاق بقطار الوحدة مع ناصر. أما الآن، بدا واضحًا أنه يواجه تهديد السيطرة الشيوعية -الذي كان تهديدًا حقيقيًا! كانت المظاهر كافة ومعطيات الوضع القائم تشير إلى أنه لم يكن ذلك الرجل القوي في السلطة كما كان سابقًا! فقد أخذوا البلد من يده وارتكبوا جرائمهم باسمه. لام الناس قاسمًا على هذه الفظائع والفوضى التي عمّت العراق؛ لم يبقَ له أي خيار غير إطلاق حملة لإزالة تهديدهم وتدميرهم. وهكذا كان!

في خطابٍ ألقاه بتاريخ ١٩ تموز ١٩٥٩ في كنيسة القديس يوسف في بغداد، شجب الشيوعية بصراحة وبقوّة، وسمّاهم بالـ«فوضويين» وأدان الفظائع المرتكبة من قبلهم: المجازر في الموصل، والتي ارتُكِبت باسمه للقضاء على ثورة الشوّاف، وكذلك مجازر كركوك.

بعد أن صوَّر الشيوعيين بالمجرمين، وهي حقيقة يعرفها المواطن العادي! بقي هناك سؤال واحد على أفواه الجميع: لماذا الآن؟ فلو كان قاسم نزيهًا لأدان هذه الفظائع لحظة حدوثها، أو في أحسن الأحوال، منع ارتكاب هذه الجرائم. وكان الجواب البديهي الواحد: كان عليه أن يستخدم الشيوعيين لضرب أعدائه، ثم يضربهم لأنهم رفعوا رؤوسهم وشكّلوا تهديدًا حقيقيًا لسلطاته.

تلقّى الحضور في الكنيسة خطابه بتصفيق مدوّي ونزيه؛ إذ كانت المفاجأة سارة لهم وللعالم. عمَّ الفرح العراقيين الذين كانوا يستمعون إلى خطاب قاسم عبر الراديو والتلفزيون، إذ ضاقوا ذرعًا بنقاط السيطرة على الطرقات، وعمليات الابتزاز، والاغتيالات، والطغيان والجور لمدى عامٍ كامل. فهم العالم الخارجي أنه غيَّر سياسته نحو الغرب، وهذا ما حصل! أما في الداخل، فقد نظر الناس إلى قاسم أنه شخص عادل ومنصف. أصبحت رائحة الورد تفوح منه!

كشفت الحريات التي وفّرها قاسم للناس وفضحت هيكلية الحزب الشيوعي. يعتقد البعض أن السياسة التي اتبعها قاسم في فسح المجال في إطلاق يد الشيوعيين كانت خطة مدبّرة في كشف التنظيم بأكمله. لعل الأمر كان صحيحًا! فقد جنى هو والغرب الثمار: إضعاف المعارضة العفلقية والحيلولة دون إعلان الوحدة بين العراق والجمهورية العربية المتحدة، وفضح أفراد المنظمة الشيوعية، أمر فشل في تحقيقه النظام الملكي والمخابرات البريطانية في وقتها.

والآن، وبعد كلّ ما قام به، أصبح قاسم والغرب في موقفٍ جيد لاتّخاذ خطوتهم المستقبلية الطويلة الأمد. تعرّفوا على الشيوعيين وعلى أعضاء اللجنة المركزية، وما عليهم سوى التقاطهم واحدًا بعد الآخر، كثمرة يانعة. وهذا ما فعله قاسم بالضبط! فقد أطلق حملة اعتقالات واسعة ضد الشيوعيين، وأودعهم السجون التي امتلئت هذه المرّة بالشيوعيين الذين استبدلوا الأماكن معنا.

يذكر عزيز الحاج من القيادة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في كتابه «شهادة للتاريخ» (نيسان ٢٠٠٢)، أن قرار تحدي قاسم والإصرار على مشاركته في السلطات كانا أكبر خطأ ارتكبه الحزب في ذلك الوقت. وأصاب الرجل في كلامه! مزّق قاسم الحزب إلى قطع صغيرة؛ وبعمله هذا أزال قاعدته الشعبية، فأصبح الناس العاديون البعيدون عن الانتماءات السياسية من داعميه.

فتح تغيير الاتجاه الأبواب على عهدٍ جديد، ولكنه خلق في الوقت نفسه فراغًا سياسيًا جديدًا، وواقعًا سياسيًا جديدًا- وكذلك تحديات ومشاكل جديدة كان على قاسم أن يواجهها.



كان خطاب قاسم في كنيسة مار يوسف نقطة تحوّل في البيئة السياسية للعراق: كان راديكاليًا ومؤثرًا، وحركة سياسية ماهرة من جانب قاسم. أُطلِق سراح الآلاف مثلي -عدا المتآمرين الذين اشتركوا فعليًا في ثورة الشوّاف، ولكن كان الجميع ممتعضين وغير داعمين لقاسم: بإطلاق سراحنا لم يفز بقلوبنا.

بدأ العفالقة بالتشديد من نشاطهم السياسي وحازوا على السمعة والشهرة والقوّة للسيطرة على الشارع وملأوا فجأة الفراغ السياسي الذي خلّفه الحزب الشيوعي المشلول.

في شهر أيلول، ملأت أبواق دعاية حزب البعث ومنشوراته مثل كتاب ميشال عفلق «في سبيل البعث» دور الكتب. وكانت هذه الخطوة الأولى لتعبئة الناس لكي تتماشى مع شعاراتهم في الوحدة والاشتراكية حسب فكر عفلق. أصبحت تظاهرات البعثيين ونفوذهم السياسي، بشكل واضح وجلي، قوّة لا يمكن استغفالها!

وعلى الرغم من تغافل قاسم عن المكاسب الجديدة والشهرة التي جناها البعث، لم تنتهِ عداوة الأخير تجاه قاسم؛ أولًا، بسبب الأذى الذي تسبّب به لهم، وثانيًا، بسبب الاختلافات الفكرية والتناقضات السياسية التي فصلتهما.

أصبحت القوى المعادية لقاسم والموالية لناصر تدعى جميعًا بالعفلقيين، واتهمت قاسم بخرق الاتفاقيات والتفاهمات المعقودة قبل الثورة: حرَّف مسار ثورة ١٤ تموز. إتفقوا على رحيل قاسم!

لم تقتصر المعارضة على القيام بالتظاهرات الشعبية وتشكيل الرأي العام فقط، بل بدأوا بوضع الخطط للتخلّص من قاسم. في ٧ تشرين الأول ١٩٥٩ جاءت ضربة الانتقام!

في ذلك اليوم، كنت أعمل في مكتب صديق ذهب إلى لبنان في إجازة قصيرة، يقع في منطقة رأس القرية في بغداد، ذات الممرات والطرق الداخلية الضيقة جدًا بحيث كانت النوافذ المتقابلة كأنها تُقبِّل الواحدة الأخرى. على يسار المنضدة كانت نافذةٌ تطل على شارع الرشيد. كان الوقت مساء وفرغت لتوي من إعطاء امرأة بدوية

الخبر الصاعق عن إصابتها بسرطان الحنجرة. إنهارت هي وابنتها، وبدأت بمواساتها قائلًا: « كلّ شيء بيد الله. هو الوحيد الذي يقرّر من يموت ومن يحيا». في تلك اللحظة، سمعت أصوات طلقات نارية تبعها انفجار قنبلة. نظرت من خلال النافذة ورأيت سيارة أصابها الدمار، وأحذية مختلفة منتشرة في الشارع، والناس يركضون في جميع الاتّجاهات بخوف وهلع. لم نعرف شيئًا عما يدور في الشارع! أغلق بواب البناية الباب الرئيسي، وجلسنا القرفصاء تحت النافذة بخوف وفضول.

خلال دقائق، رأيت جنديين يحملان قاسم من إبطيه ويسألان الناس بكلّ يأس عن أي مساعدة. كانت الصدمة ظاهرة عليهما وهما يتّجهان نحو مكتبي ويصيحان بتوسّل: «يا أهل الخير، يا أهل الصواب، إلحقوا، الزعيم إنضرب!»

لم يستجب أحد لندائهم، ولا حتى نحن! في لحظة ما استسلمتُ إلى غرائزي الإنسانية وأردتُ المساعدة؛ على الرغم مما حدث، كنت طبيبًا أقسم على مساعدة المرضى، ولكن في لحظة معينة، قررتُ عكس ذلك؛ لم أكن جاهزًا لأنقذ شخصًا كان سببًا في سجني وتعذيبي. نعم، كنت في الوقت نفسه مسيحيًا، ومن المفترض أن أسامح، ولكن ليس إلى تلك الدرجة!

بعد عدم تلقّي الحراس أي استجابة من شارعنا الضيق، أرجعوا قاسم إلى الشارع حيث كانت سيارته متوقفة ويخرج الدخان منها. وصلت سيارة إسعاف بعد دقائق وأخذته بعيدًا. بقي الشارع مظلمًا ومشلولًا من دون حركة. وإلى اليوم لم يُكشف النقاب عمن أطفأ الأنوار!

أصابتنا الصدمة أيضًا ولم نعرف ما المقبل غير المزيد من الأخطاء والاضطراب والحيرة. هل هذه بداية شيء أكبر آتٍ لا نعرف عنه؟ عمل من كان هذا؟ ما مدى خطورة إصابات قاسم؟ إذا شفي فكيف سينتقم؟ تعاقبت كلّ هذه الأسئلة في تفكيري خلال ثوان، أما أحداث الأشهر الماضية فمرَّت أمام عينَيّ بسرعة البرق.

إستتبت الأمور في الشارع بعد مرور نصف ساعة أو أكثر، فأخرجنا المرضى من المكتب وأغلقنا الأبواب. فكرت أن أفضل شيء أفعله هو الذهاب إلى مكانٍ آمن



إلى حين اتضاح الوضع. كانت دار الدكتور هاغوب جوبانيان القريبة من العيادة هي الملجأ العملي الوحيد لحالتي. إستقبلتني السيدة جوبانيان بتفاؤلها المعتاد وعطفها الرحيم وحاولت أن تزيل مخاوفي بكلامها اللطيف.

بعد ساعة أو نحو ذلك، هدأت أعصابي وصرت قادرًا على العودة إلى البيت مشيًا على الأقدام، مخترقًا الأزقة الضيقة لمحلة رأس القرية. علمت بعد حين أنني سلكت طريق الفرار نفسه الذي سلكه المهاجمون ومن ضمنهم شاب اسمه صدّام حسين. لعله، مع زملائه، كانوا هواة مبتدئين في التخطيط للعملية وتنفيذها؛ فقد أطلقوا النار من جانبي السيارة فأصابوا بعضهم بعضًا: إذ قُتل أحدهم وأُصيب صدّام في ساقه. وحسب كلّ المعايير، كانت العملية خرقاء وغير متقنة، إذ تركت الزعيم مصابًا بجروح، وقُتل سائق سيارته مع أحد الرفاق، وجرح متآمر.

بدأت الشائعات تنتشر في البلد إلى أن وضع حزب البعث نهاية لها بتبنّيه عملية محاولة الاغتيال. كانوا قد قرروا إبعاد قاسم بعد ثورة الشوّاف وأحداث الموصل مباشرة، للانتقام من الفظائع التي دعمها قاسم، وفي الوقت نفسه إزالة العقبة الرئيسية التي تعترض طريق الوحدة مع ناصر، وإنهاء السيطرة الشيوعية.

كانت المعارضة تناقش وتبرر محاولة الاغتيال بأن قاسم هو الذي أعطى الشيوعيين حرية العمل لإحداث الخراب في البلد؛ والمسؤول عن اعتقال وتعذيب الآلاف من الناس. لهذه الأسباب وغيرها، كان إبعاده حقًا عادلًا.

قبضت الحكومة على ثمانية وسبعين بعثيًا مشتبهًا بهم لمواجهة محكمة المهداوي، ولم يكن صدّام بينهم؛ فقد نجح في الهروب إلى سوريا، ومنها إلى مصر ليكون ضيفًا عند عبد الناصر. أصبحت أولوية المحكمة محاكمة المعتقلين الجدد بينما تأجلت محاكمة رموز النظام السابق والمشتركين مع الشوّاف في ثورته لحين ظهورهم على المسرح ثانية.

بعد ساعاتٍ عدة من محاولة الاغتيال، ظهر قاسم على شاشة التلفزيون وذراعه اليسرى مضمدة. أكّد قاسم إلى «المواطنين الأحباء» بأن حالته الصحية

جيدة وطمأنهم عليه وأنه سوف لن يترك الوقت يضيع للعمل من أجل رفاههم، حتى ولو كان في المستشفى. واتّهم «الخونة» بأنهم «عملاء لأعداء العراق» ووعد باتخاذ إجراءات عاجلة ضدهم. بعد قضائه مدة قصيرة في المستشفى، خرج منها بوضع المنتصر.

لم تأتِ محاولة اغتيال قاسم في حُسن طالع البلد، لكنها كانت البادرة لأحداث عنيفة قادمة ودليلًا على عزيمة البعث وشعبيته.

أبلغتنا السلطات في اليوم التالي لمحاولة الاغتيال أن تبقى مكاتبنا مفتوحة في الليل مع الإنارة الكاملة، وأن العقيد المهداوي والعقيد ماجد أمين سيأتيان لتفقّد المنطقة وتفتيشها. كنت خائفًا جدًا، ليس لقيامي بعمل خاطئ أو جرم ارتكبته، بل لأنني كنت خرجت لتوّي من الاعتقال، وكان اسمي لا يزال على قائمتهم السوداء، ولا زلت متهمًا. فلو أجروا التحقيق بصورة دقيقة، لكشفوا أمري وأخذوني إلى الاستجواب ثانية، ولمزيد من الضرب والتعذيب.

تأخّر المحققون، فاضطررنا للانتظار. أخيرًا وصلوا! كان المرافقون يحملون رشاشاتهم موجّهين فوّهاتها نحو النوافذ العالية. نظر الجميع نحو اليسار ونحو اليمين (كأنهم يفتشون عن شيء)، ولم يسألوا أحدًا عن أي شيء، ثم غادروا بعد دقيقة أو إثنتين. أخذتُ نفسًا عميقًا كعلامة للراحة؛ بصراحة، الخوف الذي اعتراني جعلني أعطيهم أكثر مما يستحقون من التقدير. كانت المسألة برمّتها مسرحية كوميدية أُخرِجَت ونُفِّذت بشكل سيئ من الطرفين.

يظهر أن محاولة الاغتيال أثّرت على تفكير قاسم؛ فقد أعلن في كانون الثاني ١٩٦٠ عن إجازة جميع الأحزاب السياسية ما عدا الحزب الشيوعي الذي بقي رسميًا ممنوعًا من العمل. ومرّة أخرى نزل الشيوعيون إلى العمل السرّي لبناء العمل الحزبي من جديد، ولكنهم كانوا من الضعف بمكان بحيث لم يعُد بإمكانهم أن يلعبوا دورًا مؤثرًا في تمرير سياستهم. ساد السكون والهدوء البلد، على الأقل ظاهريًا، ولمدة معينة.



على الرغم من كلّ هذه الاضطرابات والتشنّجات التي عمّت البلاد، استمرت IPC في ضخ النفط. وعندما أحسَّ قاسم أنه فقد قاعدته التي كان يستند إليها، ضغط على شركات النفط لإجراء بعض التغيير لعله يسترجع جزءًا من الصدقية التي خسرها مع الشعب. إستجابت IPC وقدَّمت بعض التنازلات: تأسيس وتطبيق «برنامج التعريق» لإحلال كوادر عراقية كفؤة كبدائل للخبراء البريطانيين. لم تكن الاتفاقية دون منافع اقتصادية للـ IPC، لأن الموظفين العراقيين الذين يتمتّعون بالكفاءات نفسها التي يتمتّع بها البريطانيون، سيكلّفون الشركة أجورًا أدنى. بدا قاسم سعيدًا!

سار البرنامج على أحسن ما يرام؛ حلَّ عددٌ من المهندسين العراقيين الذين تدربوا على أيدي الأميركيين والبريطانيين محل الأجانب في الوحدات الإنتاجية للنفط. وجاء آخرون أيضًا، من ضمنهم صديقي نافع عبد الله، الذي كان نائب الملحق العسكري الجوي للعراق في واشنطن، والذي تسلّم عدة مناصب إدارية؛ إذ كان أحد خمسة أشخاص بدرجة نائب مدير عام.

بإمكاني التأكيد بأن أحدًا من هؤلاء العراقيين لم يكن منشقًا عن الدولة ولا يحمل شعورًا معارضًا لبريطانيا. بعد أن درسوا خارج العراق وعدَّلوا ثقافتهم حسب معايير الثقافة الغربية؛ كانوا يُعتبرون غير ملائمين في الثقافتين: كان البريطانيون يعتبرونهم عراقيين وغير جديرين بالثقة التامة، في الوقت نفسه، هم غربيون بالنسبة إلى العراقيين، وولاءاتهم مشكوك فيها، وخاصة الذين تزوجوا من نساء بريطانيات أو أميركيات. وعلى الرغم من كلّ هذا، فهم في نظر القانون عراقيون، وهذا ما جعلهم ملائمين لبرنامج التعريق.

مع أن هذا البرنامج غيَّر الطبيعة الإثنية للـ IPC، ولكنه لم يغيِّر من طبيعة الشركة السياسية؛ بقيت المراكز المهمة في أيدي البريطانيين. وحتى أن بعض العراقيين الذين حلّوا محل البريطانيين كانت لهم عواطف نحو بريطانيا وسياساتها أقوى من البريطانيين أنفسهم الذين جرى استبدالهم. وعلى الرغم من كلّ المعطيات بقيت بابا كركر في أيدي البريطانيين!

كنتُ عراقيًا من هذا النوع. ففي أحد الأيام، أخبرني صديقي ليفون كارمين (إستيبانيان)، الذي كان موظفًا في شركة نفط خانقين في مقرها في بغداد، أن هناك وظيفة تنتظرني في IPC في كركوك ومن دون أن يُعلمني رتَّب مع رئيسه في العمل السيد كليرك أمر توظيفي في الشركة. أنهيت معاملات التعيين مباشرة بعد إملاء الاستمارات المطلوبة. كنتُ في غاية السعادة! كأنما في ليلة وضحاها نُقلتُ من معتقل المحكومين بالإعدام إلى حياة البذخ في IPC، حيث أُتيحت لي الفرصة لأعيش أحلام طفولتي في عيش الحياة الإنكليزية المشابهة لتلك التي كان يعيشها السيد تشابمان.

كان تعييني الأولي في محطة ضخ K-2 قرب بيجي، شمالي تكريت، مسقط رأس صدّام. كانت المحطة بشكل مجمّع ضخم ومحاط بسياج، يحوي داخله محطة ضخ كبيرة، ودورًا للعمّال، ودورًا مع حدائقها مخصصة للموظفين الكبار، وملعب كرة القدم، ونادياً للعمّال وآخر لأصحاب المراتب العالية يتميّز بمظاهر الرخاء والغنى. كان هناك مستوصف لخدمة العاملين وعائلاتهم المقرّبة، ومستوصف صغير خارج السياج لخدمة أبناء العشائر القريبة. أُعطيت مسؤولية إدارة الإثنين.

كان كبار الموظفين وأفراد الطبقة العاملة ينحدرون من إثنيات مختلفة. كان مدير المحطة العقيد داوود سلمان البدر، كويتي الأصل تقاعد مؤخرًا من الخدمة في الجيش العراقي. كان المهندسان الميكانيكيان الرئيسيان المسؤولان عن تشغيل وإدامة محطة الضخ إسماعيل إبراهيم الراوي، عربي قومي ومؤيد وفي لناصر، من مدينة راوة قرب الرمادي (الأنبار حاليًا) ويوواش إبراهيم، آشوري، كان والد زوجته، سوسكي، ضابطًا في جيش الليفي، ولا تشوب ولاؤه للتاج البريطاني أي شائبة.

كان بهاء الدين والي، مدير النقليات، تركمانيًا، ونُقِل من كركوك، وواجبه الرئيسي تأمين نقل المواد اللازمة لإنشاء خط أنابيب ٣٢ إنش لشركة Turrif-Burden وذلك لنقل النفط الخام إلى بانياس على البحر الأبيض المتوسط. وكنت أنا الرجل الخامس، أرمنيًا.



لم يكن هذا النسيج الإثني المتنوّع الذي كان يشكّل عالم مصغّرًا لكركوك، عشوائيًا. فقد اعتمدته الإدارة لضمان الأمن والأمان في عمليات ضخ النفط من دون انقطاع؛ وهو قائم على الاستفادة من خدمات خمسة أشخاص، أحدهم عربي كويتي محافظ، والآخر عربي منشق، وأشوري وتركماني وأرمني بحيث تكون المؤامرة والتواطؤ في تخريب عمليات بابا كركر مستحيلة. كانت خطة ذكية، حسب اعتقادي! إستنادًا إلى البيئة السياسية لذلك اليوم، كان هذا السيناريو عقلانيًا وليس مذعورًا (Paranoiac).

كان العمل في المستوصف الخارجي محمومًا، إذ كنت أشرف على علاج عشرات المرضى من البدو في اليوم وأرسلهم إلى أهلهم بالأدوية التي كانت IPC تجهزنا بها. لم يكن هذا جديدًا؛ فقد عوَّضت IPC عن إهمال بغداد بالعناية الصحية لهؤلاء الناس الذين كانوا أبناء عم بعض العمّال من الدرجة الثالثة. ولكن الجو السياسي الآن قد غيَّر من ديناميكية العلاقة بين IPC والحكومة. فبدأت IPC تشعر بعدم حاجتها للالتزام بتوفير هذا الكرم بعيدًا من تعهداتها الرسمية؛ أي صرف الأموال الإضافية وتوفير الخدمات الصحية إلى أناس ليسوا من ضمن عائلة IPC. لهذا، قررت الشركة إنهاء الخدمات في المستوصف الذي يقع خارج سياج المحطة والتوقّف عن مد يد العون إلى العشائر. لم يُرضِ هذا الأمر عمّال الشركة.

إعتبرت نقابة العمّال هذا العمل سياسة غير عادلة؛ واتخذت موقفًا متصلبًا لإعادة الوضع إلى سابق عهده. صرّحت IPC أنها ليست الحكومة وليست في التزام قانوني أو أخلاقي لتوفير العناية الصحية لأناس غير مؤهّلين لذلك.

كان منطوق الاتفاقية العائق الرسمي للمشكلة، والتي تنص، «على IPC توفير الخدمات الصحية للمستخدم وعائلته والذين يعيلهم». كانت عبارة «الذين يعيلهم» هي نقطة سوء الفهم؛ إذ يفسِّرها المستخدم على أنها تعني العشرات من عائلته (عدا الزوجة والأطفال)، ولكن IPC تفسّرها (الزوجة والأطفال) فقط وكلّ من يعيش مع المستخدم تحت سقف واحد ومن ضمن محطة ضخ K-٢.

كان هناك جمود وإخفاق في حل المشكلة! فقد اتّخذ الطرفان المتنازعان موقفًا مغايرًا للآخر نتج عنه وضع لا يمكن تحريكه للوصول إلى حل! كان العمّال يهددون بالإضراب عن العمل، وتكون نتيجته توقّف عمليات ضخ النفط وخلق فوضى في أسواق النفط العالمية.

بصفتي المسؤول الطبي الذي يدير المستوصفين، لم يكن بإمكاني تفادي المشكلة. قادت محادثاتي الأولية مع نقابة العمّال إلى مفاوضات غير رسمية، اتخذت الصفة الرسمية بعدها.

أصبحت في نظر قادة النقابة، الذين كانوا يراجعونني كمرضى، ممثلهم الذي يتحدّث عنهم. فقد قبلوا العرض الذي قدّمته إليهم بتوفير المعاينة الطبية ولكن من دون صرف الأدوية؛ كان بمثابة مساومة وتنازل بسيط قبلته النقابة بتردّد. تجنّبت الشركة الإضراب، واستمرت عمليات ضخ النفط إلى البحر الأبيض المتوسط.

أبلغتُ ادارة الشركة بهذا الاتفاق، حيث دعاني رئيسي المباشر الدكتور وليام باين لمقابلته في اليوم التالي في كركوك. عندما دخلت مكتبه في مستشفى K-1، استقبلني بكلّ حفاوة ولم يضيّع الوقت للدخول في صلب الموضوع.

قال لي، «هنري! من أعطاك الحق لتفاوض باسم IPC؟ من خوّلك بذلك؟ من تظن نفسك، محامي الشركة؟ كيف تفعل شيئًا كهذا من دون إعلامي؟» واستمر في كلامه ليضعني في موضعي الصغير. عندما أحسَّ بأنه قال ما فيه الكفاية، أضاف قائلًا: «والآن، قل لي بنود الاتفاقية!»

عندما ذكرت له ما توصّلت إليه والأسباب المقنعة التي دعتني إلى ذلك، قال بصوت أكثر لطفًا ودماثة وتقديرًا: «هنري، لقد قمت بعمل رائع حيث فشل مفاوضونا، ولكن لا تقم بعمل كهذا في المستقبل من دون تكليف منا. عدني بأنك لن تتدخل في أمور كهذه من دون موافقتي شخصيًا!» زال غضبه مع النفس التالي، وشكرني على إنهاء النزاع، وعلى تجنّب نكبة كبرى.



لست متأكدًا إن كانت تلك مكافأة لي على عملي في إنهاء النزاع، ولكنه رتَّب لي في تلك اللحظة زمالة دراسية لإكمال دراستي الطبية في إدنبره. حدث غيَّر مسيرة حياتي.

الفصل الخامس والعشرون

# مزيدٌ من الفوضى

ربيع ١٩٦٣، رجعت لتوي من إدنبره ونقلتُ إلى مستشفى K-1 الذي كان المستشفى الرئيس لمواقع الشركة كافة، ومن ضمنها سوريا ولبنان.

رحل قاسم بانقلاب بعثي، وأُعدم مع أزلامه، من ضمنهم المهداوي، في حضور رفاقه القدماء ونُقِل الإعدام مباشرةً على التلفزيون. كان طلبه الأخير أن تبقى عيناه من دون غطاء لأنه أراد أن «يرى الرصاصة تأتي نحوه.» أما ابن عمته المهداوي، فقد لوّث سرواله من الخوف، وهو يرجو ألا يقتلوه ويلوم قاسم عن كلّ أفعاله السيئة.

مع رحيل قاسم والشيوعيين عمّت كركوك مظاهر الهدوء، ولكن ليست إلى درجة عالية! كان البعث في الحكم والقتال بين البارزانيين والحكومة البعثية على أشده. كانت أعداد القتلى والجرحى من الجيش عالية، وكذلك من جانب العشائر الكردية، والذين يدعون بالجحوش وانحازوا إلى جانب الحكومة ضد البارزانيين.

أُصيب أحد الآغوات الأكراد الموالين للحكومة بإصابات بليغة وأُدخل مستشفى K-1 في كركوك من قبل الجيش. كانت هذه حالة استثنائية، وقامت بخدمته ممرضتان إنكليزيتان كفوءتان، الآنسة هولبرووك والآنسة جونسون. جاء في عصر أحد الأيام قائد الفرقة الثانية مع خمسة من مرافقيه المسلحين، ومن دون إشعار مسبق، ودخلوا إلى غرفة الآغا، في الوقت الذي كانت الممرضتان تعتنيان به. دخل القائد الغرفة من دون أن يطرق الباب ليستحصل على الإذن بالدخول. لم تسمح

المرضتان المنضبطتان في عملهما للقائد بالدخول، وأمرتاه بغضب أن يخرج من الغرفة. عرَّف القائد بنفسه، فأصرّتا على خروجه لأن الوقت لم يكن وقت زيارة وأن المريض عارٍ من ملابسه لأنهما تضمدان جروحه.

أحسّ القائد بأنه قد أُهين إهانة بالغة من «هاتين الإمرأتين». خرج لتوه من المستشفى والغضب يملؤه وذهب إلى مقر قيادته. وسرعان ما دخل مكتبه وأصدر أوامره بترحيل الممرضتين خارج العراق، وأن تحزما حقائبهما خلال أربع وعشرين ساعة، ولا تعودان إليه ثانية.

كان رئيسي في العمل، الدكتور باين، قلقًا جدًا مما حصل، لأن غيابهما سيعني نقصًا حادًا في عدد الممرضات، إضافة إلى توجيه ضربة إلى كبرياء وهيبة IPC. حاول مدير عام الشركة ومعاونوه التدخل لحسم القضية ولكن من دون جدوى؛ فقد رفض القائد مقابلتهم. حتى نافع عبد الله رفض القائد مقابلته، بل رفض حتى أن يسمح له الدخول في المفاوضة والتوسّط.

طلبت من الدكتور باين أن يأذن لي كي أجرب حظي مع القائد، كنت أديت له خدمة سابقة مرة أو مرتين في معالجة ابنته وزوجته اللتين لم يكن مسموحًا لهما دخول مستشفى الشركة. إتصل الدكتور باين بالإدارة وحصل على موافقة المسؤولين في الشركة، وتمنّى لي النجاح. كنت الآن وسيطًا مؤهلًا التفاوض.

كان الوقت ظهرًا عندما وصلت إلى مقر الفرقة وطلبت الإذن لمقابلة القائد. في أقل من دقيقة خرج القائد بنفسه لمقابلتي ومرحّبا بي في مكتبه. كان عددٌ من الضيوف في غرفته الواسعة. قدَّمني إليهم بصفتي الطبيب الذي يعالج أفراد عائلته، ظننت هذا الترحيب علامة جيدة في نجاح مهمتي. قدَّموا لي الشاي والسجائر، وهي عادة عربية في إكرام الضيف.

بعدما أنهى حديثه مع الآخرين، قال لي بأنه يعرف سبب زيارتي، وإنه يحترمني ولكن لا يتراجع عن قراره. لم أنطق بكلمة! ثم أكمل حديثه مع استعمال ألفاظ شنيعة، «من تظن هاتان العاهرتان الإنكليزيتان نفسيهما بحيث تتحدانني وتطردانني



من المستشفى؟ سأريهما من أكون! لن أقبل بأي تأخير لمغادرتهما؛ لديهما أقل من أربع وعشرين ساعة لمغادرة البلاد». إستمر في صبّ جام غضبه، وبدوري فسحت له المجال للتنفيس عما في داخله. لم أنطق بأي كلمة واستمريت في شرب الشاي، وهي دلالة على احترام الصداقة في التقاليد العربية.

بعد مرور عشر دقائق وهو يتحدّث، أمر بتقديم المزيد من الشاي لي. عرفت بأنني على الطريق السليم! عندما أنهى كلامه بتنهد، قلتُ: «أنا على اتفاق تام بكلّ ما قلت، سيدي. أنا أيضًا بدوري أطالب أن تدفع هاتان البنتان ثمن تصرفهما الأهوج، من تظنّان نفسيهما بحيث تهينان قائدًا في الجيش العراقي؟ إذا ظنتا أنهم لا زالوا أسيادنا، فهما مخطئتان! فقد حررتنا ثورتنا من هذا النوع من الاستعباد. ما يهمني هنا هو الأذى الذي سيلحق بالعراق نتيجة تسفيرهما؛ ستنزلان في مطار هيثرو وتقيمان مباشرة مؤتمرًا صحفيًا لتلويث سمعتك وسمعة الحكومة العراقية. لا نستطيع قبول الدعاية السيئة في هذا المجال، وإن لم نتمكن من التصرّف بحكمة في حلّ هذه المشكلة، فلن نحصل غير السوء. ماذا سيحصل لهاتين الفتاتين؟ لا شيء! ستجدان الوظيفة الملائمة في بلديهما حال وصولهما! وسننهزم نحن! ورأيي هو هذا: ما فعلتاه تجاه حضرتك سوف لن يُنقص من كرامتك. تعرفك الناس وتحترمك، على الرغم من كلّ شيء. عليك أن تضحّي من كبريائك قليلًا لأجل مصلحة بلدك. أنا أقترح عليك أن تسمح للفتاتين بالخروج من البلاد مدة أسبوعين كأنهما في إجازة، وترجعان إلى وظيفتيهما لمساعدة عمّال النفط العراقيين المساكين. ستحافظ على ماء الوجه! سيعرف الناس أنك كنت صلبًا في موقفك، وتمّ التقيُّد بأوامرك، وستحفظ الشركة ماء وجهها لأن الفتاتين ستذهبان إلى الخارج لقضاء إجازة لهما».

إستمع إلي بكلّ تأنٍ، ورأيت علامة الراحة بادية على وجهه. كنت أعرف أن جوابه سيكون بالإيجاب، وكان كذلك! أُغلقت القضية! كان الحل جيدًا للجميع!

كانت سنة ١٩٦٠ سنة حاسمة للعراق وللعالم. تحت رعاية قاسم وبجهود عبد الرحمن البزّاز (جاري في غرفة الاعتقال المجاورة # ١٠ في معسكر الرشيد)، وبيريز ألفونسو من فنزويلا، وعبد الله الطريقي من السعودية، عُقد اجتماعٌ

في بغداد من ١٠-١٤ أيلول، فولدت من رحمه منظّمة الدول المصدرة للنفط (أوبك)، Organization of the Petroleum Exporting Countries (OPEC). كانت الدول المؤسّسة هي العراق وإيران والمملكة العربية السعودية والكويت وفنزويلا. من المرجّح أن تكون فكرة إنشاء المنظمة سعودية؛ وبغض النظر عن كون الاجتماع الأول في بغداد، احتُسب نصرًا لقاسم، فقد انتصر في معركة أخرى في الصراع على بابا كركر!

أصبح من الواضح أن إنشاء منظمة أوبك أضعف قبضة بريطانيا على صناعة النفط في العراق، وظهر قاسم في هيئة البطل الوطني الذي يضع رفاهية العراق في مرتبة عالية، بدلًا من مطاردة حُلم الوحدة العربية وتسليم بابا كركر إلى ناصر.

أصبحت لمعارضيه مشاعر مختلطة حول هذه المنظّمة الجديدة، لأنها ربطت مصير نفط العراق بستة دول أخرى، وجذبته من قبضة ناصر؛ ولأن قاسم سيستخدم هذا الإنجاز الكبير كرأسمال لمصلحته في الصراع القائم في ميدان الرأي العام. كانت وجهة نظر المعارضين أن فكرة إنشاء أوبك جيدة جدًا ولكن بعد وحدة الدول العربية المنتجة للنفط تحت قيادة ناصر.

إضافة إلى هذا كلّه، اتهم الوحدويون قاسم بتناقض الموقف. فمع مساعيه في تخليص العراق من النفوذ البريطاني، كان يقدّم الاتحاد السوفياتي كحليف جديد في معادلة السيطرة على صناعة النفط العراقي. وبالنسبة إليهم، كان السوفيات سيئين وأشرارًا مثل الغرب الإمبريالي، إنْ لم يكونوا أسوأ.

كانت حالة منظمة أوبك واضحة. فمنذ إنشائها، ومنذ بدايتها، أضحت قوّة منافسة لها اعتبارها، ولم يتمكّن العراق والدول الأعضاء فيها من التنبؤ بتأثير هذه المنظّمة على أحداث العالم. كانت النية من وراء إنشاء أوبك حماية مصالح الدول المنتجة للنفط، لا غير. لم يعرفوا، ولم يتخيّلوا الدور الذي ستلعبه منظّمتهم في قضايا الحرب والسلم العالميين.

بعد تشكيل أوبك، هزّت حادثة أخرى صناعة النفط: في حركة جريئة سنة ١٩٦١، أعدَّ قاسم ومرّرَ «القانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٦١،» الذي منع IPC-Iraq



Petroleum Co. و MPC-Mosul Petroleum Co. وكذلك BPC-Basra Petroleum Co. من حفر آبار لاستكشاف النفط خارج المساحات المؤجّرة لهم، إذ أُلغي العقد القديم الذي كان يسمح للشركات النفطية البريطانية بحفر الآبار أينما كان في العراق.

بطبيعة الحال، كان القانون الجديد في غير مصلحة البريطانيين، ولكن الإجراءات الجديدة ضمنت استمرارية الإنتاج من دون انقطاع من آبار النفط الموجودة. خرج قاسم فائزًا بلا منازع بهذه المعركة حول بابا كركر.

هلّل السوفيات وبابتهاج كبير ليس لأنهم كسبوا شيئًا، بل لأن قرارات قاسم آذت الغرب ومسّت هيبته وحرمته من مكاسب نفطية في العراق.

تلقّى عبد الناصر الأخبار بعواطف مختلطة؛ كان سعيدًا من تقليم أجنحة بريطانيا، وخائبًا، لأنه لم يجنِ شيئًا. فقد تبخّر طموحه في السيطرة على بابا كركر باسم الوحدة العربية. كان وضعًا خاسرًا للطرفَين معًا.

لم تتغير الأمور كثيرًا في ـ IPC رغم صدور القانون رقم ٨٠. لم يتراجع الإنتاج، ولكن الشركة كانت خائفة من قرارات مستقبلية أكثر صرامة. وبعد عقدٍ من الزمن حصل ما كان متوقّعًا. فبشطبة قلم، تمّ تأميم الشركة، بعد حوالى خمسين سنة من استخراج النفط في طوز خورماتو، وخوض معارك مصيرية من أجله. أصبح العراق أخيرًا المالك الوحيد لنفطه في بابا كركر، ولكن ليس من الضرورة لمصيره. هل فاز العراق حقًا في معركته من أجل بابا كركر؟ هل خسر الغرب؟ لم ينتهِ الفصل الثالث من هذه القصة الملحمية بعد؛ فالكفاح من أجل حسم الحرب في صراع بابا كركر كان سيأخذ شكلًا آخر وفي زمن آخر، وهذا ما حصل!

ثلاثة أحداث رئيسة هزّت العالم في عام ١٩٦٣:

كان الحدث في الولايات المتحدة كارثيًا: إغتيل الرئيس كينيدي، وأميركا كانت تغرق في المستنقع الفييتنامي، وكلّفت الحرب أرواح الكثير من الأميركيين. شعرت بالأسف للحدثَين.

وثلاثة أحداثٍ رئيسية هزّت العراق، أحدهما كان شخصيًا. في ٨ شباط وقع انقلاب عسكري أطاح بحكم قاسم وأُعدم أمام كاميرات التلفزيون التي نقلت عملية الإعدام مباشرة مع ابن عمته، المهداوي والمدعي العام ماجد أمين، مهرّجَي «محكمة الشعب».

نقلت التقارير أن قاسم طلب من عارف أن يحفظ حياته كما فعل هو سابقًا معه، ورفض عارف الطلب مبررًا رفضه بأن الحكم الصادر كان جماعيًا من قبل المجلس الثوري، وأنه يعفو عنه بصفته الشخصية، وغسل يديه من دمه. لا بد أنه كان يعاني من تناقض داخلي رهيب في مشاعره: صراع بين العواطف والمنطق. ولكونه شخصًا عاطفيًا وذا أحاسيس، لم يكن بإمكانه أن يصوِّت على قرار التخلّص من رفيق سلاحه، و«أخ»، ورجل حافظ على حياته ولم يعدمه. في المقابل، لم يكن بإمكانه أن يصوِّت ضد إجماع قادة الانقلاب في التخلّص من قاسم، رفيقهم الذي خدع المفاهيم الرئيسية للثورة العراقية وأهدافها، الخائن للضباط الأحرار، العائق أمام تحقيق الوحدة العربية، حليف الشيوعيين الذين دمَّروا العراق الذي يحبونه.

بالرغم من كلّ هذا لم يكن أمام عارف غير أن يضمّ صوته إلى أصوات رفاقه؛ فقد طلب منهم أن يكون آخر من يدلي بصوته، وكان ما أراد! إتّبع موقف الأكثرية، ولكنه خفَّف ذنبه: كونه آخر من يصوِّت على حكم الإعدام، لم يحمل صوته أي وزن مؤثّر؛ كان عليهم أن يعدموا الرجل في سبيل العراق. كان بإمكان عارف أن يسلك الطريق النبيل ويصوِّت لإنقاذ حياة «أخيه؛» لكنه لم يفعل! لم يملك صفة الالتزام المشرّف الكريم.

عندما سمعتُ بهذه الأحداث، تذكرت «زميلي» عدنان عزّاوي، الشيوعي الذي «غسل يديه» من قضيتي مستعملًا التبرير نفسه في عملية تعذيبي عام ١٩٥٩. فكّرت أن الأمر لا يختلف في من يقوم بالتعذيب، أكان شيوعيًا أم بعثيًا؛ فهو نوع خاص من شبه البشر ليجعل من الشخص متطرّفًا ومجرمًا ووغدًا.



تمّ تلبية طلب قاسم الأخير قبل تنفيذ حكم الإعدام: عدم تغطية عينيه. لا بد أنه رأى الرصاصة التي أصابته في جبينه، كوسام شرف. شخصيًا اعتقدت أن طلب مواجهة الرصاص يتطلّب شجاعة، ويبيِّن شخصية الرجل. وهكذا، بعد إعدامه، طويت صفحةٌ من مسرحية العراق لتفتح صفحة جديدة من فصل مساوٍ في الفساد.

وقع البلد الآن في أيدي البعثيين، وارتقى عبد السلام عارف موقع رئاسة الجمهورية. وكما أسّس الشيوعيون المقاومة الشعبية، أسّس البعثيون الحرس القومي. وتسلّح هؤلاء بدورهم بالأسلحة الرشاشة لترهيب الشعب والسيطرة على البلد وإخضاعه لهم. ومثلهم مثل الشيوعيين كوَّنوا دكتاتورية الحزب الواحد. وهم بدورهم آمنوا وطبّقوا مبدأ الشيوعيين «الدفاع عن الجمهورية ضد الأعداء، من الخارج والداخل،» أي الشيوعيين وكلّ من يعارض البعث.

لم يتغيّر أي شيء بالنسبة إلى العراقي العادي -أصبح الحرس القومي الوجه الآخر لقطعة النقد القذرة- إرتكب البعثيون، في سبيل الانتقام، الجرائم نفسها، من قتل واعتقال وترهيب، كما فعل الشيوعيون في كركوك. لم تضيِّع حكومتهم الوقت في إعدام صفوفٍ من الشيوعيين، وأغلبهم من الأكراد، الذين ارتكبوا الجرائم ضد التركمان في كركوك والذين لم ينفِّذ قاسم الأحكام الصادرة بحقهم.

كان أحد الذين تمّ شنقهم زميلي الكردي في الصف السادس الابتدائي. عندما رأيت جسده الصغير يتأرجّح على المشنقة، تجمّد الدم في عروقي، ولم أصدِّق أن ذاك زميلي في الدراسة، الفتى الخجول والمرح واللطيف المعشر بملابسه الرثة، جسده معلّق من حبل المشنقة، ويداه وقدماه مربوطتان، ورأسه منحني نحو اليمين، ولسانه بارز نحو الخارج، كما كان يفعل في الصف للتركيز على الدرس.

كرهت الموت، ولا زلت أكرهه، وكرهت أكثر الموت بعنف. أعتقد أن بعض الناس ولدوا تحت نجوم سيئة الحظ؛ كان حسين واحدًا منهم. فقد ولد وفرص النجاح مكدَّسة ضده: كانت عائلته فقيرة الحال جدًا، وولد كرديًا في قومية مضطهدة. لا بدّ أنه أحس بالانغلاق التام. لم تكن لديه أي فرصة في الحياة. حتى

لو حاز على تلك الفرصة، فالمجتمع الذي كان سيعمل فيه سيحاربه بعنف وبأكثر من قدرة احتماله، وينكر عليه الفرص الملائمة. لا عجب أنه صار شيوعيًا! «دينٌ» وعده بعدالة اجتماعية ومساواة ورفاهية في العيش، وأعطاه التبرير المنطقي في كره الأثرياء؛ هؤلاء «الأوغاد الرأسماليون الذين استغلّوا البشر ومصّوا دماءه» كما كان سيقول.

على خلاف الأديان والعقائد، كانت الشيوعية هنا والآن، على الأرض، وليست في السماء الأزلية. كان هذا «دين» إشباع واستمتاع، يستحق التضحية من أجله! ومن دون شك، أوقع الشيوعيون حسين في شباكهم، وأقنعوه كالآخرين، أنه بسقوط النظام القديم، سيعيش حياة رفاهية، ولأجل إسقاط النظام القديم عليه أن يقتل، نعم، قتل، والآن يتأرجح جسده النحيل من حبل المشنقة.

نفّذت الحكومة الإعدام شنقًا بسبعة وعشرين شخصًا في ثلاثة أماكن مختلفة أمام الناس ليكونوا عبرة للآخرين، وفي الوقت نفسه لتكسب قلوب التركمان الساعين إلى العدالة. بقيت الجثث معلّقة إلى أطول مدة ممكنة لإفساح المجال أمام الجميع لمشاهدتها قبل تسليمها إلى الأهل والأقارب. كانت نية الحكومة من خلال إبقاء الجثث علنًا على المشانق عرض قوّتها وإظهار نيتها في سحق أي معارضة.

كنت شاهدًا على هذه المشاهد وتملأ أحاسيسي الأسى والأسف والاشمئزاز والخوف والشك من المستقبل. أحسست فجأة أن الوقت ليل وحلّ الظلام في منتصف نهار حار ومشمس يتخلله الضباب البارد البعيد عن الاحتمال. تذكّرت نفسي في غرفة المحكومين عليهم بالإعدام في المعتقل وحيدًا مع أصدقائي الصراصير والفئران الذين يتراكضون في الغرفة سعداء. شممتُ لحظتها رائحة الأدرار والبراز النتنة والعفنة.

لا بد أن حسينًا كان في غرفة المحكومين بالإعدام. متأكّد أنه كان في غرفتي بالذات! نعم، كان هناك! شعوري الداخلي يقول لي أنه كان هناك؛ فقد تقاسمنا صف المدرسة، لماذا لا نتقاسم غرفة الاعتقال نفسها؟ ولكنه لن يعرف بأنني كنت



هناك قبله. هل تم اعتقال حسين في غرفتي في المعتقل؟ هل كتب وصيته الأخيرة على الجدار بالبراز؟

تفكير سخيف؛ ما الفرق إنْ كان في غرفة الاعتقال نفسها أو في الغرفة المجاورة؟ فهو ميت الآن، وجسده يتدلّى ويتأرجّح من حبل المشنقة، وأنا حي أحاول التفاوض مع حبال الحياة. فقد رأيتُ وتمرّست بما فيه الكفاية. طلبتُ من سائق سيارتي التركماني السعيد أن يُرجعني إلى مستشفى K-١ حيث أعمل.

ظلّ صالح، سائقي، يتحدّث ويتحدّث عن العدالة والانتقام والأكراد والشيوعيين، ولكنني لم أستوعب كلمة واحدة مما قاله. كنت متخمًا بما رأيته واختبرته لتوي؛ كنت أضع شيئًا جنب الآخر في ومضات خاطفة، مع مشاهد مختلفة من حياتي في بريطانيا التي استمتعت بها مؤخرًا.

ففي لحظةٍ واحدة سافرت إلى لندن ألف مرّة، كما تراءى لي. والسؤال الذي كان يشغل بالي هو ما يخص مستقبلي في هذا البلد. كنت متأكّدًا أن حياة الرفاهية التي وفّرتها IPC لي لن تدوم طويلًا. ولكن السؤال الأهم هو إن كنت مستعدًا لمواجهة المجهول في المستقبل، في بريطانيا!

في الوقت الذي وصلنا المستشفى، وصلت إلى حيث أريد في تفكيري. إستنتجت بأنني لست في خطر ما دام رفاقي في السجن وصلوا إلى مراكز القوى في البلد؛ وكانوا في مراكز وزارية وإدارية مهمة. كانوا قد عرضوا عليَّ ونحن في الاعتقال، في حال وصولهم إلى الحكم، أن أختار أي مركز في الدولة أرغب به، ما عدا الوزارة. كان الأمر مضحكًا في حينه: إذ لم أصدّق، أولًا، أنهم سيصلون إلى الحكم أبدًا؛ وثانيًا، أي كلام من هذا النوع هو حديث سجن ينشأ تحت ظروف الكآبة الناتجة عن آلية دفاع نفسية.

الآن، وصلوا جميعًا إلى الحكم، ولكنني لن أنضمّ إليهم في مسيرتهم نحو الهاوية، والتي كنت متأكدًا منها! لقد رأيتُ ضعفهم وتصريحاتهم غير الوطنية في السجن، وتساءلت عن مقدرتهم في الحكم. هؤلاء الناس جميعًا عندما كانوا في السجن

أظهروا شخصياتهم الضعيفة: بكوا، واستنكروا وشجبوا بلدهم وتمنّوا لو كانوا في مقاهي بيكاديللي وسوهو، أما الآن فيديرون دفة قيادة سفينة الدولة ويتّجهون بها نحو الكارثة. بالرغم من كلّ هذا، لم أكن في موضع خطر مباشر. ولكن، ماذا عن المستقبل؟ ما الذي يضمن سلامتي؟ ما الذي يضمن استقرار هذا البلد؟ ما هو الوضع المجهول للعراق مقارنة بالغرب؟ هذه الأسئلة وغيرها شغلت تفكيري.

وصلت هذه المداولات إلى نهاية حاسمة مع حلول مأساة عائلية: في نقطة تفتيش للحرس القومي، أصابت الطلقة نارية وبطريقة غير متعمدة أخي نوريك، ذي الثلاث وعشرين سنة متسببة بإصابة بالغة. وكان ضابط المخفر في نقطة التفتيش صديقه الذي تسبّب بالحادثة. توفاه الله بين ذراعي في مستشفى الرشيد العسكري حيث كان مركز اعتقالي.

دمَّرتني الحادثة، وكذلك عائلتي. بكى أصدقاؤه والمجتمع بأكمله عندما وريَ الثرى في جنازة عسكرية. حضر المسلمون في حيِّنا، مع الأرمن، لمواساتنا بالمصاب الأليم، وقرأوا سورة الفاتحة على روحه. خلال كلّ ما مرّ، كان عليَّ ان أُظهر رباطة الجأش والقوّة لوالديَّ الكبيرين في العمر. لم أبكِ؛ ويا ليتني بكيت؛ لعلني كنت أصل إلى نهاية مأساتي، إذ لم أصل أبدًا. ولا زلتُ أبكي!

لم أحفظ اسم الرجل الذي أطلق النار على نوريك، وتحقيقًا لرغبة أخي لم نقم دعوى ضده. لم نتلقَ أي اعتذار منه أو من عائلته، ولم يُظهر أي ندم. بعد عقدٍ من الزمن أو أكثر، سمعت أنه قُتل في الحرب العراقية-الإيرانية.

هكذا كانت حياتنا في العراق، وحياة الآلاف مثلنا، تحت حكم قاسم والبعث بعد نهاية النظام الملكي عام ١٩٥٨!



## الفصل السادس والعشرون

# «قَدَرُك مكتوب منذ لحظة ولادتك»

(مثل عربي)

غيَّر موت نوريك نظرتنا للحياة. خيَّم الحزن على بيتنا ولم يتركنا الأسى والكآبة لمدة طويلة. أصبحنا ندرك بشدة هشاشة الحياة البشرية. تكلّمنا كثيرًا في الحياة وتفلسفنا إلى أن أصبح الموت بالنسبة إلينا مقياس الحياة.

في أحد الأيام وأنا أزور قبره، وصلت إلى نتيجة أتعبني التفكير فيها: أنا راحل! العيش في العراق ليس لي ولا لأطفالي بعد الآن. صحيح، إني سأترك نوريك وأرحل، لأنه لم يعد ذلك الشخص الذي أتمكّن من أخذه في أحضاني، ولن أتمكن من تقبيله والتحدّث إليه، فهو ليس إلّا روح ثمينة وغالية أستطيع أن أحمله معي أينما ذهبت! في تلك اللحظة أحسستُ أن روح نوريك أصبحت جزءًا من روحي. أصبح معي الآن. إستنتجت أن بإمكاني الرحيل أينما شئت من دون النظر إلى الخلف.

بدأت في اليوم التالي العمل المضني للحصول على جواز سفر. كان عليَّ أن أستحصل على موافقة وزارة الصحة للسفر إلى الخارج، مع إيداع ألف دينار (ما يعادل ٤٠٠٠ دولار) كفالة لرجوعي إلى العراق، وبعدها أبدأ في معاملات التقديم للحصول على جواز السفر. دفعت المبلغ المطلوب واستحصلت على موافقة السفر. وبعد عدة أسابيع حصلت على موافقة مديرية الأمن للحصول على جواز السفر. كنت جاهزًا لأودّع العراق وأرحل إلى الغرب؛ كنت في طريقي إلى حياةٍ جديدة مليئة بالآمال والأوهام والنجاحات وخيبات الأمل، مع واقع جديد في الانتظار. كنت

أنتظر بشغف عملية تحوّلي من شخص مضطهد إلى مواطن حرّ في دولة ديمقراطية. «إعلان حقوق الإنسان» كان مغريّاه!

أصاب موضوع سفري إلى الخارج عائلتي في الصميم. لم يصدّق أبي أذنيه عندما أخبرته بقرار السفر. قال لي والدموع تملأ عينيه، «فقدتُ ابنًا، والآن أفقد الثاني، هذا ليس عدلًا». نظرتُ إلى وجهه: ظهرت التجاعيد أكثر عمقًا وعيناه الخضراوان- الزرقاوان أكثر عتمة، كما لو أن الدموع غسلت لون عينيه، وكبر في العمر أكثر من الليلة السابقة. أشعل لفافة تبغ. قلت، «أبي، أنت فقدتَ ابنًا ولا تريد أن تدفن ابنًا آخر؛ من الأفضل أن أكون بعيدًا في أمان، على أن تزور قبرًا آخر؛ سوف تأتي لتراني!» فهم قصدي ولكنه لم يتمكّن من تقبّله؛ فهذه مأساة أخرى له «مكتوبة» له تحديدًا من قِبل الله في اليوم الذي وِلد فيه. كانت تلك، ولا تزال، أسطورة شرقية، «قَدَرُك مكتوبٌ منذ لحظة ولادتك».

إستمرت والدتي وأخواتي بالبكاء ولم تتمكنَّ من الكلام. كانت زوجتي حزينة، ولكن مليئة بالأمل، لأنها والأطفال كانوا سينضمّون إليّ بعد بضعة أشهر، وهذا ما حصل!

كانت تلك المرة الأخيرة التي رأيت فيها أبي الذي مات بعد تسع سنوات وهو متلهّف لرؤية ولديه. خرج جميع أفراد العائلة من العراق، تاركين قبور جدتي وأبي ونوريك خلفهم.

بالرغم من كلّ هذه المآسي، كنت سعيدًا لتركي العراق. تحققت توقعاتي لمستقبل العراق. أنا متأكد من أني لو بقيت في العراق لذهب أحد أولادي على الأقل ضحية لحرب الخليج الأولى أو الثانية، وأما أنا، لكنت تأرجحت من حبل المشنقة، لسبب تافه مثل صديقي حسين؛ ولكانت أصبحت كلّ هذه الأمور من ضمن المعارك من أجل بابا كركر.



## الفصل السابع والعشرون

# حديث عام

تركت كركوك إلى لندن عام ١٩٦٤، ولكن لم أتركها روحيًا. أصبحت كركوك روحًا ونفسًا مثل نوريك، حملتها معي إلى أميركا، ومع مرور الزمن، ومثل نيران بابا كركر، أصبحتْ أزلية.

إخترتُ الرحيل إلى أميركا لأنني أردتُ أن أكون مواطنًا، وليس تابعًا. فالشيء الذي كان يجذب انتباهي أكثر من أي شيء آخر فيها لم يكن الحداثة والعصرنة، ولا حتى الفرص المتوفرة للجميع، بل «إعلان حقوق الإنسان» الذي حرَّر الأميركيين، وجعلهم ما كانوا عليه: محترمون وحُماة الأخلاق والفضائل.

منذ ولادتها كسبت أميركا، ليس فقط احترام العالم، بل حبّه أيضًا؛ فقد أوجدت رأسمال كبير من النية الصادقة مع شعوب العالم أجمع. ولكن أصابت عوامل التعرية ذلك الرأسمال بسبب قصر نظرنا، ومغامراتنا وسوء الإدارة التي تبنَّيناها، وسخافاتنا مع التصرّف غير الاحترافي في السياسة الخارجية، وجزء من كلّ هذا بسبب المعارك القذرة من أجل الكثير من شاكلة بابا كركر في الشرق الأوسط، والتي خضناها في العقدَين الأخيرين. نحن لسنا محترمين، خاصة، بسبب الازدواجية في تطبيق سياساتنا الخارجية، ولعدم احترامنا للمعايير الأخلاقية التي وضعناها بأنفسنا.

عندما غزا صدّام الكويت، أعلنّا الحرب عليه تحت الذريعة الكاذبة لتحرير الكويت وإعادة تثبيت الديمقراطية في تلك المشيخة، ديمقراطية لم تملكها الكويت أبدًا. ولكن الحرب كانت منصفة! وقد عرف العالم أننا أعلنّا الحرب من أجل النفط،

وليس من أجل الديمقراطية. عرف العالم أيضًا أن حجّتنا كانت كاذبة، ومع هذا أصرّينا على تلك الكذبة آملين أن يغيّر العالم رأيه. لماذا لم تتمكّن الإدارة الأميركية من إخبار الشعب الأميركي بحقيقة أننا نذهب إلى الحرب لحماية المصالح الأميركية في تلك المنطقة، من أجل توفير الوقود لسيارتك، ولتدفئة منزلك، والطاقة لتشغيل مصانعك لأجل حماية وتأمين عملك؟ نعم، لكانت تلك هي الحقيقة المرجوة، ولما ضحكنا على المواطن وأهنّا عقليته.

مهما كانت مسوغات صدّام وتبريراته، تبقى الحقيقة أن هدفه كان السيطرة على حقول النفط في الخليج. طالبت الحكومات العراقية السابقة بالكويت، بدءًا من الملك فيصل الأول في بدايات سنة ١٩٢٠، ثم الزعيم عبد الكريم قاسم عام ١٩٦١ لأنها جزء من العراق، وهذه حقيقة تاريخية، ولكنها فشلت كلّها؛ حتى أن عبد الكريم قاسم حشد الجيش العراقي للغزو. ولولا تهديد بريطانيا، لهاجم! ولكن، عندما طالب الملك فيصل الأول بالكويت، لم يكن النفط بالحسبان؛ كانت الكويت مشيخة صحراوية تنتج اللآلئ، وليس النفط.

بعد حرب عاصفة الصحراء طلب الرئيس بوش (٤١) من الشيعة أن يثوروا ضد صدّام، ولكنه فشل في مساندتهم عندما ثاروا؛ وحتى لم نحاول أن نساعدهم، وكانت النتيجة مقتل مئات الآلاف دفنوا في مقابر جماعية، والتي ندعوها الآن أعمالًا وحشية ارتكبها صدّام.

واجه الأكراد المصير نفسه في الشمال؛ وكان هذا استعادة للفشل الأميركي في «خليج الخنازير!» بالإضافة إلى كلّ هذه، حظّرنا طيران الطائرات ذات الأجنحة الثابتة وسمحنا بطيران الطائرات السمتية المقاتلة. إستخدم صدّام هذا القرار، الذي أعطاه الحصانة، في قصف المناطق الكردية من دون رحمة. خسر الأكراد قتلاهم، وخسرنا ماء الوجه وثقتهم واحترامهم؛ ثم احتجنا أكثر من عقدٍ من الزمن لاسترجاع ما خسرناه.



عند صياغة قرار الأمم المتحدة لتحرير الكويت، كانت الأدارة الأميركية، التي تسيطر على مجلس الأمن، قاصرة النظر في صياغة القرار الذي لم يتضمّن الإطاحة بصدّام، إذ كان العُذر، «...لأصبحنا قوّة محتلّة تدير أمور العراق، ولعلنا لم نعثر على صدّام» (بوش ٤١). أثبت ابنه بعد عقدٍ من الزمن صحة كلامه؛ ذهبنا إلى العراق ونحن غير جاهزين إطلاقًا، غافلين كلّيًا عن خواصه الإثنية والسكانية والوقائع السياسية في البلد، ثم أخطأنا في إدارة العراق بعد معارك الغزو. هناك خمسة أخطاء ارتكبناها وقادتنا إلى الفوضى:

(١) لم نعمل على تأمين الحدود.

(٢) لم نعمل على تأمين مستودعات العتاد العراقية.

(٣) بدلًا من تطهير الجيش من الضباط ذوي الرتب العالية، ألغينا الجيش بأكمله في عملية غير ناجحة، فأوجدنا نصف مليون جندي من دون عمل مع مليونين من أتباعهم وعائلاتهم الذين ظلّوا من دون أي دخل. كرهونا وصاروا أعداءنا.

(٤) سمحنا للغوغائيين بالسطو على المحلات التجارية ودوائر الدولة والمتاحف؛ فسحنا المجال لتدمير الممتلكات وحرق السيارات، وتدمير ما وقع تحت أيديهم، ما عدا بناية وزارة النفط، التي كانت تحت حمايتنا.

حدثت كلّ هذه الأمور وأكثر أمام نظر جيشنا الذي وقف متفرجًا من دون أن يحرّك إصبعًا لمنع وقوع الكارثة، وكان تبريرهم أنهم ليسوا من الشرطة، وحماية الممتلكات ليست واجبهم.

حدثت هذه السلبيات ونحن وقفنا مصعوقين ونسأل أنفسنا، «لماذا لم يستقبلنا العراقيون بباقات الورود والزهور كما فعل الفرنسيون بعد تحرير بلدهم أثناء الحرب العالمية الثانية؟» لا يخفى الأمر، وهي حقيقة قائمة، أن العراقيين كانوا جاهزين لعمل الشيء نفسه لو عرفنا كيف ندير أمور بلدهم.

لم يثق العراقيون بنا لأننا كنا غير كفؤين ولم نتمكّن من إعادة خدمات البنى التحتية الأساسية، مثل الكهرباء والماء. وبعد أشهرٍ عدة من احتلالنا العراق، وحتى بعد مرور ثلاث سنوات، لا زالت الدولة تقنِّن الماء والكهرباء بدلًا من توفيرهما. لا يستطيع الفرد العراقي أن يصدِّق أن عملاق التكنولوجيا، أميركا، غير كفؤ إلى درجة لا يتمكّن فيها من إصلاح ما دمّره. فهم يصدّقون أن أميركا، القادرة على كلّ شيء، فشلت في تحسين نوعية حياتهم، ويعتقد البعض أن أميركا فعلت ذلك عمدًا وعن قصد. والآن، يحنّ الكثير من العراقيين إلى أيام صدّام، عندما كانت الخدمات الأساسية فاعلة وعاملة رغم العقوبات الدولية الاقتصادية التي كانت مفروضة على العراق. ولا زلنا نسأل أنفسنا بكلّ بلاهة، لما لا يحبوننا؟

(٥) لم نصطَد أبا مصعب الزرقاوي، الذي كان مقرّه في الزاوية الشمالية الشرقية من العراق بعيدًا عن دائرة نفوذ صدّام. أثناء تقديمه الإيضاحات في الأمم المتحدة، قدَّم كولن باول خارطة تبيِّن الموقع الدقيق لمعسكر الزرقاوي؛ لماذا لم يطلقوا صواريخهم آنذاك لاصطياده مع بقية أعضاء تنظيم القاعدة؟

تعمل الماكنة الدعائية الإعلامية للإدارة الأميركية على خداع الشعب الأميركي. عندما هزَّ العمل الإرهابي المفزع في ١١ أيلول أميركا والعالم أجمع، شرحوا لنا الحدث على أنه صراع بين الأغنياء والفقراء، وأخفوا الدافع الحقيقي لابن لادن والميليشيات الإسلامية في ضرب الولايات المتحدة. ضلّلوا الرأي العام الأميركي ثانية! قالوا، «يريد العدو تغيير نمط حياتنا...» ولكن الواقع يقول إن العدو لا يريدنا أن نغيِّر طريقة حياتهم؛ إنهم يحتقرون الثقافة الغربية، يحتقرون قادتهم الذين ندعمهم، يحتقرون الأنظمة العربية الفاسدة التي نتساهل معها، ويمتعضون ويستاؤون من دعمنا لإسرائيل!

علاوة على ذلك، فهم يحنّون إلى الهيمنة والسيطرة العربية الضائعة للشرق الأوسط وأفريقيا وأجزاء من أوروبا، ويلومون الغرب على الانحطاط الذي عاشوه لـ١٠٠٠ سنة مضت. ففي جميع نقاشاتهم يتجاهلون ماذا فعلت الدولة العثمانية،



مركز الخلافة الإسلامية، لهم لأربعة قرون ونيف: دمَّرتهم، وهم مسلمون والأتراك مسلمون! يتجاهلون الحقيقة أن البريطانيين ولورنس العرب هم من حرروهم من أنياب تركيا العثمانية.

وفي نهاية تحليلنا للموضوع، حتى هذه جميعها ليست الدوافع الحقيقية المطلقة لأفعالهم؛ في الواقع، ما يجري الآن ليس سوى فصل من المعارك من أجل شاكلة بابا كركر في العالم العربي. فلو لم يفهمنا هؤلاء من باب الجهل، فعلى أصحاب المناصب منا أن يُدركوا مساعيهم! ولكن، هل فهمناهم؟

لأجل تبرير غزونا واحتلالنا العراق في ٢٠٠٣، استخدمنا بادئ الأمر عُذر امتلاك صدّام أسلحة الدمار الشامل، ثم استبدلناه بمسوغ تعاون صدّام مع إرهابيي القاعدة، ثم برَّرنا ذلك بضرورة تغيير النظام في العراق لأن صدّام كان يشكّل خطرًا على دول الجوار والعالم. كلّ هذه التبريرات الخاطئة ساهمت في تدهور سمعتنا كدولة عظمى تتمتّع بالثقة، والعالم؛ حتى أوروبا تفاعلت مع الأمر بأبسط المشاعر السلبية: الكراهية!

إضافة إلى هذا كلّه، ذهبنا إلى العراق ونحن غافلون تمامًا عن خصوصيات هذا الشعب. وأبسط مثالٍ على ذلك ما رأيته في اليوم التالي على شاشة التلفزيون. كان على المجنّدين الجدد في الجيش العراقي أن يحلقوا رؤوسهم، فاعترض المجنّدون على ذلك، ولكنهم وافقوا في نهاية المطاف. وعندما حاول الحلّاقون قص شواربهم، انفعلوا وتهجّموا على الحلّاقين وحاولوا القفز من كراسي الحلاقة؛ قال أحدهم، «ماذا سأقول لزوجتي؟ هذا شرفي، وأنا رجل شريف، وأنت تهينني!» يعتبر الشارب بالنسبة إلى العراقي، وحتى العربي العادي، شرفه وحلقه معناه إهانته وإهانة عائلته. في الظروف الاعتيادية، لا يمس الحلّاق شارب الزبون لتقليمه إلّا إذا طُلب منه ذلك.

في حادثةٍ مشابهة رأيت على شاشة التلفاز حالة وقعت قبل سقوط صدّام مباشرة، في مؤتمر وزراء الخارجية العرب. حضر الاجتماع ممثلو معظم الدول العربية، من ضمنها العراق، والذي مثَّله عزّة إبراهيم الدوري، الرجل الثاني في العراق. قال

ممثّل الكويت، وهو أميرها الجديد اليوم، شيئًا استفز غضب الدوري الذي تفاعل نحوه بحنق، وقال؛ «يلعن أبو شاربك،» وهذه العبارة مضحكة وليس لها أي معنى بالنسبة إلى الشخص الغربي، ولكنها من أسوأ اللعنات للعربي.

كان على العسكريين الأميركيين أن يتعاملوا مع هذا الوضع، ومع آلاف مثله، بأسلوب لبق: كان بإمكانهم تهيئة الجندي مسبقًا بدلًا من جلبه من خدمة الحراسة وحلق شاربيه. سيقول أبناء محلته أن الجندي سلَّم شرفه إلى الأميركيين للحصول على وظيفة ببضعة دولارات، وسيبقى الأمر عارًا على شرفه ووطنيته. وبطبيعة الحال لم نحُز على حبه وإخلاصه لنا.

عندما تركتُ العراق لم يكن صدّام في السلطة، بل كان حزب البعث هو الحاكم، وقد اعتمدوا أساليب الشيوعيين نفسها للسيطرة على العراق. أصبحت الاعتقالات والقتل وأعمال التعذيب وصلم الأذن عقوبات عادية في البلد. إنقسم حزب البعث بين إثنين من مؤسّسيه، خريجَي السوربون، ميشال عفلق وأكرم الحوراني، ولا أعرف شخصيًا أسباب الانفصال هذا، فقد انحاز عفلق للعراق، ومسكَ الحوراني جانب سوريا.

بعد ارتقاء صدّام إلى أعلى مركز في الحزب، ترأس اجتماعًا لحزب البعث في بغداد، وقرأ لائحة أسماء أمام الحضور. أُخرج أولئك الذين تُليت أسماؤهم من القاعة واحدًا تلو الآخر وأُعدموا مباشرة. تلقى صدّام التصفيق والهتاف من الموجودين وهو جالس وبيده السيكار الكوبي يذرف دموع التماسيح. والآن، وبعد أن نظّف الحزب وأصبح قائده، تلقى مبايعة الوفود له، وبهذا بدأت رحلة قصيرة إلى الدكتاتورية كان لا بد لها من أن تنتهي في تلك الحفرة سنة ٢٠٠٣.

تعامل صدّام مع سلطاته بكلّ فطنة، وبطبيعة الحال تجاهل الحزب ككلّ، مما جعل أعضاء الحزب بمثابة جنود على رقعة شطرنج، يحرّكهم حسب نزواته.

وهكذا بدأت سلالة صدّام الحاكمة، المكوّنة من ابنيه، عدي وقُصي، مع أقاربه وأصدقائه من التكريتيين. تذكّرت شراسة التكريتيين في كركوك وكذلك



زميلي في الدراسة محمد صابر، أنزههم جميعًا، وشعرت بالأسف على شعب العراق! لم يخب ظني بالتكريتيين في سنوات حداثتي، وقد برهن الزمن على صحة حدسي!

عاش العراقيون خمسة وعشرين سنة تحت أشرس نظام حكم، أو بالأحرى أشرس نظام دكتاتوري، لم يرَ العراق مثله منذ أيام الحجّاج بن يوسف الثقفي، الذي حكم العراق بعد أن قطع رؤوس أكابر القوم قبل حوالى ألفٍ من السنين.

عانت الإثنيتان–الدينيتان الرئيسيتان في العراق أكثر من سائر إثنيات الشعب العراقية: الأكراد، بسبب طموحهم إلى نوع من الحكم الذاتي، الذي لا علاقةَ له بالدين، وله كلّ العلاقة ببنود معاهدة سيفر واستفتاء عصبة الأمم حول مصير الموصل. والشيعة الذين اضطُهدوا باعتبارهم طابورًا خامسًا يسعى لتقويض الدولة لمصلحة إيران. إتُهموا بسبب امتداد جذورهم إلى قُم، معقل الشيعة الإيرانية، بتأسيس محور قُم–النجف، أو«محور الشر» حسب تسمية صدّام، الذي قتل أئمة الشيعة في النجف وكربلاء، من ضمنهم السيد باقر الحكيم وثلاثين من أفراد عائلته، وتبعهم عشرات غيرهم.

لم تقع مشاكل بين السنة والشيعة في العراق لهذا السبب السياسي منذ الصدامات بينهما في القرن السابع، والذي فصل أتباع علي عن جسد الإسلام الرئيسي، السُنّة. وابتداءً من ذلك التاريخ دُعي أتباع علي بالشيعة، ولديهم جوامعهم الخاصة التي يسمّونها الحسينيات، حيث يقيمون فيها طقوسهم الدينية، التي يختلف قسم منها عن طقوس السُنّة. أحدها عاشوراء، ويستمرّ مدة عشرة أيام في شهر محرّم. يقيمون خلالها مراسم دينية حدادًا على مقتل الحسين، بممارسة اللطم على الصدور، وجلد أجسامهم مع ضرب جباههم بالسيوف ضربًا خفيفًا لتجري الدماء على الوجه والجسم، فيشعرون بعذاب الحسين ويكفّرون عن جريمة أسلافهم.

بغض النظر عن هذه الاختلافات البسيطة، يجمع الإسلام ونبيُّه السنة والشيعة، كما تتحد الكنائس المسيحية المختلفة مع بعض عن طريق يسوع المسيح.

لا يمكن أن تصدر فتوى عن أي رجل دين سنّي أو شيعي بالجهاد بين المذهبَين، فالجهاد هو الدعوة لقتال أعداء الإسلام. فما يجري من قتلٍ وحشي وتفجير الجوامع والحسينيات التابعة للطرفين ليس بسبب ديني وطائفي، بل سياسي وعسكري. فقد أدان رجال الدين من الجانبَين الاقتتال الطائفي بشدة ووضعوا اللوم على قوى خارجية ترتكب هذه الجرائم. يؤمن الناس، وبعض الذين يؤمنون بنظرية المؤامرة بأن هناك مصالح خارجية تحاول أن تشعل حربًا أهلية لتدمير الهيكل الاجتماعي العراقي. وما يجري في العراق الآن ليس حربًا أهلية، ولن تكون حربًا أهلية إلّا إذا أعلنت المصادر السُنّية والشيعية الاقتتال، وهذا الأمر بعيد الاحتمال.

ففي العراق المعاصر، عندما سادت العلمانية، بدأت الاختلافات المذهبية تتبدد أكثر فأكثر؛ وأصبح الزواج المختلط بين أبناء المذهبين مألوفًا. لم يكن الدين حائلًا أمام حصول أحدٍ على وظيفة في البلد، ولا من النادر أن يكون رئيس الوزراء شيعيًا، وكذلك أعضاء الحكومة، أو يوجد تمييز في قبول الطلّاب في الجامعات أيضًا.

كانت هناك ثلاثة أحزاب سياسية رئيسة في العهد الملكي: حزب الاستقلال، برئاسة فائق السامرائي ومحمد مهدي كبّة، والحزب الوطني الديمقراطي، برئاسة كامل الجادرجي، والحزب الشيوعي الذي كان يعمل في الخفاء. لم يكن لأي حزبٍ أي توجّه عنصري أو ديني أو طائفي، وأعضاؤه من عامة الشعب ومن كلّ طبقاته.

خلال انتفاضة الفرات الأوسط في العشرينات، حاربت العشائر الشيعية أولًا بريطانيا. وأثناء الحرب العراقية-الإيرانية، التي بدأت عام ١٩٨٠، حارب الشيعة إلى جانب الحكومة العراقية السُنّية ضد إيران الشيعية. يعتبر الشيعة العراقيون أنفسَهم عربًا، أولًا، وعراقيين، ثانيًا، وشيعةً، ثالثًا.

أثناء تلك الحرب، نشر الإيرانيون الشيعة الموت والدمار في المدن العراقية الشيعية، وحوّلوا البصرة والمحافظات الشيعية إلى مقابر، من دون أن يأخذوا بالاعتبار حياة شيعة المنطقة.



أيام حكم صدّام، عانى سنّة العراق بقدر معاناة الشيعة، إن لم يكن أكثر: لم تُميِّز وحشية النظام بين أبناء المذهبَين.

عند النظر إلى كلّ هذه الوقائع، لا نتعجّب عندما نقول إننا خلقنا اصطناعيًا هذه التفرّقة العنصرية-الطائفية لأسباب من السهولة التكهّن بها.

لم يكن الانقسام العربي-الكردي، في الماضي والحاضر، انقسامًا إثنيًا حقيقيًا، لأن غالبية الأكراد من السنّة؛ وليس لهم أي نزاع ديني-طائفي مع الشيعة. كان نضالهم ضد بغداد لاستعادة حقوقهم على أرضٍ كانت وطنهم قبل ٤٠٠٠ سنة.

في ١١ آذار ١٩٧٠ توصّل الجانبان العراقي والكردي إلى اتفاقية لتأسيس منطقة حكم ذاتي للأكراد في العراق في منطقة ولاية الموصل القديمة، وهي الولاية التي خسرتها تركيا لمصلحة المملكة العراقية الحديثة التكوين في الاستفتاء الذي أجرته عصبة الأمم آنذاك. يطلق الأكراد اسم كردستان الجنوبية على تلك الولاية. وكردستان الشمالية هي كردستان تركيا، والغربية في سوريا والشرقية في إيران. كانت منطقة بابا كركر هي النقطة الحسّاسة في تلك الاتفاقية مما حدا بصدّام أن يتراجع عن الاتفاقية.

إستمر القتال ونتجت عنه معارك طويلة: ففي جريمة الإبادة الجماعية في حلبجة، قتلت قوّات صدّام ٥٠٠٠ شخص بالغازات السامة؛ ولو أن بعضًا من المصادر يتّهم إيران بارتكاب مجزرة حلبجة. مع هذا، فإن حملة الأنفال كانت من تدبير صدّام وقتلت قوّاته الأكراد من دون رحمة. هرب مئات الآلاف منهم إلى تركيا، ووضعتهم الأمم المتحدة والولايات المتحدة تحت رعايتهما ووفّرتا لهم بعضًا من الحماية والأمان.

وُجد نوعٌ من التوازن الإثني في العراق في القرون الخمسة الماضية، ولكن ناله الاضطراب بسبب الحربَين العالميتين الأولى والثانية، إنما من دون مناوشات أو صدامات جادة. كان الشقاق الكردي-التركماني حول ولاية الموصل بمثابة الجرح الدامي في العلاقة بينهما. ولم يكن هناك أي صراع سني- شيعي حول أي

شيء. عاش السنّة، الشيعة، الإيزيديون، الآشوريون، الكلدان، الأكراد، التركمان، المندائيون والأرمن في وئام ووفاق. لعل المستعمرين العثمانيين والبريطانيين أرادوا هذا التعايش السلمي لغايات في أنفسهم.

في آذار ٢٠٠٣، أقلقنا ذلك التعايش السلمي عندما غزونا/ حَررنا العراق. نرى الآن أن سياسة الولايات المتحدة تتركّز على الاختلاف الإثني العنصري للبلد، وهي مقامرة خطرة نلعبها، ومن الممكن أن ينتج عنها تقسيم العراق إلى كانتونات حسب الانتماءات العنصرية والقومية والطائفية: الشمال الغني بالنفط للأكراد، وترقية مستوى الحُكم فيها من حكم ذاتي إلى دولة ذات سيادة؛ الجنوب الغني بالنفط للشيعة؛ ومنطقة الوسط الفقيرة للسُنة. هذا مجرد سيناريو على الطريق! في جميع الأحوال، وبغض النظر عما سيحصل، أصبحت كركوك قُدس العراق، منطقة متنازع عليها، تحتاج إلى صلاح الدين آخر لإنقاذها، وأنا شخصيًا لا أرى واحدًا في الأفق! وليس هناك من شك أن المعركة تدور على بابا كركر!



# الفهرس




**أفول الليبرالية العربية في نزاع السلطة والنفط**

تحليل عميق للوضع العربيّ العام انطلاقًا من معاينة شاهد عيان لأحداث العراق، بين النصف الثاني من الأربعينات وبداية الستينات في القرن الماضي، قدر له أن يكون في شوارع بغداد، يوم ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨، ويرى جثة الوصي على العرش تُسحل. كذلك كان مصيره أن يُعتقل ويُعذّب في حملة قمع الشيوعيين لانتفاضة الشوّاف بعد أشهر، وأن يشهد محاولة الانقلاب على قاسم، ثم انقلاب البعثيين عليه، إلى أن يقرر أن يهاجر سعيًا وراء وطن يؤمّن له حقوق المواطنة والإنسان، هربًا من النزاعات على السلطة والنفط والانقلابات وشعاراتها.

عبر سرده لمشاهداته في الريف الكردي، والمناطق العراقية التي عاش فيها، وبخاصّة في كركوك، مسقط رأسه، تبدو عين الكاتب أشبه بعدسة كاميرا خماسيّة الأبعاد: تنقل مشاهدات أحداث تاريخية، وتحليلًا اقتصاديًا واجتماعيًا وأنتروبولوجيًا، وتقدّم الخلفيات الإثنيّة والدينيّة، بأسلوب مشوّق يسحب القارئ إلى عالم عربي قارعت نوعيّة الحياة فيه العواصم الأكثر تقدّمًا في حينه.

يمتاز هذا الكتاب بالجرأة في الإشارة إلى مسؤوليّات العالم الغربي، وبخاصة بريطانيا والولايات المتحدة وقيادات العالم العربي، وفي مقدّمتهم الرئيس جمال عبد الناصر، عن تردّي أوضاع المجتمعات العربيّة، وبقول الرأي من دون مواربة، كما يفترض بطبيب يتعامل مع الأمراض من دون مواربة، ولا يتوخّى سوى إراحة ذاكرته التي يعتصرها حنين الفراق عن العراق عمومًا وكركوك وبغداد خصوصًا.

## هنري آستارجيان

ولد الدكتور هنري أستارجيان في كركوك، العراق. تخرج من الكليّة الطبية الملكية في بغداد سنة ١٩٥٨ . خدم في الجيش كضابط طبيب، في كردستان العراق.

أكمل دراساته في الطب، في اسكتلندا وإنكلترا، وهاجر سنة ١٩٦٦ إلى الولايات المتحدة حيث اندمج في الحياة السياسية، فانتُدب لتمثيل ولاية نيوهامبشير في مؤتمر الحزب الجمهوري، العام ١٩٩٢ في هيوستن.

ألقى محاضرات أمام البرلمان الكردي في المنفى في بروكسيل، مدافعًا عن حقوق الأرمن في أرمينيا الغربية (شرق تركيا)، وكذلك في المؤتمرات التي عقدها الأكراد في ميريلاند، وكاليفورنيا في الولايات المتحدة.

صدر كتاب The Struggle for Kirkuk عن دار Preager and Preager International Securities.

ISBN. 978-614-451-098-8
9786144510988